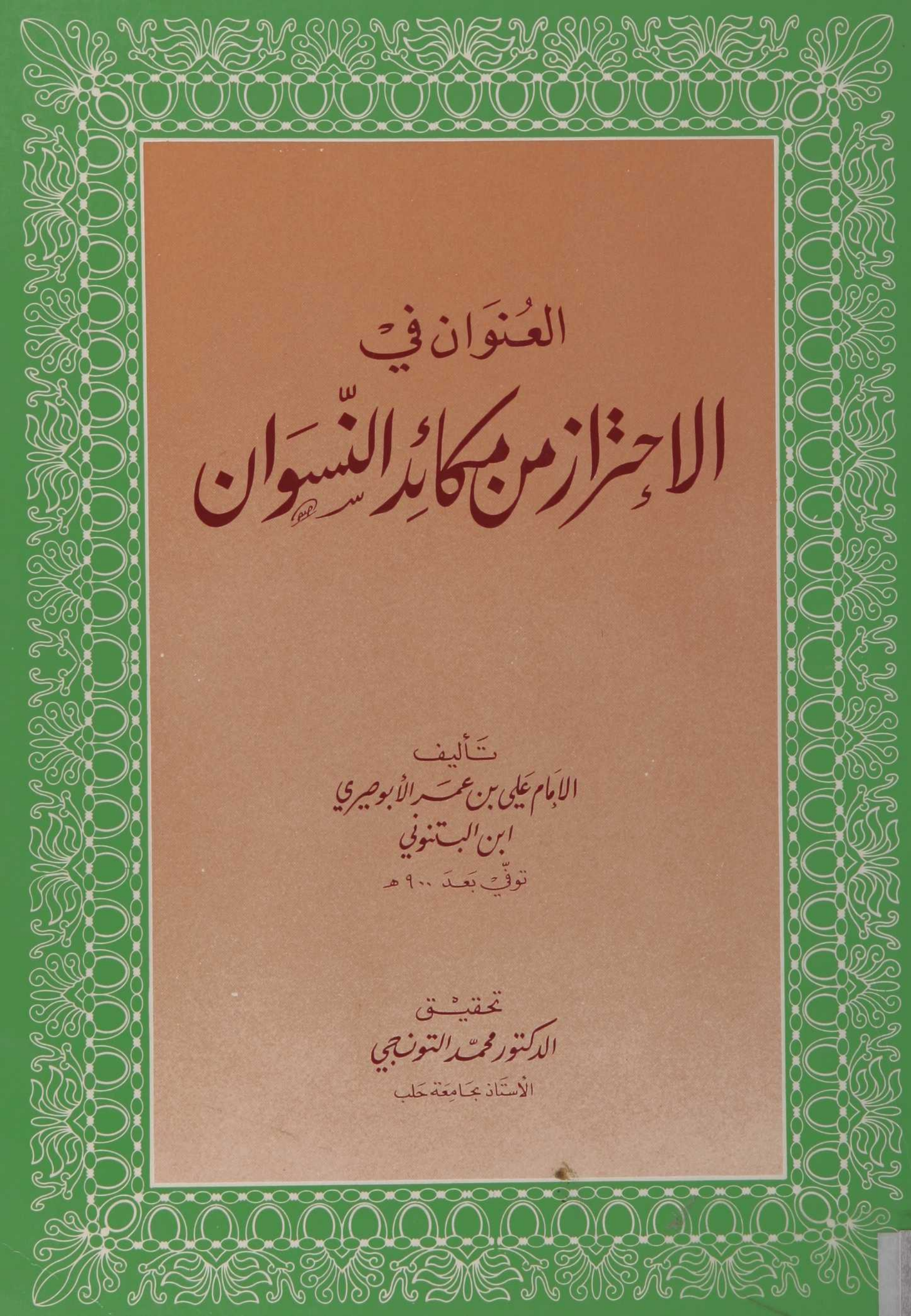

العُنوَان في
الاحتراز من مكائِدِ النّسوان
تأليف
الإمام علي بن عمر الأبوصيري
ابن البتنوني
توفي بعد ٩٠٠ هـ
تحقيق
الدكتور محمّد التونجي
الأستاذ بجامعة حلب

العُنوان في

الاحترازمن مكائدِ النّسوان

العُنوان في
الاحتراز من مكائِد النّسوان

تأليف
الإمام علي بن عمر الأبوصيري
ابن البتنوني
توفّي بعد ٩٠٠ هـ

تحقيق
الدكتور محمّد التونجي
الأستاذ بجامعة حلب

الطبعة الثانية

1989

الناشر :

دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف 865126 — ص.ب. 13/5261 بيروت — لبنان

توزيع :

مكتبة بيسان

هاتف 802389 — ص.ب. 13/5264 بيروت — لبنان

المؤلف والمراجع عنه

المعلومـات عن مؤلف هذا الكتـاب النـادر قليلة جداً، لاتكـاد تغني شيئاً، وغاية ما وصل إلينا أنه: الشيخ نور الدين علي بن عمر بن علي بن حسام الدين الكبير الأبوصيري، الحنفي، الشـاذلي، المعـروف بابن البتنـوني. صوفي مصـري من الأحنـاف. ونسبتـه إلى «بَتنون» كحلزون، من بلاد المنوفية. وهي قرية قديمة، وهي حالياً مركز من مراكز محافظة المنوفية.

يبـدو أنـه توفي بعـد سنة ٩٠٠هـ، وهي السنة التي ألف فيها كتابه «السر الصفي». كذا جاء في فهرست مخطوطات «شستربتي: ٧/ ١١». وكذا قاله صاحب إيضاح المكنون في أثناء حديثه عن كتابه «السر الصفي». وهو حين بلغ ذكر وفاته ترك فراغاً، دليلاً على جهله به.

كما أن الكتب لم تذكر لنا من مؤلفاته إلا كتابنا هذا، وكتاب «السر الصفي في مناقب شمس الـدين محمـد الحنفي»[1]، فرغ منـه في المحرم من سنة ٩٠٠، وهو مطبوع بمصر في جزءين. ومحمـد الحنفي هذا هو محمـد بن حسن بن علي التيمي البكـري الشـاذلي، وهـو صوفي مصري من أهل القاهرة. اشتهر بأخبار حكيت عنه مع السلطان فرج بن برقوق وغيره.

ولعل ابن البتنوني هذا ألف كتابه العنوان قبل تأليفه السر الصفي، لأننا لم نلحظ أنه أورد ذكره في تضاعيف كتابه. كما أننا لم نستطع ـ مع الأسف ـ العثور على السر الصفي المطبوع.

---

١ ـ كذا في معجم المؤلفـين. وفي الأعـلام «السـر الصفي في منـاقب سيـدي محمـد الحنفي». وفي هديـة العارفين «البكري الحنفي».

المراجع عنه:

أما الكتب التي ذكرته، وكلها متشابهة المضمون:

١ ـ معجم المؤلفين: ٤/ ١٥٩.

٢ ـ إيضاح المكنون: ٢/ ١٠.

٣ ـ فهرس دار الكتب المصرية: ٣/ ٣٨٠

٤ ـ هدية العارفين: ١/ ٧٣٩

٥ ـ الأعلام: ٦/ ٣١٩ في أثناء التعريف بمحمد بن حسن التيمي (ت ٨٤٧).

٦ ـ Brockelmann: g, II: 123..

٧ ـ فهرست شستربتي: ٧/ ١١.

عصره

عاصر ابن البتنوني أوائل حكم المماليك الجراكسة الذين كانوا يحكمون مصر والشام من (٧٨٤ - ٩٢٣).

وقد ورد ذكر الناصر فرج بن برقوق في كتابه السر الصفي الذي حكم حتى ٨١٥. فإذا ثبت أن ابن البتنوني توفي بعد سنة ٩٠٠، فإنه يكون قد عاصر أغلب هؤلاء المماليك، ولعله عاش حتى الناصر محمد بن قايتباي المتوفى سنة ٩٠١، وأنه بهذا كان من المعمَّرين.



قصة العنوان

الكتب التي ألفت عن النساء:

لعل من أطرف الكتب التي تسترعي انتباه القراء ماخُصَّ منها أو بعضها في الحديث عن المرأة؛ فهي الطرفُ الناعم من هذا الجنس البشري، وهي الأنس الذي وهبه الله تعالى للرجل، وهي السرُّ الواضح، والجليُّ الخفيُّ في هذا الكون!

وقد أدرك المؤلفون جاذبية هذا السر، وأهمية ذكر المرأة في كتبهم. فنراهم قد زينوا كتبهم بنوادر وأطراف من المعلومات والأخبار، عدّوا الحديث فيها محطةَ ارتياح فكري، وموطن بسمة متوقَّعة لكل قارىء، فلا نكاد نجد كتاباً جمع أطرافاً من الطرائف، وباقات من الأخبار إلا وخصَّ جزء من عمله للحديث عن جانب شائق من جوانبها، مثل كتاب «محاضرات الأدباء» للراغب الأصبهاني، و«الأغاني» لأبي الفرج، و«المخصص» لابن سيده، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة...

وهناك من أفردوا كتباً خاصة في الحديث عن المرأة سلباً أو إيجاباً؛ في الحب، وفي فلسفة العلاقة الوجدانية كطوق الحمامة في الألفة والألّاف لابن حزم، وأهمية العلاقة الحلال وسوء العلاقة الحرام. ومنهم من ألَّف في طبقات النساء، وهي كثيرة منها: «نساء الخلفاء من الحرائر والإماء» لعلي البغدادي (ت٦٧٤)، و«السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» لأحمد بن عبد الله الطبري (ت ٦٩٤)، و«نزهة الملوك والأعيان في أخبار القيان والمغنيات الدواخل الحسان» لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦).

ومنهم من خصَّ الشاعرات منهن، كالسيوطي في كتابه «نزهة الجلساء لأشعار النساء»، والحسن ابن الطرّاح في «النساء الشواعر».

وكثير منهم من كتب عن النكاح الحلال والسفاح الحرام، من نواح شرعية وغير شرعية. من هذه الكتب: «الوشاح في فوائد النكاح» و«ضوء الصباح في لغات النكاح»

للسيوطي، و«الإيضاح في أسرار النكاح» لعبد الرحمن الشيرازي (ت ٧٧٤)، و «كتاب النكاح» لمحيي الدين بن عربي، و«المناكحة والمفاتحة في أصناف الجماع» مجهول المؤلف.

ومنهم من ألف كتاباً طريفاً في النصائح التي تخصُّ الخاطب والمتزوج ككتاب «نزهة المتأمِّل ومرشد المتأهل» للسيوطي، وهو جديد في موضوعه .

ومنهم من تكلم على المرأة من نواحٍ شرعية عامة، من ذلك: «رفع الجناح عما هو من المرأة مُباح» و«إسبال الكساء على النساء» للسيوطي، و«أحكام النساء لابن الجوزي»، و«العنوان في تحريم معاشرة الشبان والنسوان» لمحمد بن عمر الغَمْري (ت ٨٤٩).

ومنهم من جمع أخبارهنَّ وطرائقهن كابن الجوزي في كتابيه «عجائب النساء» و «أخبار النساء».

إلى غير ذلك من نوادر الكتب وطرائفها التي ضمت جوانبَ جاذبةً للاطلاع والمطالعة، قد لا يجدي عرضُ جزء آخر كثيراً. وما ذكرناه عبارةٌ عن إشارات خاطفة. والحديث عن كتب النساء لا ينتهي عند المؤلفين العرب والمسلمين، واستعراض اتجاهاتهم في أغراضها بالتالي واسع جداً.

دوافع المؤلف إلى تأليف الكتاب:

ومما لاشك فيه أن الأدباء الذين خصوا كتبهم، أو طَعموها تطعيماً، بهذه المادة الخصبة أذكياء في انتقاء موضوعاتهم. ونعدُّ مؤلفنا ابنَ البتنوني أكثرهم حنكة وألمعية وذكاء، إذ قدَّم لنا كتاباً ضمَّ بين دفتيه عشرات من القصص الطريفة التي حاول أن يثبت فيها دهاء المرأة وكيدها، والوسائل التي اتَّبعتها لإيقاع الرجل بأحبلها، أو للوصول به إلى غايتها، مهما كانت.

ولعل المؤلف وقع في مكيدة إحدى السيدات، وانجرف بتيار خُبثها. وهو حين صحا من وقعته ـ إن صحا ـ أحبَّ أن يردَّ على كيدها به بفضح ألاعيبها من وراء قصص وحكايات انتقاها من التاريخ، ومن إشارات ورد ذكرها في القرآن الكريم، والسنَّة

الشـريفـة، والسـيرة النبوية، والكتب المسيحية والإسرائيلية. . . وكثير من هذه القصص مطعَّم بالخيـال، وإن كان الـواقـع صريحـاً في بعضها الآخر. ولا يغير رأينا هذا في ذكاء ابن البتنوني، بل ربما زادنا إيماناً باختلاق وسيلة مجدية للرد عليها، فلمس المرأةَ من نقطة تشعر بأنها نقطة قوتها.

فمن مِنا لا يؤمن بكيد النساء؟

ومن منا لم يمرَّ بقصة أو بحادثة واقعية أو تاريخية برهنت على هذه المقولة؟

ومن منـا بالتـالي لم يستخـدم قول الله تعـالى في مثل ما استخدمه المؤلف في خاتمة كل قصة من قصص الكتاب «إن كيدكنَّ عظيم»؟ .

خطة المؤلف ومنهجه:

والحق أن ابن البتنـوني لم يكن مبتكـراً تمامـاً لموضـوعـه هذا؛ فالكتب السابقة الذكر عرضت نماذج جيـدة من كيـدهن، ومصـادره في قصصه من تلك الكتب. ولقد عثرنا على كتب خاضت المـوضـوع نفسـه تقـريبـاً، مثل كتاب «ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار» لابن جزلـة (ت ٤٩٣) الطبيب المسيحي، «ورشد اللبيب إلى معـاشـرة الحبيب» لابن قلبتـه (ت ٢٣١) الـذي كان من مصـادر ابن البتنـوني في كتـابـه هذا. ومن سوء الحـظ أن هذه الكتب ضاع بعضها ولم يحظَ بعضها الآخر بالنشر، وكان كتاب العنوان من الكتب النادرة التي بقيت كاملة بين أيدينا.

ونعتقـد أن المؤلف فاقهم في عرضـه وصراحته وطريقة عرض براهينه ومواده. ولعل إجـادتـه هذه نجمت عن سقـوطـه في إحدى ألعوبات بنات حواء كما ذكرنا. وكأنه رجا من عمله هذا أن يرضيَ نفسه في عمله، فأسعفنا بما عانى في جمعه وصبِّه.

على أنه لم يذكر لنا ذلك، بل قال في مطلع مقدمته عن دوافعه التأليفية: «وقد سألني بعض الإخوان أن أجمع له كتاباً يشتمل على شيء من المواعظ المختصة بالنساء الجاهلات وغيرهن. . ». وتابع قوله: «وأكثر ماوقع في هذا المختصر على النساء الجاهلات عن الأمور الشرعيات، وصرف هممهنَّ إلى الشهوات الفانيات والأحوال الموبقات».

لكننـا لسنـا معـه في أن النسـاء جميعـاً صاحبـات كيد، وأن هدفهن ـ جميعاً ـ رشف شهـواتهن بوسـائـل يختلقْنَهـا. ولانحسب أن الرجل مقصر في التسهيل لها بهذه الألاعيب،

ونعتقد جازمين أن لولا الرجلُ (السيء طبعاً)، ولولا تشجيعه لهن، لما أقدمْن على مثل هذه المكايد. كما أننا على يقين من أن بعض الرجال لايعدمون وسيلة ولامكيدة في كسب ودهنَّ وتسهيل الحَزْن من الطرق لهن. وكم من قصة قرأناها - حتى في أمثال هذه الكتب - كان الرجل فيها بطل المكيدة لا المرأة! وكم من رجل غرَّر بالمرأة الساذجة ليرميَ بها في أحبل شروره، حتى إذا وصل إلى مبتغاه منها عافها وتناساها!

فالكتاب مجموعة آقاصيص دينية، أو تاريخية، أو مطعَّمة منهما، أو ذات طابع خيالي وعظي. وهو في ذلك كله لم يكتب شيئاً من عنده. وغاية مافعله أنه جمع الروايات والنقول، واختصرها وهذَّبها، واستشهد عليها من مخزون معرفته بذكاء نادر وعرض جالب.

روایاته ونقوله:

وروايته هذه أغلبها موثوق به. أصحابها رواة أعلام، من أمثال: عاصم، أبي الجوزاء، الإمام النسفي، جعفر الصادق، الطبري، الأصمعي، سفيان الثوري، الحسن البصري، القاضي شريح، علي بن الجهم، المبرد، عطاء بن مسلم، الكلبي، عكرمة، الإمام القشيري، ابن الجوزي، وهب بن منبه، ابن عساكر، الترمذي.. والملاحظ أنه أخذ عن القدماء، ولم نجده أخذ عن معاصرين له إلا نادراً.

ثم هو أمين في نقوله؛ لايذكر لنا حكاية أو خبراً إلا مشفوعاً بالكتاب الذي نقل عنه، أو العَلم الذي سجل قبله الخبر، كقوله عن كتاب «رشد اللبيب»: «وهو كتاب عظيم أخذت منه مايحتاج إليه..». لكنه ينسى أحياناً ذكر اسم الكتاب، فيكتفي باسم مؤلفه كقوله: «.. ماأورده ابن الجوزي في بعض كتبه»، أو أنه ينسى الاثنين معاً فيقول: «وعلى ماروي في بعض الأخبار» أو قوله: «وفي رواية». لكن هذه الإشارات قليله، وهي بدورها تدل على أمانة المؤلف ودقته العلمية.

أما الكتب التي نقل عنها فكثيرة، أهمها: القرآن الكريم وتفاسيره، الحديث النبوي وشروحه، و«زهر الرياض» للشعبي، و«عقائق الحقايق» للإمام القشيري، و«إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، و«رشد اللبيب» لابن قُليته، و«النطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم» و«صدور المجالس» و«درياق القلوب»، و«ذم الهوى» وكلها لابن الجوزي، و«عصمة الأنبياء» للرازي فخر الدين، و«كشف الأسرار» لعبد الرحمن الدمشقي، و«جمع الأحباب» لمحمد بن حسين الواسطي، و«حلية الأولياء» لأبي نُعيم الأصبهاني، و«التمهيد» لابن عبد البر، و«أخبار النساء» لابن قيم الجوزية، وكثير منها مخطوط أو مفقود.

وقد ذكر المؤلف أنه ختمه «بفصل مختصر وكلام مختصر يتعلق بأحوال النساء الصالحات المذكورات في كتب الوعظيات تبركاً بذكرهن، وتيامُناً بفضلهن، وتعجباً من أحوالهن». إلا أنه لم يفعل هذا بشكل صحيح بارز إلا عن طريق الوعظ والإرشاد وذكر بعض أحاديث الرسول ﷺ. وكم كنا نتمنى عليه أن يذكر بعض حكايات النساء الصالحات، ليرتقَ كتابه هذا، ويوازن بين فئتين من بنات حواء.

وقد أكثر المؤلف من الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال الحكماء، واستند إليها في أساس أغلب قصصه، وشرح بعض الآيات، وعدداً من ألفاظها ليقرب المقصود من الحكاية إلى الأذهان، وليلبس قصته ثوباً علمياً سليماً. وهذا يدل على سعة اطلاعه، ومكنوز معرفته.

عنوان الكتاب:

ورد عنوان كتاب ابن البتنوني بثلاث روايات؛ فقد سَجل الناسخ على الغلاف اسمه مختصراً: «العنوان في مكايد النسوان»، وورد في مطلع مقدمة المؤلف أنه: «العنوان في الاحتراز من النسوان». أما الرواية الثالثة فهي التي نقلناها من «كشف الظنون». وهو: «العنوان في الاحتراز من مكايد النسوان»، وهي الرواية التي اعتمدناها لدقتها وشموليتها، ولأنها أفضل أداء، وأكثر وضوحاً للمضمون. فلعل حاجي خليفة نقل العنوان عن الأصل، في حين أن الناسخ تصرّف ببعض مفرداته، كما تصرف في نسخ بعض المفردات، مما يقع عليه القاريء.

عمل الناسخ :

مع شديد الأسف، لم نستطع العثور على نسخة المؤلف الأصلية. والنسخة التي بين أيدينا، ونقدمها للقراء والباحثين، هي بخط محمد البرهمي الأزهري، والمؤرخة بيوم الثلاثاء ١٦ جمادى الأولى من شهور سنة ١١١٨، كتبها بخط نسخي واضح. ويبدو للناظر في ورقات المخطوطة لأول وهلة أن إلنسخة سليمة مقروءة مضبوطة، لكنه حين يمعن فيها، ويطالع بعض ورقاتها يحسُّ بكثرة أغلاطها، وتحريفها، وتشوه شكلها. ومن أبرز عيوب هذه النسخة:

١ - لم يكن للناسخ أذنٌ موسيقية من قريب أو من بعيد؛ فعددٌ من شواهده مضطرب. فقوَّمنا بعضها بالرجوع إلى الأصول، وصوَّبنا بعضها الآخر بقلمنا، وأشرنا إلى ذلك كله في موضعه المناسب في الحواشي. بينما تعذَّر علينا تقويمُ بعض الأبيات، فسجلناها كما وردت، تاركين أمرها لفرصة ثمينة، حين يتيسَّر لنا كشف نسخة أخرى أكثر كمالاً، ولحصافة السادة الباحثين الذين تتهيأ لهم ظروفُ أفضل من ظروفنا. فلعل الله يسدِّد خطاهم، فيؤدون خدمةً جلى، وهي مع ذلك قليلة جداً.

٢ - ومع أن النسخة مضبوطة ومقروءة إلا أن المتعمق في الكتاب بدقةٍ يلحظ أن الثقة بضبط الناسخ معدومة. ناهيكم عن أخطاء فادحة لايقع فيها متوسطو الثقافة، ولكنها في زمانه عادية ومبذولة. فهو مثلاً لايراعي جواب «لما» قط، ولايعبأ بضمائر العاقل أو غير العاقل..

وقد اضطررتُ أحياناً إلى التبسيط بالشرح والضبط، يقيناً مني أن هذا الكتاب سيلقى رحابة صدر لدى العامة والخاصة، ويتلقاه كل مطالع، ولن يقتصر على مستوى الباحثين والمحققين، بل سيردُ كل منزل.

كما أنني رقمتُ الأصول صفحة صفحة، معتبراً صورة الورقة أمامي صفحتين؛ اليمنى «آ» واليسرى «ب»، وليس على أساس أن الورقة واحدة وجهاً وقفاً، لأن أكثر المؤسسات الآن لاتقدم لنا المخطوطات إلا بالتصوير الفوتوكوبي.

ولاحظت أن الورقة الأولى التي كتب فيها حديث الإمام علي (رضي) هي بخط ناسخ آخر اسمه عثمان، ومع ذلك سجلتها، مقدِّراً أهمية وجودها في المقدمة، لمناسبتها للموضوع.

والله من وراء القصد

«المحقق»

قال الإمـام علي، كرَّم الله وجهـه، ورضي عنـه آمـين: إنَّ «بسم الله الرحمن الرحيم» أربـعُ كلماتٍ، والـذنـوبُ أربعـةُ أنواع: ذنوبُ الليل، وذنوبُ النهار، وذنوبُ السر، وذنوبُ العـلانيـة. فمن قرأ هذه الأربعـةَ على الإخـلاص عفـا الله تعـالى عنه، لايؤاخذ له بهذه الأربـعِ. من كتـاب «التصـريـحِ في علم الأصـول» للسادة الحنفية؛ الإمامُ المعظمُ المبجَّلُ سيدُنا أحمدُ بنُ حنبل، من كلامه حيثُ قال:

وكـيـف أخـافُ الـفـقـرَ، والله رازقي — ورازقُ كلِّ الخـلقِ بالـعُسـر والـيُسـرِ؟
تكـفَّـلَ بالأرزاق للخـلقِ كلِّهـم — وللضَّبِّ في البَيـدا، وللحـوتِ في البحـرِ
يارِبِّ، أعـضـاء الـسـجـودِ عَتـقـتُهـا — مِن فَيـضـك الـواقـي، وأنـتَ الـواقـي
فامْـنُـنْ علينـا بالـرِّضَـى ياذا الـرضَى — وامْـنـنْ على الـفـاني بعـتْـقِ الـبـاقـي

كتبها عثمان

٣/آ

/ بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمـدُ لله ربِّ العـالمين، والعاقبةُ للمتَّقين، ولاعُدوانَ إلا على الظَّالمين. وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ وسلَّم.

أمـا بعـدُ، فيقـول العبـدُ الفقيرُ المعترفُ بالعجز والتَّقصير «عليُّ بنُ عُمر» وعبيدُ أهل الحقِّ والنظـر، المعـروفُ[1] بابن البَتْنـونيِّ الأبـوصـيريِّ الشـاذليِّ الحنفيِّ، عاملَه الله بلطفهِ الخفيِّ: قد سألني بعضُ الإخـوان في الله تعـالى، أنْ أجمـعَ له كتـاباً يشتملُ على شيء من المواعظِ المختصَّة بالنساء الجاهلات، وغيرِهن لما سَبق في علمهِ من المقدورات. وأكثرُ ما وقعَ التنبيـهُ عليـه في هذا المختصـر على النسـاء الجـاهـلاتِ عن الأمـورِ الشَّـرعيات اللاتي قد أعـرضْنَ عما يجب عليهنَّ من الحقـوق الزوجيَّات، والأحكام الدِّينيات، وصرفِ هممهنَّ إلى الشهواتِ الفانيات، والأحوالِ المُوبقات، وأَبْذلْن جهدَهُن في ماهو سببٌ لهلاكِهنَّ. وقطعْنَ أعـمارَهن في مايستـوجبْنَ به لعنتهنَّ، قاتلهنَّ الله ما أكثـرَ جهلهنَّ بأمـورِ دينهنَّ! ومـاأعظمَ رغبتَهن في حُظـوظ نفـوسهن! ومـا أشـدَّ إعـراضَهن عما فيـه صلاحُهنَّ. فعليهنَّ من الله مايستحقُّون، «أولئك حزبُ الشيطانِ، ألا إنَّ حزبَ الشيطان هُم الخاسرون»[2].

وكيفَ لايكونُ ذلك، وقد جاء في القرآنِ أخبارٌ عن عزيزِ مصرَ أنَّه قال: «إنَّه من كيدِكُنَّ، إن كيدَكنَّ عظيم»[3].

---

١ ـ كذا قرأناها، وفي الأصل: المعترف.

٢ ـ الآية: ١٩ / المجادلة: ٥٨.

٣ ـ الآية: ٢٨ / يوسف: ١٢.

وقــد جاءتِ السُّنَّــةُ بذلــك، فقــال، حينَ بيَّنَ للأمـةِ حكمَ الإحسـانِ والإسـاءة:
«ماتركتُ على أمَّتي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء». وصحَّ عنه ﷺ أنه قال/: «واشتهرَ ٣/ب
من شَرعه المُبين أنَكنَّ يامعشرَ النساء أنكنَّ ناقصاتُ عقلٍ ودين».

فلما رأيتُ ذلك، وتأمَّلتُ ماهُنالك أحببتُ أن أُجيبَ منه السؤالَ، وأن أمنحَهُ جزيلَ النَّـوال. فاستخـرْتُ الله تعـالى في جمعِ هذا الكتاب، ليكون تذكرةً للأخلَّاء والأصحاب، ونبَّهتُ فيـه على مَكايدِهنَّ وحِيلِهِنَّ مع ضَعف عُقولهن، ومايستوجِبْنَه من الوعيد الشَّديد، وسـوء الـوبـال والتهـديـد. ومـاوردَ في ذلك من القرآنِ والسُّنة والجماعة. وسميتُه **العنوانَ في الاحـتراز من النِّسـوان**[1]، وختمتُـه بفصـلٍ مختصـرٍ، وكلامٍ مختصر، يتعلَّقُ بأحوال النساء الصالحات، المذكوراتِ في كتبِ الوَعظيات، تبرُكاً بذكرهنَّ، وتيامُناً بفضلهن، وتعجباً من أحـوالهنَّ. وأسألُ الله العظيم أن يجعلَه خالصـاً لوجهـهِ الكـريم، إنـه على مايشـاء قديـرٌ، وبالإجابة جَدير.

وهــذا، حين شُروعي في هذا الكتـاب مُستعيناً بِمَن إليـه المرجـعُ والمـآبُ، مُتـوكـلاً عليـه، ومُفـوِّضـاً أمـري إليـه. فأقـولُ، أيَّـدنا الله وإياكم بتوفيقه، وسَلك بنا وإياكم سبيلَ الهُدى وتحقيقهِ: إنه يجبُ على العبد أن يعتقدَ ويَتيقَّن أنَّ ماشاءَ اللهُ كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه تعالى لارادَّ لقضائه، ولامُعقِّبَ لحكمه، وأنه يَهدي من يشاء، ويُضلُّ من يشاء؛ يُضلُّ من يشـاء بعـدلـهِ، ويَهـدي من يشاء بفضلهِ. ولا يُسأل عما يَفعل، وهـم يُسألون. فسبحانَ مَن حكمَ على أهـل الشقـاوةِ بالطَّـرد والحرمان، وعلى أهلِ السَّعادة بالتوفيق والإحسان. قال الله تعالى: «فمنهم شقيٌّ وسَعيد»[2].

وقـد وردَ في الحـديث الشريف عن سيِّدِ المرسلين /ﷺ أنه سُئل: متى تقومُ الساعةُ؟ ٤/آ
قال: «حتى تتكـامـلَ العِـدَّتـان؛ عِدةُ أهلِ الجنة، وعِدَّةُ أهل النار». سبقَ اختيارُه فبطل الحيلُ، وغضب على قومٍ لم ينفعْ مُطيعَهم مافعل».

---

١ ـ انظر تعليقنا على «العنوان» في المقدمة.

٢ ـ الآية: ١٠٥ / هود: ١١.

ولنشرعْ في ذكرِ ماالتزمناهُ مِن أحوالِ النساء الطالحاتِ، أي الخبيثاتِ. وهنَّ اللاتي وردَ الشرعُ بالإنكارِ عليهن، ونهى عن الإركانِ إليهن. وأمرَ بالبُعد عنهن، والاحترازِ منهنَّ. قال الله تعالى في كتابه العزيز: «ياأيُّها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادِكم عدوّاً لكم فاحذَروهم»[1]. أي منهم مَن يعملُ في حقِّكم عملَ العدوِّ في المنع من الخيرِ والإقدام على الشرِّ. فاحذرُوهم أي اتَّقوهم، واحترزوا منهم، و«مَن» في هذه الآية للتَّبعيض. أي: مِن النساء والأولاد مَن يحصلُ منه ذلك.

قال عطاء بنُ مُسلمٍ الخراسانيُّ: نزلتْ هذه في عَوف بن مالكٍ الأشجعيِّ[2]. كانت زوجتُه وولدهُ يُبطِّئونه عن الجهاد والهجرة، ويَمنعونه[3] من ذلك حتى يُوقعوه في الشرِّ، بتخلُّفهِ عن الجهاد مع رسول الله ﷺ. وذلك من أعظمِ العداوة.

قال مُقاتلُ بن حِبّانَ: نزلت هذه الآيةُ في شأن الهجرةِ، لما ضيَّق الكفارُ على المؤمنين بمكةَ، فجعل الولدُ والمرأةُ يقولان للرجل: أينَ تذهبُ وتَتركُ أهلكَ وعشيرتَك ومالَك، وتصيرُ إلى المدينة بغيرِ أهلٍ وعشيرةٍ ومال؟. فيمنعونَهم من الهجرة، فكان الرجلُ يقول: إنْ جمعنا الله وإياكم في دار الهجرة، أي المدينة، لاتُصيبوا منَّا خيراً. فحذَّرهم الله وأولادَهُم في دار الهجرة، مَنعوهم ماينتفعون به. فوعظهم الله تعالى بقوله: «وإنْ تَعفوا وتصفحوا وتَغفروا فإنَّ الله غفورٌ رحيم».

قال عِكرمةُ: إنَّ نفراً أسلموا بمكةَ، فلما أرادوا أن يَخرجوا/ إلى المدينة مَنعهم أولادهم وأزواجُهم. فلما قَدِموا على النبيِّ ﷺ بالمدينة، والناسُ تفقَّهوا في الدين، نَدموا على تأخُّرهم عن الهجرة، وأرادوا أن يُعاقِبوا أزواجَهم وأولادَهُم. فأنزلَ الله هذه الآيةَ: «وإن تَعفوا وتَصفحوا وتَغفروا فإنَّ الله غفورٌ رحيم»[4]. ٤/ب

---

١ ـ الآية: ١٤ / التغابن: ٦٤.

٢ ـ عوف: صحابي شجاع. أول مشاهده خيبر، واشترك في عام الفتح. ثم نزل حمص وسكن دمشق. وروى سبعة وستين حديثاً.

٣ ـ كذا صوَّبناها، وفي الأصل: ويمنعوه.. حتى يوقعونه.

٤ ـ الآية: ١٤ / ٦٤.

قصة آدم وحواء

ويقـربُ من هذا مارواهُ الإخبـاريـون من قصةِ آدمَ وحواء، عليهما السلام، وذلك أنَّ الله تعالى لما أسكنَ آدمَ الجنةَ خلقَ منه حواء، ونهاهُما عن أكلِ الشَّجرة، وكانتْ حواء أولَ من أكلتْ قبلَ آدم. والقصةُ في ذلك مارواهُ الكلبيُّ[1] أن إبليسَ، لعنه الله، حسدَهما على دخولِ الجنة، والمُقامِ فيها. وكان إبليسُ، لعنه الله، قد أُهبطَ إلى الأرض، فأرادَ أن يحتالَ على آدم في الـدخـول إلى الجنـة ليُـوسْوِسَ إلى آدم وحواء حتى يأكلا من الشجرة. فعرضَ نفسَـه على كلِّ دابَّـةٍ ليـدخُـلَ في جَوْفها، فأبَتْ عليه. حتى جاء إلى الحيةِ، وكانت أحسنَ دَوابِّ الجنة خَلقاً، وكانت كهيئة البَعير، تمشِي على أربعِ قوائمَ، ليس في الجنة دابَّةٌ أحسنُ منها. فلم يزلْ إبليسُ، لعنَه الله، يَستدرجُها في الدخول، حتى أُطاعتْه. فدخلَ في بينَ لحيَيْها[2]، وقامَ في رأسِها. ثم أتى بابَ الجنة، فقامَ عندَه ونادى: «ياآدمُ، ياحواء». فأجاباهُ فقالَ: «بماذا أُمركما ربُّكما؟ وماذا نَهاكُما عنه في الجنة؟». فقال: «أمَرَنا ربُّنا أن نأكلَ من شجرِ الجنـة كلِّهـا غيرَ هذهِ الشجـرةِ الـواحـدة». فقال لهما: «مانَهاكما ربُّكما عنها إلا حتى لاتكونا مَلكـينِ، تَعلَمانِ الخـيرَ والشـرَّ، أو تكونا من الخالدين؛ لاتموتانِ أبداً. وإني لأحلفُ لكما أني لكـما لَمِن النـاصحـين. إنَّ من أكـل منها لم يَمُتْ، وأيُّكما أكلَ قبلَ صاحبهِ كان / هو المسلَّطَ على صاحبه». ٥/آ

---

١ ـ هو ابن السائب الكلبي، نسابة راوية وعالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب من أهل الكوفة. حدث عنه الناس ولكنه ضعيف الحديث، توفي سنة ١٤٦.

٢ ـ اللحي: عظم الحنك الـذي عليـه الأسنان. يذكر ابن الأثير أن الحية «جعلته بين نابين من أنيابها، ثم دخلت به. وكـانت كاسيـة على أربـع قوائم من أحسن دابـة خلقهـا الله كأنها بُختية، فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها (الكامل: ١ / ٣٣).

وكذبَ لعنَه الله في ذلك. قال: فسبقتْ حواء إلى الشجرة. وقالتْ: «ياآدمُ، خُذْ». فقال: «وَيحكِ أما تعلمين أنَّ الله قَد نهانا عنها، وأَوْعَدنا العقوبةَ عليها؟». فقالتْ: «ياآدمُ، أما تعلمُ سَعةَ رحمةِ ربِّك؟». فأكلتْ منها، وأعطتْ آدمَ فأكلَ. فلما وصلَ ماأكلاهُ إلى بُطونِهما تهافتَ عَنْهما لباسُهما، وكان لباسُهما النورَ. قال الله تعالى: «فلمَّا ذاقا الشجرةَ بدتْ لهما سَوءاتُهما»[1]

وقال ابنُ عباس، رضي الله عنهما: دخلَ آدمُ الجنةَ ولباسُه النورُ، وعليه إكليلٌ من الذهب والياقوتِ وسِوارانِ[2] من لؤلؤٍ ومَرْجان، مُكلَّلان. فلما أكلَ من الحبَّةِ ذهبَ عَنهما ذلك. فَاسْتحْيَا. وذهبَ إلى ورقِ التين، وجَعلا يَلزقانِ بعضَه إلى بعضٍ، يُغطيان عَورتَهما، كما قال الله تعالى: «وطَفِقا يخصفانِ عليهما من ورقِ الجنَّة»[3].

وقال الإمامُ القُشيريُّ[4] في تفسيرِهِ: لامكانَ أشرفُ منَ الجنة، ولابَشر أكيسُ من آدمَ، ولانُصحَ أبلغُ مِن نُصح الله تعالى، ولا عَزمَ أشدُّ من عزمِ آدمَ. ولكنَّ المقدَّرَ لايُكابر، والحكمَ لايُعارَضُ. ولما كان آدمُ في الجنة كان بألفِ خيرٍ وعافية. فلما أنْ جاء التَّنكُّلْ استدَّ بابُ النعمةِ وفُتح بابُ المِحنة. أي حينَ ساكنَ حواء أطاعَها فيما أشارتْ به عليهِ، فوقعَ فيما وقعَ. وكان آدمُ محمودَ الملائكة... [5]الكلفة، وفي وَسَطه نطاقُ القربة، وفي جسدهِ قِلادةُ الزُّلفَة. لاأحدَ فوقَه في الرُّتبة، ولاشخصَ مثلهُ في الرِّفعة. يتوالى عليه النداء منَ الله تَعالى: «ياآدمُ». فلم يُمسِ حتى نُزع عنه لباسُه وسُلب استئناسُه، وتبدَّل مكانُه، وتشوَّش زمانُه.

وقال صاحبُ عقائق الحقائق[6]: لما أنَّ الله تعالى خلقَ آدمَ وأَدخله الجنةَ استقبلَهُ

١ـ الآية: ٢٢ / الأعراف: ٧.

٢ـ في الأصل: سوران.

٣ـ الآية: ٢٢/ الأعراف: ٧ و١٢١ / طه: ٢٠.

٤ـ هو عبد الكريم بن هوازن النيسابوري القشيري، شيخ خراسان في عصره، توفي سنة ٤٦٥. له «التيسير في التفسير» و«التفسير الكبير». وهو صاحب الرسالة القشيرية.

٥ـ بياض قدر كلمة في الأصل، لعلها «مرفوع».

٦ـ عقائق الحقائق: كتاب في الموعظة إلا أنه غير مصون عن الحشو، ذكره الشيخ بهاء الدين بن يوسف في تفسير سورة يوسف لأبي النجم الخطيب البغدادي (كشف الظنون).

رِضـوانُ، وجميـعُ / الخُـزَّانِ بمفـاتيـحِ الجنان، وقالوا له: «ياآدمُ، هذه دارٌ ليس فيها زَوالٌ، ٥/ب وأَزواجٌ مابهنَّ مَلالٌ، ومُلكٌ ليس لهُ انتقالٌ، فانظر إلى هذه النعمةِ المُوفَّرة، لكنْ في الطريق قضيَّةٌ مُقدَّرة، تُنادي: ولاتَقْربا هذه الشجرةَ، إن قَرِبْتَها فهي سببُ بَلائك. وحَملتِ الشجرةُ شماتـةَ أعـدائـك. فجلسَ آدمُ على سريـرِ مَملكته، وهوينظرُ إلى الأرض ويَتفكَّر في خِلقتهِ. فاستخرجَ الله من جانبهِ الأيسرِ ضِلعاً لم يجدْ آدمُ لاستخراجهِ ألماً لُطفاً وكرماً. وخلقَ منه حواء عليهـا السـلامُ. فسبحانَ الذي خلق فسوَّى. فأَشرقتِ الجنةُ من نُورها وطَلعتِها المنيرة. لها ستُّ مئةِ ضفـيرةٍ، وعليهـا من الحُلل سبعون حُلةً، مختلفةَ الألوان، لايحجُبُ بعضُ ألوانها بعضاً، بل تُري التي هي شِعارُها، كما تُري دِثارَها، ولايجدُ اللابسُ لها ثِقلاً مثلَ الشجرة إذا طَرحتْ على الإنسـانِ ظِلاً. كذلـك لايجـدُ اللابسُ في الجنة ثِقلَ سَبعينَ حُلةً. وعلى حواء منَ الحُلل والجـواهـرِ مايَقصُـرُ عن وصفهِ الواصفُ. ويتحيَّرُ فيه العارفُ. فالتفتَ آدمُ فوجدَ حواء معه على السَّرير، يزيدُ نورُها على القمرِ المنير، وحَولها أربعةُ آلافٍ حُوراً، لو نظرتْ واحـدةٌ منهنَّ إلى الـدنيـا لاسْتغنتْ عن الشمسِ والقمـر. ولوتَفلَتْ في البحر المالح لأصبحَ أحلى من العسل. سُبحانَ مَن بدأ وفَطر. والكلُّ في مُقابلةِ حواء كالسراج في ضَوء الشمس القمر. فقال آدمُ: حين رآها: ماهذِه؟ قال: ياآدمُ، خلقتُها منكَ، وهي لكَ. فقال: فهي بعيـدةٌ مني، ولم تأتِني! قال: حتى تُؤدِّيَ صَداقَهـا لي. قال آدمُ: إلهي، كلُّ ماوهبتَ لي من خيـرٍ من الحُليِّ والحلل فهـو صَداقُهـا. قال: /ياآدمُ، صداقُها أعلى وأعلى من ذلـك. انظـرْ إلى ٦/آ العرش. فلما نظر آدمُ إلى العرش رأى عليه سَطراً مكتوباً[1] بالنور: لا إلهَ إلا الله، ومِن تحتهِ اسمُ صاحبِ الوجودِ، والمُقام المحمودِ محمدٍ رسول الله ﷺ. فإذا النداء من العَليِّ الأعلى؛ ياآدمُ صلِّ على هذا الـرسـولِ حَبيبي وصَفـوتي مرةً واحـدة، فهي صَداقُ زَوجتـك حواء. وسأجعـلُ ذلـك لذُريَّتـك كلَّ مَن صلى عليـه في دارِ الـدنيـا من أهلِ الإسلام. خلقتُ له سَبعـين حُوراً مقصـورةً في الخيـام، فإني جعلتُ الصـلاةَ على نبيِّ الـرحمـةِ القائمِ بالفرض والسُّنة صداقاً لحورِ الجنة.

---

١ ـ في الأصل: مكتوب.

فلما صلى آدمُ على المصطفى اجتباهُ ربُّه[1] واصطفاهُ وزوَّجه حواء أَمَتَه، وأمرَ شجرة طُوبى أن تنثُر عليه اللؤلؤ، وأسمعَه الخطابَ: «ياعَبدي، زوَّجتُك حواء أَمَتِي». قال: فنظرَ آدمُ إلى جانبِ السرير، فإذا شجرةُ الحنطةِ إلى جانبِهِ، فخشيَ على الصَّفاء من صُدور التكدير. فأمرَ أن يطيرَ به، فطارَ به ألفَ سنةٍ في المقدار، في رياضِ الأنسِ وجنانِ القُدس. فنظر آدمُ إلى السرير الذي طار به تلكَ المدةَ، فإذا الشجرةُ جانبَهُ على الحال، فخشيَ من الارتحال. فأشارَ على السرير حتى طارَ، فطارَ به ألفَ سنةٍ في المقدار. وهكذا سبعينَ مرةً. وكلما وقفَ السرير وجد الشجرةَ عندَه على حالها، لنفاذِ سَهم التقدير. فأرادَ أن يأمرَ السريرَ بعدَ السبعين بالمسير. فخاطبتْه الشجرةُ خِطابَ المُشير: «ياآدمُ، أين المفرُّ من القضاء المُبرم؟ التَّوبةُ مُوثقةٌ، وأنا بكَ مُعلَّقةٌ؟». فقال آدمُ عليه السلام: «إلهي، نَهَيتني وجعلتَ الشجرة مُقابلةَ السرير، ومن أين لي قُوةٌ لمدافعةِ المقادير؟ نَصبْتَها بقُربي وتركتَ / شَهوتَها في قلبي، وقَضيتَ عليَّ أنْ لا مفرَّ منها[2]!. فجاءه الوحي يقولُ: «لكَ الله، وعزَّتي إني كما جعلتُ الشجرةَ في مُقابلتك، قد جعلتُ المغفرةَ في مُقابلة زَلتك».

٦/ب

ولم يزلْ آدمُ يحفظ نفسَه، ويجتنبُ غرسَه، وقد وَسْوس له الشيطانُ، فوقعَ في العصيان. ماوصلَ طعمُ الشجرة التي زَرعها رضوانُ. صاح رضوانُ: «إلهي، عصَى آدمُ». فصاحتِ الجنةُ: «عصى آدمُ». فنُوديَ في السماوات: «عصى آدمُ». فبلغَ ذلك إلى الأرض. فصاحتْ: «عصى آدمُ». ولكنَّ العيبَ كان من الشيطان. وجعلَ آدمُ يعدو هارباً، ويتلفَّتُ إلى ورائه فزعاً، والأشجارُ تهربُ منه: هذا حُكمُ زَلَّةٍ واحدة، فكيفَ مَن ملأ صَحيفتَه سبعينَ سنةً وأكثرَ، ولايجدُ له في كتابه حسنةً؟ كيف حالهُ في المحشرِ؟ أم كيف يُسقى من الكَوثر؟ وقد هربتْ منه صنوفُ الأبرار كهروبِ الأشجارِ؟ وطُرد عن أصحابِ الحقائق، وافتُضِح على رؤوس الخلائقِ؟ وهو لا يَهتدي إلى الشفيع، وانْهتك الجميع.

قيل: جعلَ آدمُ ينظرُ ويعتذرُ، ويُهرولُ هَرولةَ الحذِرِ. **قيل**: ياآدمُ، ماهَذا موضعُ

---

١ ـ اجتباه: اختاره واصطفاه.

٢ ـ في الأصل: منهما.

الاعتـذارِ في غيرِ هذه الـدار. فلما خرج آدمُ من الجنـة كان عليـه ظُلمةُ الزلَّة. فجعل يبكي ويَخضـعُ. فقـال له جبرائيـلُ: ياآدمُ لاتخفْ، فمعـك نورُ الشفيع المشفَّع. فالتفتَ آدمُ إلى حواء فقال: إلى أينَ نذهبُ؟ وإلى أينَ مَنهلٌ بعد الجنةِ نشربُ؟ فقالت له: أنا لك تابعةٌ، ولقولك سامعةٌ وطائعةٌ. ففرَّقَ جبرائيلُ بينَهما وقال: هذه طريقٌ ليس لكَ فيها رفيقٌ «اهبطوا منها جميعاً»[1]. يَعني: آدمَ وحواء وإبليسَ والحيةَ والطاووسَ. فبكى آدمُ عليه السلام، فكان ماوقعَ من دموعِهِ /على سَفح الجبلِ صارَ سُنبلاً، وماوقعَ على السَّبْخ صارَ مِلحاً مُطحلاً[2]، ٧/آ ومـاوقـعَ على الأرضِ والأوديـةِ عقائقَ وأدويةً، وماوقعَ على الجبل بَلَخْشاً[3]، هذه صفةُ من يخافُ ويخشى.

ولما بكتْ حواء، فما وقعَ من دُموعِها في البحر صارَ لؤلؤاً نَقياً لبناتِها يُجلبُ ويُنْتقى. وبكى إبليسُ، لعنـه الله، فما وقـعَ من دمـوعـهِ في البراري والقفارِ صارَ غِيلاناً، وفي الجزائرِ صارَ شَيطاناً، وفي البحرِ صارَ تمساحاً وسَرطاناً وبكتِ الحيةُ، فما وقع من دُموعها على الأرض صارَ عَقارب[4]، وما وقعَ على السبخ صار وَزَغاً[5]، وماوقعَ على الجبل صارَ وَرلاً[6]. وبكى الطـاووسُ، فما وقـعَ من دمـوعِهـا على الجـزيرةِ صارَ بُغاثاً[7]، وماوقعَ في البحر صارَ عَلقاً، وماوقعَ على الشجر والثمرِ صارَ دُوداً. فالحيةُ وقعتْ على الجبل فسلَّط الحجرُ على رأسها، وإبليسُ وقعَ ومعه الحسدُ، فكان قَرينَ السوء والكمَد.

ورُوي أن آدمَ وحواء عليهما السلام، لما خَرجا من الجنة تَحيرًا في أنفُسهما، ولم يَدريا أين يذهبـان؟[8] فالتفتَ آدمُ إلى حواء، وهـو يبكي ويقـولُ: «هكـذا ياحـواء فعلتِ[9] بي

١ ـ الآية: ٣٨ / البقرة: ٢.

٢ ـ ملح مطحل: مغبر اللون كلون الرماد. وفي الأصل بجيم معجمة.

٣ ـ بلخش: كلمة فارسية معناها الياقوت. اللعل.

٤ ـ في الأصل: عقارباً، وهي ممنوعة من الصرف.

٥ ـ الوزغ: ضرب من الزحّافات.

٦ ـ الورل: دابة على خلقة الضب وأعظم منه.

٧ ـ في الأصل: بغا، ولعلها كما قرأناها. والبغاث: طائر أصغر من الرخم بطيء الطيران.

٨ ـ في الأصل: يذهبا.

٩ ـ في الأصل: فعلتي، ويرسم كل فعل على شاكلته بالياء.

وبنفسكِ، تسبَّبتِ في خُروجنا من مُجاورةِ سيِّدنا ومولانا، وساعدتِ إبليسَ علينا؟».
فقالت: «ياآدمُ، سَبق ذلك في عِلمه القديمِ». فقال: «صَدقتِ، ولاحولَ ولاقوةَ إلا بالله العلي العظيم».

وذكر أبو الفرج بنُ الجَوزيِّ، رحمه الله، أن آدمَ عليه السلامُ لما عصى وأكلَ من الشجرةِ تحسَّر حين لاتَنْفعه الحسرةُ. فسمعَ النداء: «ياآدمُ، علامَ تتحسَّرُ؟ هذا جزاء مَن أسجدَ لك ملائكتَه، وأسكنَكَ جنَّتَه، وزوَّجكَ حواء أَمَتَه؟ بئسَ المُجازي جازَيْتَني، عصَيْتَني/ أنتَ لاتصلحُ لجواري، ولاللسُّكنَى في داري. اهبِطا منها جميعاً، إنما أخرجتُ إبليسَ من الجنة، وعاديتُه من أجلكم، وأنتم أطعتموهُ، ووالَيْتُموه من أجلي. فما هذا حسنٌ». فعندما تحسَّر وبكى بكاء شديداً. فسمع النداء: «ياآدمُ، علامَ تبكي وتتحسَّرُ؟ قد تعذَّرَ الأمرُ عليك وتعسَّر». فقال: «إلهي، وعزَّتك وجلالِكَ، ماحَسرتي عليها، ولاعلى خُروجي منها، وإنما حَسرتي عليك، وعلى قُربي منك. وصرتُ بعيداً من جوارك». ٨/ب

فنوديَ: «ياآدمُ، البكاء بين يديك طويلٌ، إذا سكنتَ الدُّنيا عرفتَ قدرَ الجنةِ. وإذا عاشرتَ غيري عرفتَ قدري». وأنشدَ في المعنى:

سَتَذكرني إذا جرَّبتَ غيري وتعلمُ أنَّني لكَ كنتُ كَنْزا
سَتبكي دائماً في الأرضِ مني وتعلمُ أنَّ رأيَك كان عَجزا

«اهبطوا منها جميعاً».

لَمَّا طُرد نُوديَ عليه بالطردِ التفتَ إلى حواء وقال لها: «ياحواء، أيَّ جانبٍ تَذهبين[1] وإلى أينَ تمضين؟».

ورُوي أنَّ الله تعالى أَوحى إلى ملكينِ أن: «أخرجا آدمَ وحواء مِن جواري، فإنَّهما قد عَصياني». فبقيَ آدمُ وحواء باكيَيْنِ[2]. فقالا[3] لهما: «استعدَّا للخروج من جوارِ الله تعالى.

---

١ - في الأصل: تذهبي، ويسقط النون في أغلب الأفعال الخمسة.
٢ - في الأصل: باكيان.
٣ - في الأصل: قال.

هذا شُؤمُ المعصيةِ عليك». فنزع جبرائيلُ التاجَ عن رأسهِ. ونزعَ ميكائيلُ الإكليلَ عن جبينهِ. وناداهُ ربُّه: «ياآدمُ، أيَّ جارٍ كنتُ لك؟». قال: «سيِّدي، نِعمَ الجارُ كنتَ لي». قال: «فاخرجْ من جِواري؛ فإنَّك عَصيتني». فسقطَ عنه لباسُه. فأولُ مابدتْ منه عَورتُهُ، ونظرَ إليها. جعلَ يستترُ بأشجارِ الجنة. فتعلَّقَ بغصنٍ من أغصانِ شجرِ الجنَّة. فنادى ربُّه: «أفِراراً مني ياآدمُ؟» قال: «لا يا ربِّ، بل حياء منك ياربِّ». قال: «اهبطوا منها جميعاً ياآدمُ، خالفْتَني وعصيتَ أمري». فقالتِ الملائكةُ؛ /«إلهي، تُكلمُ عبداً عَصاك!». قال: ٨/آ «ياملائكتي، إذا لم أكلِّمْ عَبديَ العاصي فَمَن أكلِّمُ؟ ياملائكتي، من هوَ الذي يَعصيني بتقصيرهِ؟ بَنو آدمَ إذا عصاهُم واحدٌ غَضبوا عليهِ، وقَطعوا كلامَهم عنه. وإذا أناعصاني عَبدي، ولم يتبْ عن مَعصيتهِ ثم ناداني لطلبِ حاجةٍ مني، وقال: ياربِّ. أقولُ: لبَّيكَ. وإذا تابَ ورجعَ إليَّ تبتُ عليه وأُحْبِبْه، إنَّ الله يحبُّ التوابين. اهبطوا منها جميعاً».

فجاءتِ الملائكةُ تدفعُ في أقفيتهم. وجاءتِ الريحُ فحملتْهم وألْقَتْهم إلى الأرض. ولم يبقَ في الجنةِ إلا من نادَى عليهم بالطردِ. فكذلكَ إذا غضبَ السلطانُ على واحدٍ من جندهِ غضبَ عليهِ كلُّ الجند، وغضبوا لغضبِ السلطانِ. وأنشدَ في المعنى:

لعلكَ غَضباناً ولستَ بعالمٍ ··· سلامٌ على الدَّارينِ إن كنتَ راضيا

وقعَ آدمُ **بأرض الهند** بوادي سرنديبَ[1] على رأسِ جبلٍ. ووقعتْ حواء على ساحلِ البحر، وقيلَ بأرضِ جُدَّةَ. ووقعَ إبليسُ بأرضِ مَيسانَ[2]. ووقعتِ الحيةُ بأصبهانَ. قيلَ: لما أُخِذت قوائمُها قالت: لاأُبالي بأخذِ قوائمي، أكونُ أمشي في البريَّة على

١ ـ سرنديب: جزيرة عظيمة في بحر الهند ـ تقع في أقصى جنوب الهند، وتدعى اليوم سيلان ـ وفيها هبط آدم على جبل شاهق، فيه أثر قدم آدم طولها سبعون ذراعاً! (ياقوت). وقد أسمى ياقوت الجبل «الرَّهُون»، وأسماه ابن الأثير «نود»، وحدده الطبري (١/ ١٢٢) بين الدَّهَنج والمندل وأسماه «بَوذ».
٢ ـ ميسان: اسم لكورة واسعة بين البصرة وواسط (ياقوت). ويقول ابن الأثير (١/ ٣٤): وقيل بالأبُلَّة. وابن كثير (قصص الأنبياء: ٢٤): بدستميان من البصرة على أميال.

بَطني كالحـوتِ في المـاء. قيلَ لها: وأنتِ بعد ذلك تَكَلَّمين؟ فقُطع لسانُها من الكلام. فهي تسمـعُ ولاتتكلَّم. اهبطـوا منهـا جميعـاً. كانـا جميعـاً في جوارِ الكريم، على بساط النَّعيم، صاروا مَطرودين ومَبعُودين، مُتفرِّقين. كلُّ واحد منهم في ناحية مُتحيرين. واحدٌ يصيحُ في ناحيـةٍ: بعـزَّتِك لأغوينَّهم أجمعين. وآخرُ يصيح في ناحيةٍ: ربَّنا ظَلمنا أنفُسنا. والجبارُ يقول لواحدٍ: فتابَ عليه وهداهُ، وللآخر: إنَّ عليك لعنتي إلى يوم الدين. اهبطوا منها جميعاً.

كان آدمُ إذا ذكرَ الجنةَ غُشي عليهِ. فبعثَ الله / إليـه مَلكاً فمسحَ بيدهِ على فُؤادهِ، فسكنَ بعضُ مابه وأفاقَ. اهبِطوا منها جميعاً. ٨/ب

لما هبـط آدمُ على جبـل الهنـدِ كان يسمـعُ تسبيحَ الملائكةِ من عُلوِّ ذلك الجبل، ويجدُ رائحـةَ الجنـة. فبعثَ الله إليـه جبرائيلَ عليه السلامُ، فوضعَ يدَه على رأسهِ، ودكَّه[1] حتى قبضَـه. فصار لايسمعُ تسبيحَ الملائكة، ولايشمُّ رائحة الجنة. فبكى، وجاءه جبريلُ فقال لهُ: «مـايُبكيـكَ ياآدمُ؟» قال «: يا جبرائيـلُ، كنتُ اشمُّ رائحـةَ الجنـة، وأسمـعُ تسبيـحَ الملائكة، فكنتُ أستأنسُ بذلك وأتسلَّى بهِ. وقد عَدمْتُه». قال: «يا آدمُ، هذه ثمرةُ الجَنَى. هذا جزاء مَن خالفَ حبيبَهُ، ولم يقبلْ منه». وما أحسنَ ما قيلَ في شرحِ آدمَ عليه الصلاةُ والسلامُ:

أنـا بالـبـابِ منـذُ دهـري.. [2]

إنَّـي للحـجـابِ أهـلٌ، ولـكـنْ	أنْـتـمُـو بالـوصـالِ، أطْـمَـعْـتمـوني
ما أنـا للوصـالِ أهـلٌ، ولـكـنْ	أسـمـعُ ما أقـولُ كي تَرْحَمـوني
واصِـلوني فلا أعـاودُ ذَنـبـاً	أنـا إنْ عدتُ مُذنـبـاً فاهْـجـروني

وصارتِ النوائبُ تقصدُه، والحوادثُ تأتيهِ من كلِّ جانبٍ. وقـاسى الحرَّ والبردَ ولدْغَ الهـوامِّ[3] وقـرصَ البقِّ والبَعـوض والقُمَّـل، وهـو يَبكي، فقالَ لهُ جبرائيلُ: «علامَ تبكي؟»

---

١ ـ دك: دفع.

٢ ـ ساقط من الأصل.

٣ ـ الهوام (مفردها الهامَّة): ماكان له سم كالحية. وقد تطلق على مالا يقتل من الحشرات.

قال: «خرجتُ من دارِ الراحةِ، وصرتُ في دارِ الشقاء والشِّدةِ، أُقاسي كلَّ بلاء ومحنةٍ».

قال: «يا آدمُ، ماأسرعَ ما نسيتَ قولَه لكَ! فلا يُخرجنَّكما من الجنةِ فتشقَى»[1]. فعندَ ذلك تذكَّر آدمُ الأوقاتِ الماضيةَ، وتحسَّر وحنَّ، قال: «يا جبريلُ، ما حِيلتي؟» قال: «كثرةُ البكاء». قال: «فإذا بكيتُ يعود أمري إلى الصَّلاح؟». قال: «نعمْ، إنَّ اللهَ يحبُّ الباكينَ من / خَشيتِه». قال: فبكَى على ذلك الجبلِ مئةَ سنةٍ مُتواليةٍ حتى نبتَ في ذلك الوادي من دُموعِه قَرنْفلٌ، والأدويةُ كلُّها. فلذلك تُحملُ الأدويةُ[2] كلُّها من بلاد الهند على هذا الشكل. وأكلَ الظبيُ من القرنفلِ فصارَ في صُرَّتهِ مِسكاً. وأكلَ منه البقرُ فصار فيهِ عَنبراً[3]. وامتلأتِ الدنيا كلُّها رائحةً طيبةً. ٩/آ

فقال: «يا جبرائيلُ، ما هذه الرائحةُ الطيبةُ؟». فقال: «يا آدمُ، هذه رائحةُ دموعِ العاصي، اهبطوا منها جميعاً».

كان آدمُ يَبكي في مكانهِ، وحواء تَبكي في مكانها، لا هُوَ يَدري أينَ هيَ، ولا هيَ تَدري أينَ هو. فأوحَى اللهُ إليهِ أن: «سِر إلى حواء». وجاءه جبرائيلُ، عليه السلامُ، فدلَّه على الحرَم وجاء إلى حواء فقال لها: «مايُبكيكِ؟» قالتْ: «شَوقاً إلى آدمَ». فدلَّها على أرضِ الحرم. فصار آدمُ، وصارتْ حواء حتى التقَيا على جبلِ عرفاتٍ. فلما رآها ورأتْه تعرَّفا. فسُميتْ «عرفاتٍ»، تعرَّفَ[4] آدمَ بحواء. وسَكنا في الأرض، شَكيا إلى اللهِ عُرْيَ جسدِهما، فبعثَ اللهُ إليهما بكباشٍ من الضأنِ، فأخذتْ حواء صوفَها، فغزلَتْه ونسجتْه هي وآدمُ، ولبساهُ. فلما وقعتْ خشونةُ الصوفِ على أجسادِهما تذكَّرا أوقاتَ الجنةِ، وماكانا فيه من نعيمها، فبكيا. كانا بالغَداة في الجنة؛ الملائكةُ واقفون بين أيديهما، ناكسون مِن هَيبةِ آدمَ. عند العصر الملائكةُ تطردُه. بالغداةِ كانا يأكلان من ثمارِ الجنة، بالعصرِ كانا يشتهيان لُقمةً، بالغداةِ كان مَلِكاً جالساً على سرير الجنة ضاحكاً، عندَ العصر صارَ جالساً على

١ـ الآية: ١١٧/ طه: ٢٠.

٢ـ في الأصل: الأودية.

٣ـ العنبر فيما نعلم لايؤخذ من البقر. يقول ابن منظور: يتخذ من جلد سمكة بحرية يقال لها العنبر.

٤ـ في الأصل: تعرفاً.

الجبل باكياً. بالغداة كان في الجنة عليه سبعونَ لباساً من الحُلل، بالعصرِ مخيطُ خرقةِ صوف على خرقةٍ يستُر بها/عورتَه. ٩/ب

ولما أُهبط آدمُ من الجنة وضعته الريحُ على جبل سَرَنديبَ من الهند. فبكى على خَطيئته، فجرتْ دموعُه كالغُدرانِ. فشرب النَّسرُ من دموعه. ثم أقبلَ النسرُ على آدمَ عليه السلام، وقال: «والله يا آدمُ، ما رأيتُ أعذبَ من دُموعك، فممَّ تبكي؟». قال: «أبكي على خَطيئتي ومُخالفتي لأمر ربي». وقصَّ عليه القصةَ من أوَّلها إلى آخرها. فقال له النسرُ: «يا آدمُ، ما رأيتُ أعجبَ منكَ! خلقَكَ الله بيدهِ، وأَزْوَجَك حواء أَمَتَه، وأَسكنَكَ جنَّتَه، وأسجدَ لك ملائكتَهُ، وأعطاك مالم يُعطِ أحداً مِن خَلقهِ. ثم عَصَيْته بعد ذلك. لقد تجرَّأتَ على أمرٍ عظيم. فلَيْتَني لم أشربْ من دموعك، ولم يخالطْ لحمي ودَمي». فكان كلامُ النَّسر على آدمَ أشدَّ من ذَنبهِ.

ثم أنطق الله النَّسرَ فقال: «أشهدُ الله عليَّ، يا آدمُ، لا أكلتُ شيئاً من نباتِ الأرضِ بعد ذلك أبداً». قال: وعاشَ ذلك النَّسرُ إلى أن أدركَ نبيَّ الله سليمانَ، عليه السلام. ودخل عليه من جُملة الطيور. فلما اسْتَنْطق سليمانُ عليه السلام، الطيورَ تقدَّمَ إليه النسرُ، وهو في صورةٍ عظيمةٍ، وقال له: «السلامُ عليك يا ملكَ الدنيا، ما رأيتُ مُلكاً أعظمَ مِن مُلكِكَ، وأني كنتُ مع أبيك آدمَ، أصْحبتُهُ وساعدْتُه على كثرةِ البُكاء، حتى شَربت من دُموعهِ، وأنا أوَّلُ مَن عَلم به حينَ أهبط إلى الأرض، وكنتُ معَه إلى أن تابَ الله عليه، وأنه قال لي: يكونُ من ذُريَّتي مَن يَسجدُ له الطيرُ، فإذا رأيتَهُ فأَقْرِهِ مني السلامَ. وقد أدَّيتُ إليك وديعةً، فاستَخْدِمني يانَبيَّ الله، فإني أعلمُ بمفاوزِ الأرض وجِبالها، وإنَّ مَعي آيةً عظيمةً، سَمعتُها مِن أبيك إبراهيمَ، عليه السلام، وليس يَفترُ[1] عنها لساني/، وهي قولُه تعالى: ١٠/آ «الله لا إلهَ إلا هو، ليجمعنَّكُم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه»[2] ومَن أصدقُ مِن الله حديثاً؟

ثم سجدَ النسرُ، وسجدَ سليمانُ عليه السلام لله ربِّ العالمين، فلما رفعَ رأسهُ جعلهُ عليه السلام على جميع الطيور.

---

١ ـ فتر: سكن بعد حدة ولان بعد شدة.

٢ ـ الآية: ٨٧/ النساء: ٤.

ورُوي أن سليمانَ عليه السلامُ نَطقتْ بين يديهِ خطَّافَةٌ، قد جاءتْ من الهَويِّ[1]، ونزلتْ إلى الأرض، وتقرَّبتْ منه، وسلمتْ عليه بثلاثِ لغاتٍ؛ فاللغةُ الأولى التي سلَّمت بها على آدمَ عليه السلام، وعلى نوحٍ، وعلى إبراهيمَ عليهما السلام، ثم قالتْ: «يانبيَّ الله، إني ممَّن اختارهُ نوحٌ عليه السلام، وحَملني معَه في السفينة ومني تناسَل كلُّ خطافةٍ في الدنيا. وإني أخبرك أن آدمَ عليه السلام دعا لي قال لي: أيتُها الخطافةُ إنك مباركةٌ، ونسلك مباركٌ على أولادي، وستدركين من أولادي من خلافتهُ مثلُ خِلافتي، يحشرُ الله تعالى إليه الطيورَ والوحوشَ والضِّباعَ والجنَّ والمردَة. فإذا رأيته فأقْرِه مني السلامَ». ثم قالت: «يانبيَّ الله، إنَّ معي سورةً، تتعجَّبُ الملائكةُ من عِظم نورِها، وماأُعطيتْ لأحدٍ من أولادِ آدمَ، إلا لأبيك إبراهيمَ عليه السلام، رحمةً وكرامةً له يومَ ألقيَ في النار. فتنزَّلتْ فصرتُ اتردَّدُ إليهِ، وأحلُّ عليه حتى عَلمني إياها. فهل لكَ أن تَسمعَها مني؟» قال: «نعم». فقرأتْ عليه سورةَ الفاتحة إلى آخرها، ثم حدَّتْ صوتَها بآمين. ثم سجدت الخطافةُ وسجدَ معها سُليمانُ عليه السلام، لله ربِّ العالمين.

والخطافةُ واحدةُ الخطاطيف، وهمُ العصافيرُ السودُ الذين يُعرفون بين الناسِ بعصافير الجنة.

فلما استنطقَ سليمانُ / الطيرَ تقدَّم إليه غرابٌ، فسلَّم عليه وقال: «يانبيَّ الله، لقد فضَّلك الله على ذُريةِ آدمَ، وعلَّمك مالم تكنْ تعلمُ، وكان فضلُ الله عليك عظيماً. واعلمْ يانبيَّ الله أني كنتُ أبيضَ اللون قبلَ هذا الحين حتى سمعتُ الكفارَ يقولون: اتَّخذ الله ولداً، فاسودَّ لوني عند ذلك من قولهم. ولقد رأيتُ أباكَ آدمَ عليه السلام، ودعا لي بطول العُمر. ولقد سمعتُ أباكَ آدم يتلو آيةً من صُحفهِ، فتخضَعُ لها جميعُ الروحانيين[2] من الملائكة. وهي قولهُ تعالى: كلُّ نفسٍ بما كَسَبت رَهينةٌ[3]». ١٠/ب

ورُوي أن آدمَ عليه السلامُ لما أهبطهُ الله إلى الأرض، وأقامَ بها سُويعاتٍ، فأحسَّ

---

١ ـ هوى هوياً: سقط من فوق إلى أسفل.

٢ ـ في الأصل: الروحانيون.

٣ ـ الآية: ٣٨ / المدثر: ٧٤.

بشيء في باطنهِ من الألم، وكان جبرائيلُ عليه السلام عندَه. فقال له: «ياآدمُ، ماالذي أصابكَ؟». قال: «أجدُ في نفسي قلقاً، واضطراباً وسقوط قوةٍ، لاأجدُ إلى العبادةِ سبيلاً، وإني أجدُ بينَ جلدي ولحمي دَبيباً كدبيبِ النمل». فقال له جبرائيلُ: «هذا شيء يسمى الجوعَ». فقال له آدمُ: «كيف الخلاصُ منه؟». قال جبرائيلُ: «سأَهديك إلى الخلاص منه إن شاء الله تعالى». وغابَ عنه ساعةٍ، وجاءه بثورينِ أحمرين والعِدَّةِ والمطرقة والمنفاخ والكَلبتين. فوضعَ ذلك بينَ يديْه، ثم غابَ عنه ساعةً، وجاءه بشرارةٍ من جهنَّمَ، فوضعَها بين يديْه. فطارَتْ تلك الشرارةُ حتى وقعتْ في البحر، فمدَّ جبرائيل يده، فجاء بها ودفعها إلى آدمَ، فطارتْ أيضاً سبعَ مراتٍ، فذلك معنى قول النبي ﷺ: «إنَّ ناركُم هذه جزء من سبعينَ جزءاً من نارِ جنَّهمَ». بعد أن طفئت بالماء سبعَ مراتٍ. فلما جاء بها جبرائيلُ في المرة السابعةِ، فَنطقت بإذن الله تعالى، وقالت: «ياآدمُ، إني لم أُطعْك، وإني منتقمةٌ ممَّن عصى الله من أولادك / يوم القيامة». فقال جبرائيل: «إنها لم تُطعْك، ولكن اسجِنْها ليكون لك ولأولادك فيها المنافعُ». فسجنَها آدمُ في الحجرِ والحديدِ. فذلك قوله تعالى: «أفرأيتُم النارَ التي تُورون؟»[1]. ثم أمره جبرائيلُ باتِّخاذ آلاتِ الحرثِ. فآدمُ أولُ من عمل الحديد. ١١/آ

ثم أتاهُ جبرائيلُ بثلاثِ حباتٍ من الحنطةِ، فقال له: «ياآدمُ، لكَ حبتانِ، ولحواء حبةٌ واحدة». فلذلك صارَ للرجُل مثلُ حظِّ الأنثيين. وكان وزنُ كلِّ حبةٍ ثمانيةَ دراهم». فقال آدمُ: «ياجبرائيلُ، ماأصنعُ بهذا؟». قال: «خُذْها، فهي سببُ سدِّ جَوعتك[2]، وبها أُخرجتَ من الجنة، وبها تَحيا في الدنيا، وبها تَتَّقي الفتنةَ، أنت وأولادُك». ثم أمره جبرائيلُ أن يشدَّ الثورين، ويكسرَ من الخشبِ، ويجعلَ عليهما كالضنض[3] وغيره. ففعلَ ذلك، وصارَ يحرثُ في الأرض. فهو أولُ من حرث. فبكى الثورانِ على مافاتهما من رائحة الجنة. فقطرتْ دموعُهما على الأرض، فنبتَ من دموعهما الحِمَّصُ، وقيل: نبتَ من

---

١ ـ الآية: ٧١ / الواقعة: ٥٦.

٢ ـ روى ابن كثير: قال جبريل لآدم: «هذا من الشجرة التي نُهيت عنها فأكلت منها» (قصص الأنبياء: ٤٦).

٣ ـ كذا في الأصل: ولم ندركها في المظان، ولعلها «القفص»: حديدة من آلات الحراثة (المخصص).

ذلـك الجـاروشُ، وبـالا فنبتَ الحمِّصُ، ووراثـا فنبتَ منـه العَدسُ. ثم كسرَ جبرائيلُ عليه السلامُ الثلاثَ حباتٍ حتى كثَّرها، ثم بذَرها. فنبتَ في ساعتهِ. وقيلَ: إن آدمَ ضرب ثوراً منهـا، فقـال الثـورُ: «لِمَ ضَربتَني ياآدمُ؟» فقـال: «لأنَّـك عَصَيْتني». فقال له الثورْ: «فمن ضَربَـك حين عصيتَ ربَّـك في الجنـة؟ أكلتَ من الشجرة التي نَهاكَ عنها؟». قال: فخجلَ آدمُ وقـال: «يـاربِّ حتى البهـائمُ تُعـيرِّ ني[1] بزلَّتي!». قال: فأخـرسَ الله البهـائمَ من ذلك الوقت، كرامةً لآدمَ عليه السلام.

قال: فلما نبتَ القمــحُ، وطلعَ من ساعتـهِ، قال آدمُ لجبر يـلَ: «آكلُهُ؟» قال: «لا، اصبرْ حتى / يُدركَ». فلما سنبلَ وفَركَ[2] قال: «آكلُ؟». قال: «لا، اصبرْ حتى تحصدَهُ». ١١/ب فلما حصـدَه قال: «آكـلُ؟». قال: «لا، حتى تَدرسَـه وتُنقِّيَـه». فلما درسه وذرَّاهُ ونقاهُ قال: «آكلُ؟». قال: «لا، اصبرْ حتى تطحنه». ثم إن جبر يلَ علَّمه الطحنَ. قال: وعلَّمه العجينَ.

ويقال: إن آدمَ نخلَ دقيقَه، وأمره جبرائيلُ أن يبذُرَ النُّخالةَ المستحصدةَ، فنبتَ منه الشعـيرُ. فلما عجنَـه قال: «آكلُ؟». قال: »لا، اصبرْ». وأمرَهُ أن يحفِرَ حفيرةً في الأرض، وأن يجمـعَ فيهـا الحطبَ ويـوقـدَ عليها، ويضعَ عليها العجينَ حتى صارَ خُبزاً. فلما أخرجَه قال: «آكــلُ؟». قال: «لا، اصــبرْ حتى يبردَ». قال: فلما بردَ قال: «آكــلُ؟». قال له: «كُلْ». قال: فدمَعتْ عينا آدمَ، وقال: «ماهذا التعبُ والعناء والغضبُ ياجبر يلُ؟». قال: «هذا وعدُ الله الذي وعدَكَ وقدَّرَه عليك في الأزلِ، أما قالَ الله تعالى لكَ في الجنة، وحَذَّرك من الشيطانِ؟ فقال: «فلا يُخرجنَّكما من الجنَّة فَتشقى».[3]

قال: وذكـر ابنُ الجـوزي رحمـهُ الله في كتـابهِ المعروفِ «بالمَوْردِ العَذْبِ[4]»: «إن آدمَ عليه السلامُ لما أُهبطَ إلى الأرض اجتمعَ بإبليسَ فقال لهُ: «مازلتَ عليَّ حتى أَخْرجتَني من

---

١ ـ في الأصل: يعيروني.
٢ ـ أفرك السنبل: صار فريكاً وذلك حين يصلح أن يُفرك ويؤكل.
٣ ـ الآية: ١١٧ / طه: ٢٠.
٤ ـ هو «المورد العذب في المواعظ والخطب».

الجنة إلى دارٍ فيها التعبُ والغضبُ والشقاء». فقال له: «ياآدمُ الكلامُ في الغائبِ كالشمع في الشمس، إذا كنتُ فعلتُ بكَ ماقلتَ، فمن فَعَل بي ماأنا فيهِ؟».

وذكر صاحبُ عقائقِ الحقائق أن آدمَ ماأكلَ من الشجرة إلا بطريقِ الانبساط. والحيةُ بقيتْ خائفةً من انبساطه، فأخذتْ حلَّته وحُلةُ حواء، فبدتْ لهما سوءاتهما، أي عَورتُهما. وسُميِّت سوءةً لأنها تسوء صاحبَها إذا انكشفتْ، ورآها الغَيرُ. قصدَ آدمُ وحواء ليأخُذا من أشجارِ الجنة وأوراقِها يستتر ان[1] به. / فهربتْ منهما الأشجارُ، ووقفتْ لهما شجرةُ التِّين، ١٢/آ وسمحتْ لهما بورَقها، فأخَذا من ورقها مايَستتر ان[2] به عَوْرتَهما. فجاءها العتابُ، فقالتْ: «فعلتُ من كرمِ ربِّ الأربابِ، لأنهُ لم يقطعْ عن لسانهِ ذكرهُ، وذكرهُ أشرفُ من وَرقي، فاقتديتُ بكرمِ خالقي». قيل لها: «ياشجرةُ، إذا أكرمتِ نبياً لأجل ذكرنا، فنحنُ نَذكرك في خَلقنا، فأقسمنا بك، فقلنا: والتينِ والزيتونِ. فهذا إكراماً لمن أكرمَ من عاتَبناهُ، فكيف إكرامُنا لمن اجْتَبَيْنا؟».

فلما أُهبط آدمُ إلى الأرض، وورقُ التين عليهِ، فقصدتِ[3] الوحوشُ السلامَ عليه. فكان أولَ من سبق إليه الغزالُ. فقطعَ آدمُ من ورقِ التين الذين كان عليه وأطعمه. فصارَ ذلك للغزالِ مِسكاً حين زارَ آدمَ ورجعَ الغزالُ إلى الوحوش مُخبراً لهم بإكرامِ آدمَ له. فتسارعتِ الوحوشُ إلى زيارتهِ، فأطْعمها آدمُ من الورقِ، فلم يَصِرْ لها ذلك مِسكاً. فشكتِ الوحوشُ إلى آدمَ حيث خَصَّ الغزالَ دُونَها بتلك الكرامةِ. فسأل آدمُ جبريلَ عليه السلامُ عن ذلك، فقال: «لأنَّ الغزالَ قصدتْ زيارَتَك من غيرِ طمعٍ، ملتمسةً لِبَركتك، والوحوشُ جاؤوك على قصدِ الطمع لاغيرُ».

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، وعن مجاهدٍ: دخلَ آدمُ الجنةَ يومَ الجمعةِ قبلَ العصرِ، وخرجَ منها بعدَ العصرِ قبلَ غروبِ الشمس. فكان مقدارَ إقامتهِ في الجنةِ ثلاثةٌ وثمانون يوماً. قال: ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى آدمَ عليه السلام بعد أن أُهبطه إلى

---

١ - في الأصل: يستترا.

٢ - في الأصل: يسترا.

٣ - نرى أن الصواب حذف الفاء، لأن الفعل جواب «لما».

الأرض: «ياآدمُ، إنَّ لي بيتاً بمكةَ، فحُجَّ إليه، وطُفْ به أُسبوعاً حتى أغفر لك». فأرسلَ الله تعالى إليه جبريلَ عليه السلامُ، يدلُّه على الحرمِ. فلما وصلَ إلى مكةَ / ورأى بكى، ١٢/ب وأخذَ في الطَّوافِ حولَ البيتِ. فما كمُلَ الأسبوعُ حتى خاضَ في دموعِهِ، ثم ذهبَ إلى عَرفاتٍ، فوقفَ بها، ثم رجعَ إلى مِنىً، فرمَى الجمراتِ، وقضى مناسِكَ الحجِّ، ثم رجعَ إلى مكةَ وطافَ بالبيتِ طوافَ الإفاضة. فلما قضَ حجَّه تلقَّته الملائكةُ بالبيتِ فقالتْ له: «أبرأَ الله حجَّك ياآدمُ، لقد طُفنا بهذا البيتِ قبل أن تُخلقَ بألْفَي عام». وحجَّ آدمُ سبعينَ[1] حجةً. وقيل: أربعون، من الهندِ إلى مكةَ وعرفاتٍ ماشياً.

قال الشيخ أبو القاسم الجُنَيْد[2] رضي الله عنه: رأيتُ آدمَ في المنام، وهويَبكي. فقلتُ له: «ومايُبكيكَ ياأباهُ وقد غفر الله لك ماسَلف وأوْعدكَ الجنةَ؟». فناولني ورقةً، فإذا فيها هذه الأبياتُ:

أتُحرُقُني بالنارِ ياغايَةَ المُنَى ... ونارُ الهوى نارٌ أحرُّ من النَّارِ
شُغفتُ بجارٍ لابدارٍ سَكنْتُها ... على الجارِ أبكي لاعلى فُرقةِ الدارِ
ولولمْ تعدني بالرجوع إلى المُنَى ... هلكتُ، ولكنَّ قَصْدي صاحبُ الدارِ

فظهَر لنا من هذه القصةِ العجيبةِ أن سببَ خروجِ آدمَ من الجنةِ حواء. فإنَّها أولُ من أكل من الشجرة قبلَ آدمَ عليه السلام. وراوَدْتُه عن الأكلِ، فكانَ ذلك سَبباً لخروجِهما من الجنةِ، وذلك كلُّه بقضاء الله وقدرِه.

---

١ ـ في الأصل سبعون.

٢ ـ هو الجنيد بن محمد بن جنيد البغدادي أبو القاسم. وهو رجل صوفي من العلماء بالدين، أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. توفي سنة ٢٩٧.

قصة قابيل وهابيل

قلتُ: ومن قَبيل ما تقدَّمَ قتلُ قابيلَ[1] أخاهُ هابيلَ، فهما ابنا آدمَ لصُلبهِ. وسببُ ذلك أخته[2]. وهذه القصةُ مذكورةٌ في سورةِ المائدة في قولهِ تعالى: «واتلُ عليهم نبأَ ابنَيْ آدمَ بالحقِّ»[3]. أي: يا محمدُ، اتلُ على قَومك أي على أهلِ الكتابِ الذين في عَصرك مِن أولادهم، يحسدونَك/، وقد همُّوا أن يبسُطوا أيديَهم إليك بالقَتل. فأخبرهُم بقصدِ ابن آدمَ ١٣/آ الذي بسطَ يدَه إلى أخيه بالقتل حَسداً له، وإلى ماذا صار أمرُه بعدَ ما حُرم الدُّنيا والآخرة، فكذلكَ حالُ هؤلاء.

وقيل: يرجعُ هذا إلى قولِهِ: «يُبيِّنُ لكم كثيراً مما كنتُ تُخفون من الكتاب»[4]. وكان من ذلك هذه القصةُ، وهي قولهُ تعالى: «واتلُ عليهم نبأَ ابنيَ آدمَ بالحق» أي أَخبرْهُما. وقوله: «بالحق» ليعتبروا ويتذكَّروا، ولا يَحملوه على اللَّعبِ والباطل لكثير من القصص الذي هوَ من لهوِ[5] الأحاديث، فلا تفكرْ يا محمدُ حسدَهُم لك. هكذا في تفسيرِ الإمامِ النَّسَفي رحمه الله.

قال: وسمَّاهما ابنيَ آدمَ لأنهما من نَوافلهِ، كما سمَّانا بني آدمَ. وهذا، وإن كان أقربَ إلى

١ ـ تعددت الروايات في اسمه: قين، قائين، قاين، قابيل. وهو أكبر من هابيل.

٢ ـ توأمة قابيل «قليما».

٣ ـ الآية: ٢٧/ المائدة: ٥.

٤ ـ الآية: ١٥/ المائدة: ٥.

٥ ـ في الأصل: لهو لا الأحاديث، ونراه خطأ من الناسخ.

النظم فهو خلافُ المأثورِ المشهور، لأنَّهما وَلدُ آدمَ لصُلبهِ ؛ هابيلَ وقابيلَ، على ما رُوي عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما.

قال: **كانت حواء تلدُ في كلِّ بطنٍ اثنينِ ؛ ذكراً وأنثى**. وقد ولدت خمسَ مئةِ بطنٍ. فولدَتْ أولَ بطنٍ قابيلَ وأختَه إقْليما. ثم مكثتْ سنتين وولدتِ البطنَ الثاني: هابيلَ وأختَه لبودَ. فلما أدركوا أمرَ اللهُ تعالى أدمَ أن يزوجَ قابيلَ أختَ هابيلَ، وأن يزوجَ هابيلَ أختَ قابيلَ فرضيَ هابيلُ بالذي أمرَ اللهُ به، ولم يرضَ قابيلُ بأختِهِ لهابيلَ، لأنَّها كانت أحسنهما[1]. وقال: « ما أمرَ الله بهذا قطُّ، ولا أزوِّجُ هابيلَ أختي». فقال لهما آدمُ عليه السلام: «قرِّبا قُرباناً، فمن يتقبَّلِ اللهُ قربانَه يتزوَّجْها». فقرَّب هابيلُ عِجلاً سميناً ومن خيرِ غنمهِ لَبنا وزُبداً. وقرَّبَ قابيلُ سُنبلاً من رَديءِ زَرعِهِ. فانطلقَ آدمُ بهما إلى الجبل. فأضمرَ قابيلُ في نفسه: «ما أبالي أَقبلَ اللهُ مني أم لا، ولا يتزوجُ هابيلُ أختي أبداً». وأَضمَر هابيلُ في نفسهِ إرضاء الله تعالى/

١٣/ب فنزلتْ نارٌ من السماء، فتقبَّلَ اللهُ من هابيلَ، لأنَّه كان أزكى القلب. ولم يتقبَّلْ من قابيلَ. فنَزلوا من الجبل وتفرَّقوا. ثم أتى قابيلُ إلى أخيهِ هابيلَ وهو في غَنمه، فقال له: «لأقتلنَّكَ» وذلك قولُه تعالى: «إذْ قرَّبا قُربانا فتُقبِّلِ من أحدِهما، ولم يُتقبَّلْ من الآخر»[2] قال: «لأقتلنَّكَ». قال: «إنما يتقبَّلُ الله من المتَّقين». قال قابيلُ لأخيهِ هابيلَ: «لأقتلنَّك». قال: «ولِمَ؟». قال: «لأنَّ الله قبلَ قُربانَك وردَّ قُرباني، وتتزوَّج بأختي الحسناء، وأتزوّج بأختك القَبيحة، فتحدَّثَ الناسُ أنك خيرٌ[3] مني. تفتخر أولادك على أولادي». فقال له هابيل: «إنما يتقبلُ الله من المتَّقين» أي ممَّن كان زَاكيَ القلب.

ورُوي أن الكبشَ كان أبيضَ، أعينَ، أَقرنَ. وقال السدِّيُّ[4]: وكان قابيلُ أكبرَ من

---

١ ـ رفض قابيل أن يزوج أخته هابيل وضنَّ بها لأنها أجمل، فأرادها لنفسه. ويرى الطبري أن قابيل رفض تزويجه فقال: نحن ولادة الجنة وهما ولادة الأرض (تاريخ الطبري: ١/ ١٤٠).

٢ ـ الآية: ٢٧/ المائدة: ٥.

٣ ـ خيراً.

٤ ـ السدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن تابعي حجازي سكن الكوفة، اشتهر بالتفسير والمغازي والسير وأيام الناس، توفي سنة ١٢٨.

هابيـلَ، فأرادَ آدمُ الخـروجَ إلى مكةَ المشرَّفةِ، فطلب من السماء أن تحفظ عليه أهلَه وولدَه، فأبَتْ، فقال قابيلُ: «أنا أحفظُهم عليك بأمانةِ الله». فضمَّنه ذلك، وذلكَ قولُه تعالى: «إنَّا عَرضْنـا الأمـانـةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ، فأبينَ أن يحملْنَها وأشفقْنَ منها، وحَملها الإنسانُ، إنه كان ظَلوماً جَهولاً»[1].

قال: وانطلقَ آدمُ إلى مكةَ، وطافَ بالبيتِ، وطلبَ هابيلُ مِن أخيه قابيلَ أن يزوِّجَه أختَهُ. فقال له قابيلُ: «أنا أكبرُ منك وأنا وصيُّ أبي». فقال له هابيلُ: «ما أنتَ خيرٌ مني». فقال له «فلنقرِّبْ قُرباناً ثانياً، فمن تُقبِّل قربانُه، فهو خيرٌ من صاحبِهِ». وكان قابيلُ صاحبَ زرعٍ، وهـابيـلُ صاحبَ غنم. فأخـرجَ قابيلُ سُنبلاً، وأخرجَ هابيلُ كبشاً. فجاءتْ نارٌ من السـماءِ فأخـذتِ الكبشَ وتركتِ/ السنبلَ. فحسدَه قابيلُ فقال: «لأقتلنَّكَ». فقال هابيلُ: «إنَّما يتقبلُ اللهُ من المتَّقين» أي قالَ ذلك هابيلُ. فقال الناسُ: «قُبل قربانُ هابيلَ لتَعظيمهِ، ورُدَّ قربـانُـه قابيـلَ لتحقـيره»، فلا يَنْبغي لأحـدٍ أن يَترِكَ تعظيمَ اللهِ في مايتَقـربُ إليـه. قال الله تعالى: «ذلك ومَن يُعظِّم شعائرَ الله فإنَّها مِن تَقوى القُلوب»[2] وقال تعالى: «لن تَنالوا البرَّ حتى تُنفِقوا مما تحبُّون»[3]. ١٤/آ

اجتمـع في قابيـلَ عقـائقُ الأبِ، وحسـدُ الأخ، وتحقـيرُ القُـربى، وتأخـيرُ الائتمار. فأفْضى به ذلك إلى ردِّ الأمرِ والوقوعِ في الكفرِ والاستهانَةِ بالمعَاصي.

ثم إنَّ قابيـلَ جاء إلى هابيـلَ فقال: «إني قاتِلُكَ». فقال له هابيلُ: «لئن بسطتَ إلي يدَكَ لتقتُلَني ما أنـا ببـاسـطٍ يَدي لأقتُلكَ، إني أخـافُ الله ربَّ العـالـمين». يعني: أستسلمُ وأصـبرُ ولا أعـارضُ. وكان معارضةُ القاتل يومئذٍ حراماً، والتسليمُ واجباً. فأخبر أنَّه يخافُ الله ربَّ العالمين، ولا يرتكبُ الحرامَ. فجاءه قابيلُ على غَفلةٍ، وهو نائمٌ، فشدَخَ رأسَه، فلم يُمكنه دفعُهُ. قال الله تعالى: «فطوَّعتْ له نفسُه قتلَ أخيه»[4] أي سهَّلتْ له نفسُه قتلَ أخيهِ

---

١ ـ الآية: ٧٢/ الأحزاب: ٣٣.
٢ ـ الآية: ٣٢/ الحج: ٢٢.
٣ ـ الآية: ٩٢/ آل عمران: ٣.
٤ ـ الآية: ٣٠/ المائدة: ٥.

حتى فعلَ غيرَ خائف ولا مُتفكّرٍ في عاقبتِهِ. فأطاعَ هواهُ وقتلَ أخاهُ.

قال قتادةُ[1]: زَيَّنت له نفسُه. وقال مجاهدُ: شجَّعتْه. وقالَ الكَعْبيُّ: تابعتْه نفسُه على ذلك، وقيلَ: جرَّتْه. وقال ابنُ عُبيدةَ: أعانَتْه. وقال عبدُ العزيزِ بنُ يحيى[2]: أجابتْه إلى ذلك. وقال عطاء[3]: سوَّلتْ له نفسُه قتلَه فقتلَه، فأصبحَ من الخاسرينَ، أي صارَ خاسراً دنياهُ وآخرتَه؛ فإنه أسخطَ والدَه فقدُ أخيهِ[4]، وأغضبَ ربَّه وصارَ إلى النار.

وفي بعضِ الآثار /لم يدرِ كيفَ قتلُهُ؟ فتمثَّلَ له إبليسُ في صفةٍ طائرٍ، فأخذَ طائراً فقطعَ رأسَه، ثم وضَعَه بينَ حَجرين، فشدَخ رأسَه. فعلَّمه القتلَ فطلبَه ليقتلَهُ حتى وصلَ إليه في ظلِّ جبلٍ نائماً، وغنمُه تَرعى. فأخذَ صخرةً. فضربَ بها رأسَه فماتَ. وهو أولُ قتيلٍ قُتل على وجهِ الأرض. ١٤/ب

قال صلى الله عليه وسلم: «لا تُقتَلُ نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابن آدمَ كِفْلٌ مِن دَمِها» وذلك أنه أولُ مَن سنَّ القتلَ. وقال عليُّ بنُ الحسن: «وكَّلَ الله تعالى بقابيلَ الذي أخوهُ هابيلُ مَلكَيرِ[5] يطلعان بدمعِ الشمس إذا طلعتْ، ويغربان بدمع الشمسِ إذا غربت، وينضجانهِ بالماء الحارِّ مع حرِّ الشمس حتى تقومَ الساعةُ.

وعن ابن عباس، لما قَتل قابيلُ أخاه هابيلَ، وآدم بمكةَ شوَّكتِ الشجرُ، وحمضتِ الفواكهُ، وتمرَّر الماء، واغبرَّتِ الأرضُ، فقال آدمُ، عليه السلامُ، حين رأى ذلك التغيرَ: «حدثَ في الأرض حادثٌ، فأتى آدمَ عليه السلام الهدُّ[6] وهو يقول:

تَغيرَّتِ البلادُ ومَن عليها فوجهُ الأرضِ مغبرٌّ قَبيحُ

---

١ ـ هو قتادة بن دعامة أبو الخطاب السدوسي. مفسر حافظ ضرير أكمه، كان عارفاً بالعربية وأيام العرب والنسب. مات بواسط سنة ١١٨.

٢ ـ عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي. فقيه من تلاميذ الشافعي، له مؤلفات. توفي سنة ٢٤٠.

٣ ـ هو عطاء بن دينار الهذلي، من رجال الحديث. له كتاب في التفسير، توفي بمصر سنة ١٢٦.

٤ ـ في الأصل: أخاه.

٥ ـ في الأصل: أخاه.. ملكان.

٦ ـ الهد: الوهن والضعف.

تغيّرَ كلُّ ذي طعمٍ ولونٍ وقلَّ بشاشةُ الوجهِ[1] الصَّبيحِ
ومالي لا أجودُ بسكبِ دمعي وهابيلُ تضمَّنَه الضريحُ؟
أرى طولَ الحياةِ عليَّ غماً فهل أنا من حياتي مُستريحُ؟

ورويَ أن الوحوشَ والطيورَ كانت تألفُ أولاد آدمَ. فلما وقع هذا نَفرتْ واسْتوحشتْ وهاجتْ ريحُ أظلمتِ الدنيا. وكان آدمُ في مناسك الحجِّ، فقال لجبريلَ: «ماهَذا؟» قال: «هذا من شؤمِ ابنهِ قابيلَ، قتلَ أخاه هابيلَ». قال: فحزنَ آدمُ لذلك، فلم يضحكْ مئةَ سنةٍ. /وقيلَ: إنَّ آدمَ لم يقربْ حواء بعد ذلك مدةَ حياتِه. ١٥/آ

ولما قَتلَ قابيلُ أخاه هابيلَ، لم يدرِ ما يصنعُ. فأرسلَ الله إليه غراباً يشيرُ ويُثير الترابَ، «ليُريَه كيف يُواري سَوءةَ أخيهِ»[2]، وقد كانتْ أنتنتْ. فسُمت سوءةً لذلك. وقيلَ: السوءةُ العورةُ، كما في قوله: «يُواري سوءاتِكم»[3]، وقوله: «لِيريَهُما سوءاتِهما» قال قتادةُ: قَتل الغرابُ غراباً، ثم جعلَ يحثو[4] الترابَ عليه بعد حَفرهِ ليدفنَه. وقال ابنُ عباس: جاء غرابٌ حيٌّ إلى غرابٍ ميْتٍ فواراهُ الترابَ. وقال الحسنُ: بعثَ الله غراباً بمنقارهِ، فعلمَ أنه يبحثُ الأرضَ ليدفنَ فيه أخاهُ. وقال بعضُهم: جاء غرابٌ وأثارَ الأرضَ، ووارَى أخاهُ، والله أعلمُ بحقيقةِ ذلك.

فقال قابيلُ عندئذٍ: «ياوَيلتي، أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغرابِ؟»[5]. وقولهِ: «ياوَيلتي» كلمةُ تأسُّفٍ على ما فَعل، وقيلَ: الويلُ والويلةُ: الهلاكُ. وهذا على وجهِ النداء. والألفُ في آخرهِ للندبة. وهذا تحسُّرٌ منه على ما فعلَ، وعلى ما فاتَه من مقدارِ هذا

١ - ورد البيتان الأولان في: قصص القرآن: ٥٠، والكامل: ١/ ٤٥، والطبري: ١/ ١٤٥، ويرون أن العلماء رووا البيتين عن علي بن أبي طالب قالهما آدم لما قُتل هابيل.
٢ - الآية: ٣١/ المائدة: ٥.
٣ - الآية: ٢٦/ الأعراف: ٧.
٤ - في الأصل: يحث. يحثو التراب: يصبه.
٥ - الآية: ٣١/ المائدة: ٥.

العلمِ الذي وقفَ عليه الغرابُ. فأصبح من النادِمين، أي صارَ نادماً على حملِهِ لا على قَتلِهِ.

قال وهبُ بن مُنبِّه[1]: حمله ثلاثةَ أيامٍ، لا يَدري ما يَصنعُ بهِ، حتى بعثَ الله الغرابَ. وقال الكلبيُّ: سنةً، وقال مجاهدٌ[2]: مئةَ سنةٍ، يطوفُ به البلادَ. وقال الكلبيُّ: ندمَ على حملهِ والتطويفِ به في سائرِ البلاد. ولوكانتْ ندامتُه على قتلهِ لكانَ تَوبةً. وقال الحسنُ ابنُ الفضل: كانت ندامتُه على ذنبهِ، / لكنَّ ندمَ الأولينَ لم يكن توبةً، وكانوا يعاقبون على جِناياتِهم بعد نَدامَتِهم عليها، كما عُرف ذلك في الذين عَبدوا العجلَ. وقد نَدموا على ذلك عُوقبوا بقتلِ أنفسِهم. وإنما جعلَ الندمَ توبةً في حقِّ هذه الأمَّة. ١٥/ب

وقيل إنه لما قتلَهُ نُودِيَ: «كنّ خائفاً أبداً، لا تَرى أحداً إلا خِفتَه أن يَقتُلك».

وقيلَ: لما قتلَه اسودَّ وجُهه. فلما رآه آدمُ قال لهُ هابيلَ[3]: «لم أكنْ وكيلاً عليهِ». قال آدمُ: «أنتَ الذي قَتَله، ولذلك اسودَّ وجهُك».

وقيل: لما هامَ في الأرض خائفاً كانَ كلُّ مَن رآهُ يرجُمه بحجرٍ، فرآهُ بعضُ ولدِهِ فرماهُ بحجرٍ فقتلَه[4] وقيلَ: أمرَ الله الريحَ فألقتْه في آخرِ موضعٍ في الدُّنيا. فهويُقاسيهِ في الشتاء.

وقيلَ: إن إبليسَ تمثَّلَ له في صورةِ إنسانٍ وقال لهُ: «أتَدري لمَ قُبلَ قربانُ أخيك؟». قال: «لا». قال: «لأنَّه كان يُعظِّم ويتواضعُ لها، فلذلك أكلتْ قُربانَه. فاسجدْ أنتَ للنارِ». فسجدَ لها من دونِ الله. فكفرَ بذلك، فهو أولُ مَن سجدَ للنار.

وقال محمدُ بنُ علي الترمذيُّ[5]: إنَّ قابيلَ تَولَّد من قوةِ حبَّةٍ أكلَها آدمُ من الشجرةِ مع

---

١ ـ هو وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني، مؤرخ عالم بأخبار الأولين. ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء، وله كتب. توفي سنة ١١٤.

٢ ـ هو مجاهد بن جبر مولى بني مخزوم. كان شيخ المفسرين والقراء، أخذ ذلك عن ابن عباس. توفي سنة ١٠٤ وقيل ١٠٢ و ١٠٠ بمكة.

٣ ـ في الأصل «قال» زائدة هنا، فرأينا إسقاطها.

٤ ـ ابنه الذي رماه أعمى. وحين قتل قابيل كان عمره خمساً وعشرين سنة، وهابيل عشرين سنة، كذا في كتب الأخبار.

٥ ـ هو محمد بن علي الحكم الترمذي، عالم بالحديث وأصول الدين. اتهم بآرائه الصوفية فنفوه، واختلفوا في سنة وفاته فقالوا: سنة ٢٥٥ و ٢٨٥ و ٣٢٠! وله كتب أغلبها مخطوط.

النَّهي. فأثَّر ذلك في فسادِ هذا الولدِ، فصارَ أباً ليأجوجَ ومأجوجَ الذين كثرُوا، وإفسادُهُم في الأرض في آخرِ الزمان على وجه لا يُعرفُ له غايةٌ. وآلَ الأمرُ بقابيلَ حتى كفرَ. فهو مُخَلَّدٌ في النارِ مع الشيطان. فهو قرينٌ لإبليسَ في النار. حتى إنَّ أهلَ النارِ يُنادون في النار: «ربَّنا أرِنا اللذين أضَلَّانا من الجنِّ والإنس، نجعلْهُما تحتَ أقدامِنا، ليكونا من الأَسفلينَ»[1].

فقولُهم: «من الجنِّ» فهو إبليسُ لعنَه الله. وقولُهم: «والإِنسِ» هو قابيلُ. فهو أخسرُ الخاسرين/ وفي النارِ معَ المخلدين. وهذا كلُّه ذكرَه الإمامُ النسفيُّ رحمه الله في تفسيره. ١٦/آ

وممّا يقربُ من ذلك ماروَاهُ أهلُ التواريخ عن أمِّ عَوجٍ أن حواء عليها السلامُ حَملتْ بها من آدمَ عليه السلام مفردةً من غيرِ ذَكرٍ معها. وكانتْ مشوَّهةَ الخِلقة، وكان لها رأسانِ، وكان لها في كلِّ يدٍ عشرةُ أصابع، لكلِّ إصبعٍ ظفرانِ كالمِنْجلين الحادَّين. فذكرَها عليُّ بنُ أبي طالب وقال: «هي أولُ من بغى على وجهِ الأرض، وأولُ ن عملَ الفجورَ، وجاهرَ بالمعاصي، واسْتخدمتِ الشياطينَ وصرفتْهم في وجوهِ السحر».

وكان الله عز وجل أنزلَ على آدمَ عليه السلام دعوةً وأسماء تطيعهُ الشياطينُ بها، وأمرهُ أن يدفعَها إلى حواء عليها السلامُ. فتكونُ حرزاً لها ولأولادها، ففعلَ ذلك. فكانتْ حواء تَصونُ تلك العوذةَ والأسماء. فغافَلتْها عَناقُ وهي نائمةٌ، وأخذتْها واستجلبتْ بها الشياطينَ، وتجاهرتْ بالمعاصي. وأضلَّتْ كثيراً من بَني آدمَ وحواء. فدعا عليها آدمُ عليه السلام، وأمَّنتْ حواء على دُعائهِ. فأرسلَ الله تعالى إليها أسداً عظيماً أعظمَ من الفيلِ، فمزَّقَ أعضاءها، وأراحَ الناسَ منها.

وقال أهلُ الأثر: إنَّ عوجَ الجبارَ مِن وَلدها، وإن الطوفانَ لم يُغرقْه، وإنه وصلَ إلى رُكبتِهِ، وإنه طلبَ السفينةَ ليغرقَها ومَن فيها. وعُمِّرَ إلى زمانِ فِرعونَ[2]، وقطعَ صخرةً على مِقدارِ عسكرِ موسى عليه السلامُ. وكان موسى في أكثرَ مِن مئةِ ألفٍ ليطرَحَها عليهم، لأنَّه

---

١ ـ الآية: ٢٩/ فصلت: ٤١.

٢ ـ يرفض ابن كثير أن يبقى عوج حياً إلى زمان موسى، يقول: «فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره. ولا يهلك عوج بن عناق؟ وكيف لا يرحم أحداً منهم ولا أم الصبي ولا الصبي ويترك هذا الجبار الفاجر؟ وقد قال تعالى: «ثم أغرقنا الآخرين؟» وانظر تفصيلاً مهماً في (قصص الأنبياء: ٨٤ و ٨٥).

أخـذَ مَسلحـةَ العسكـر طولاً وعَـرضاً، وقطعَ الصخرةَ على قَدرهم، وحَـملها، فأرسلَ الله تعـالى إليـه طَيراً، فنقـرَ تلك الصخرةَ من وَسَطها، حتى نزلتْ من رأسهِ إلى عُنقهِ، /حتى ١٦/ب كانـت كالطَّـوق، فمنعتْـه الحـركةَ، وأمر الله موسى عليه السلامُ بقتلهِ، فوثبَ عليه مُوسى، وكـانت وثبتُه عشرةَ أذرعٍ، وطولُ عصاهُ مثلَ ذلك، وطولُ موسى مثلَ ذلك عليه السلام. فجملةُ ذلـك ثلاثـون ذراعـاً. فضربَه موسى عليه السلام على هذا الحُكم، فلم يلحقْ إلا عُرقوبَه فقتلَه. فلما وقعَ على الأرض، هو والجبلُ الذي على رأسهِ اهتزَّتِ[1] الأرضُ، فكان سيدُنا موسى عليه السلام يقولُ عند وقعتهِ: «ربِّ سَلِّمْ، ربِّ سلم».

وكـان طولُ عَوجٍ ثلاثـةَ آلافِ ذراع وثـلاثَ مئةٍ وثلاثةً وثلاثينَ ذراعاً وثلثَ ذراعٍ [2]. فأقامَ جِسراً على النيلِ كالقَنطرة، يعبرُ الناسُ عليه والدوابُ مدةً طويلةً. وقيلَ: كان الجسرُ قصبةَ رجلهِ. وفي قولٍ آخرَ: إنهم جرُّوهُ بألف عجلةٍ وألْفي ثورٍ في كلِّ يومٍ نصفَ ميلٍ، إلى أن طرحـوهُ في بحـرِ القَلْزم[3]، وقيـلَ: بل قطَّعـوهُ وجرُّوهُ قطعةً قطعةً إلى البحر. وقيلَ: تُركَ في موضعـهِ الـذي صُرع فيـه، ورَدَمـوا عليـه الصخـرَ والرملَ. فهو كالجبلِ العظيمِ في صحراء مصرَ. وعـاشَ عوجٌ ثلاثةَ آلافِ سنةٍ وسبعَ مئةِ سنةٍ[4].

---

١ ـ في الأصل: فاهتزت.

٢ ـ وهـذا يخالف قول السيـوطي الـذي يذكـر أن طول سريره ثمان مئة ذراع وعرض أربع مئة ذراع (حسن المحاضرة: ٦٢).

٣ ـ يعني البحر الأحمر.

٤ ـ يذكر السيوطي أنه عاش ٣٦٠٠ سنة، بينما يرى ابن جرير أنه عاش ألف سنة (حسن المحاضرة: ٦٢).

قصة هاروت وماروت

ومن قَبيـل ما ذكرناهُ ما وقعَ لهاروتَ وماروتَ مع «الزُّهرة»[1]. وقصتُها على الاختصار ماروُيَ أن الملائكةَ نَظروا إلى بَني آدمَ ومَعاصِيهم، فقالوا: «ياربَّنا، خلقتَ البشرَ ورزقْتَهم وهُم يَعصـونَـك. ولـو كنَّـا مكانَهم ما عَصيناك». فقال لهمُ اللهُ جلَّ جلالُهُ: «اخْتاروا منكم ملكـينِ». فاخْتـاروا جَبرائيـلَ ومِيكائيلَ، فتضرَّعا إلى اللهِ تَعالى، واسْتَعفيا، فعَفا عنْهُما. فاختـاروا بعـدَهما هاروتَ ومـاورتَ. /فـركَّبَ الله فيهـما شهـوةَ الأكـلِ والشُّرب والنِّساء، وأرسلَهُما ليحكُما بينَ السَّماء والأرضِ، وبينَ النِّساء، ولا يَفْعلا[2] شَيئاً من المَعاصي. فنزلا بأمـرِ الله تعـالى. ففعـلا ذلـك مدةً، وكـانا يَصْعدان بالليل إلى السماء، ثم يَنزلانِ بالنهارِ، حتى جاءت امرأةٌ ذاتُ حُسنٍ وجمالٍ يوماً، وكان اسمُها زُهرةَ وبيدُخْتَ[3] بالنَّبطية. وقيل: ناهِيـةُ ناشِـرةٌ، وقـد أرْخت ذَوائبَها على قميصِ حريرٍ، وهي تُخاصِم زوجها. فلما نظرَ إليها وقـعَ حبُّهـا في قَلبَيْهـما. فكتـما ذلك، ولم يُظهر كلُّ ٭احدٍ منهُما لصاحبِهِ حياء منه، حتى عَيِيَ صَبرُهما، فراوَداهـا عن نفسِهـا فأبَتْ، حتى يُعلِّماها[4] اسمَ اللهِ الأعظم الـذي يَصعدانِ به إلى السـماء. فقَـويتْ علَيهـما الشهـوةُ. فعلَّماهـا فدخلت بَيتـاً، فتطهَّرتْ، ودعَتْ إلى الله باسمِهِ الأعظمِ، فصعِدَتْ إلى السماء، فمسخَها الله كوكباً.

١٧/آ

---

١ ـ اشتهر مجاهد بالتحري عن كل أعجوبـة يسمع بها فيسافر لأجلها. ويروى أنه سافر إلى بابل بحثاً عن هاروت وماروت. وقد اتهم بأنه كان يستفسر من أهل الكتاب عن بعض الأمور.

٢ ـ في الأصل: ولا يفعلان.

٣ ـ بيدخت: نجم الزهرة (فارسية).

٤ ـ في الأصل: يعلمانها.

وقال: أمّا مَسْخُها كوكباً فغيرُ مُستنكَرٍ لأن الله تعالى مسخ أقواماً لكنْ كونُ صُورتها الزُّهْرةَ المشهورةَ من الكوكب في السماء ضعيفٌ، لأن الزُّهرةَ في السماء منذُ خَلقها الله تعالى إلى يوم القيامةِ في الكواكب، فيجوزُ أن تكونَ كوكباً آخرَ يُشبِهُها. وقيلَ: هيَ تُعذَّبُ في السماء. وقيل: صارتْ إلى النارِ كسائرِ مَن مُسخ.

ثم بعثَ الله تعالى مَلكاً قيل: هو جَبرائيلُ عليه السلام، فمنَعَ هاروتَ وماروتَ من الصعودِ إلى السماءِ بِعْصيانِهما، ومُراوَدَتِهما زَهرةَ. ولم يَثبتِ الزِّنى ولا شربُ الخمرِ ولا قتلُ النَّفس، وإنْ ذُكر ذلك في بعض الروايات. فقالَ جِبريلُ عليه السلام لهما: إن الله مُخيِّرُكما بين عذابِ الدُّنيا وتكوناَ[1] في الآخرةِ في مشيئةِ الله؛ إنْ شاء عذَّبكما / وإن شاء رَحِمكما، ١٧/ب وبينَ أن يؤخِّرَ عنكما العذابَ. فاستشارا جبريلَ عليه السلام، فأشارَ عليهما أن يختارا عذابَ الدُّنيا، فهما يُعذَّبان ببابلَ مُعلَّقان هناك.

وقيل: ببئرٍ هناك مُنكَّسانِ، رؤوسُهما إلى أسفل البئر، وأرجُلُهما إلى أعلاه. وابْتُليا بالعطش الشَّديد، يلتهفارِ[2] عطشاً حتى اندلفتْ[3] ألسنتُهما حتى صارَ بيْنهما وبينَ الماء قدرُ أربع[4] صابعَ، لا يصلان إلى الماء أبداً إلى يوم القيامة. وقيلَ فيها: ويدٌ بدُماوَنْد[5] دونَ الكوفةِ، حتى يقولا: «إنما نحن فتنةٌ، فلا تكفُرْ». فمعناهُ على القائلِ الثاني: وما يُعلِمانِ أحداً كيفيةَ السِّحر، حتى يقولا[6] له: «إنما نحنُ فتنةٌ للاختبارِ لكُم، فلا تكفرْ» أي فلا تَتعلَّم السحرَ ولا تَعملْ به، فإنه كفرٌ، ثم يُبيِّنان وجهَ السحرِ، ويقولانِ: «السحرُ يكونُ كذا وكذا، فاتَّقِ اللهَ تعالى ولا تَستعملْه».

١ـ في الأصل: وتكونا.
٢ ـ التهف فلان: تحرَّق حزناً من مصيبة ألمت به.
٣ ـ اندلف عليه: انصب، ولعلها: اندلق.
٤ ـ في الأصل: أربعة.
٥ ـ دماوند: جبل قرب الري وكورة.
٦ ـ في الأصل: يقولان.

فيقعُ هذا الإعلامُ منهُما على وجهِ التَّحذير، ويقعُ عندَ المُسْتمع على وجهِ التعلُّم كالفقيهِ. يقولُ لآخرَ: «مَن أخذَ درهمين بدرهمٍ فقد أَرْبَى، ومَن وَطِىء امرأةَ الغَيرِ فقد زَنى». وإنما جازَ بيانُ السِّحرِ لأنهُ لا يُتوصَّلُ إلى اجتنابِهِ إلا بعدَ معرفتِهِ. وقد قيلَ: «عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ [لكنْ][1] لتوقِّيهِ. ومَن لا يعرفِ الشرَّ منَ الناس يقعْ فيهِ». والتعليمُ بمعنَى الإعلام، فيتعلَّمون منهما ما يفرِّقون بهِ بينَ المرء وزَوجِهِ، أي الفُرقَةَ التي تقعُ بالبُغض وغيرِهِ. وقولُهُ تعالى: «وما هُم بضارِّينَ بهِ من أحدٍ إلا بإذنِ الله»[2] المتعلمين السحرَ، لا يضرُّون أحداً بالسِّحرِ إلا بعلمِ الله. وقولُه تعالى: «ويتعلَّمون ما يضرُّهم ولا ينفعُهم»[3] أي ما يضرُّهُم في الدنيا ولا يَنْفعهم في الآخرة.

فانظروا ماذا أحلَّ بهذين الملكينِ من العذاب الآليم، والهوانِ العظيم، وكيفَ مُنِعا/ منَ الصُّعودِ إلى السَّماء، كذا وكذا ألفِ سنةٍ، يُقاسيان ما هُما فيهِ من العذابِ والهوان بسببِ تلك المرأةِ التي تُسمى زُهرة. فإنْ قالَ قائلٌ: وما ذنبُ زُهرةَ؟ وأنَّ الملكين[4] راوَداها عن نفسِها فأبَتْ قيلَ له: لولا أن الذنبَ لها ما مَسخَها الله تعالى، وغيَّرَ صورتَها وطمسَها كوكباً، وقَذَفها بعدَ ذلك في النارِ. ١٨/آ

وعلى ما رُوي في بعض الأخبار: لتزداد بذلك عذاباً في النار، وكيف لا يكون الذنب لها، وهي مخلوقةٌ وفعلُها مخلوقٌ، ولها اختيارُ مخلوقٍ؟ وقد خلقَ الله لها قدرةً على الامتناع عن المَعْصيةِ، وكانت السببَ في افتتانِ الملكين بها. فإنها دَخلت عليهما وقد نشرتْ شَعرَها من أعلى رأسِها إلى جَوانبِها، ووجْهُها يتلألأ نوراً وجَمالاً، وعليها ثوبٌ من حريرٍ، وتبرَّجتْ لهما[5] حتى حرَّكتْ شَهوتَهُما وافتُتنا بها، وبمِحْنَتها.

---

١ ـ إضافة المحقق.
٢ ـ الآية: ١٠٢/ البقرة: ٢.
٣ ـ تابع للآية السابقة.
٤ ـ في الأصل: مالكان.
٥ ـ في الأصل: بهما.

ولمـا دَخلت على الملكـينِ لم تَسترْ وجْهَها عنْهُما، بل جاءتْهما وهي حاسرةٌ عن وَجهِها، تَتبـاهى بحُسْنهـا وجَمـالهـا. فانظرْ، رَحمك الله، إلى عِظم كيدِ هذه المرأةِ التي تُسمى زَهرةَ، وكيفَ فتنتْ هذين الملكين الكريمينِ، حتى حلَّ بهما ما حلَّ من العذابِ الأليم. فنعوذُ بالله مِن كيدِهن «إن كيدَهنَّ عظيم».

قصّة نوح

ومن هذا القَبيل ما ورد في قصةِ سيدِنا نوحٍ عليه السلامُ[1]، وذلك أنه لما رَكبَ السفينة، بِمَن معه من أولاده وغيرهم. وكان أولاده عليه السلامُ ثلاثةً؛ سامٌ وحام ويافثُ. فنهاهُم سيدُنا نوحُ عليه السلام، ألا يَطؤوا نساءهُم في السفينةِ. واخبرهُم أنَّ السفينةَ آيةٌ من آياتِ الله تعالى. فعظِّموها بترِكِكُم الوطء لِحَلائلكم فيها، وتلبُّسِكم بالجنابةِ، ولا تَهْتِكوا حُرمَتَها، فإنَّ الله تعالى جعَلها عبرةً لمنِ اعتبرَ، وتذكرةً لمنْ تذكَّرَ. وهذا عَهدي / إليكم والسلامُ.

١٨/ ب

فقالوا له: «سَمعاً وطاعةً، إنا لأمرِك خاضِعون، ولما تَنْهانا عنه سامِعون». فلما طالَ الأمرُ عليهم جَعلتْ زوجةُ حامٍ بنِ نوح تُراوِدُه عن نفسهِ، وتتقرَّبُ منه وتلاعِبُه حتى واقَعَها في السفينةِ. فلما عَلم نوحُ بذلك دَعا على ولدِه حامٍ وعلى زَوجتهِ بسوادِ الوجهِ وسَوادِ خِلْقتِهما، وأنْ يكونَ السوادُ في أولادهما إلى يومِ القيامة. وأنْ يُقلِّصَ شُعورهما على رُؤوسِهما، أي لا يكونُ مُسْدُولاً ولا مَسَبْسَباً[2] كشعورِ الأحرار. وأنْ لا يجعلَ الله من أولادِ حامٍ نَبياً. وأنْ يجعلَ الله تعالى أولادَ حام أرقاء لأولادِ أخيهِ سام. والتركُ أولاد يافِثَ.

وفي روايةٍ أن نوح عليه السلام ما دعا على ولد حامٍ، إلا أنَّ نوح نامَ يوماً في السفينةِ، وولداهُ جالسانِ عندَه، أعني: سام وحام. فلما اسْتَغرق نوحُ في النوم هبَّتْ عليه ريحٌ عاصفةٌ، فانكشفتْ عَورتُه. فضحكَ عليهِ ولدُه حام، فنَهَره أخوه سامٌ، وقال لهُ: «تَضحكُ على عَورةِ أبيك؟». وعَلا صوتُ سام بكلامهِ، فاسْتيقظ نوحٌ عليه السلام من

---

١ ـ نوح : اسم سامي معناه «الراحة». وهو ابن لامك بن متوشالح بن أخنوخ.

٢ ـ مسبسب: سائل ومسترسل.

نَومِهِ على كلامِ ولدِهِ سام لأخيهِ، فأخبره سامٌ بما وقعَ . فغضبَ نوحُ عليه السلام على ولدِهِ حام، ودعا عليه وعلى أولاده بسوادِ الأجسام كما تقدَّم[١].

والـروايـةُ المشهورةُ إنما كانَ دعاؤ ه على ولدِهِ حام[٢] بسببِ مُجامَعتِهِ لزوجتِهِ، ومُخالفتِهِ لأمر والدِهِ نوح عليه السلام، فإنه كانَ أمرُه أن لا يجامِعَ زوجتَه في السفينةِ، فجامعَها ومكثَ جُنُباً فيها، وهي آيةٌ من آيات الله كما تقدَّم، والله أعلم.

فصلٌ فيما يَتعلَّق بالسفينة، وما كانَ فيها من العجائب على سَبيل الاختصار، وذلك أن سيـدَنـا نوح عليه السلام، لما أَيِسَ من إيمانِ قَومِهِ، وأَوحى الله إليهِ: «أنَّه /لن يُؤمِنَ مِن قومك إلا مَن قَد آمَن»[٣]. وأمرَه الله تعالى بصنعةِ الفُلك، أي بعمارةِ السفينة. «وأَوحى الله إليـهِ أن اصنـع الفُلك بأَعْيُنِنـا ووَحْيِنا»[٤]. وكان قبلَ ذلك دَعا على قومه، فقال: «ربِّ، لا تَذرْ على الأرض من الكافرين دَيَّاراً»[٥]. فاستجابَ الله له وأمرَهُ بصنعةِ الفُلك، كما قالَ الله تعـالى: «واصنـع الفُلكَ بأَعْيُننـا ووَحْينا، ولا تُخاطِبْني في الذينَ ظَلموا، إنهم مُغرَقون[٦]».

قال: «ربِّ، ومـا الفُلكُ؟». قال: «بيتٌ من خشبٍ يَجري على وجـهِ المـاء، تركَبُ فيه أنتَ ومَن آمنَ مَعــك، وأُغــرِقُ أهــلَ مَعْصِيتي، وأُطهِّــرُ أَرضي منهُم». قال: «يــاربِّ، فأينَ الخشبُ؟». قال: «اغـرسِ الشجـرَ». فغـرسَ السـاجَ[٧]، وجعلَ يسقيهِ بالماء عشرينَ سنةً وكفَّ نوحُ عن قَومـهِ، فلم يَدعُهُم إلى إيمانٍ بعـد ذلـك. وكفُّـوا عن أذيَّتـهِ، إلا أنَّهم كانوا

١٩/آ

---

١ ـ يذكر ابن كثير أن نوحاً دعا عليه أن تشوه خلقه نطفته، فولد ولداً أسود هو كنعان بن حام جد السودان (قصص الأنبياء: ٨٧). وفي قاموس الكتاب المقدس، ٩٨٢ أن نوحاً حين نزل إلى الأرض زرع نبات الكرمة، فأثمرت عنباً وصنع منه مسكراً وشربه وسكر، فسخر ابنه الصغير حام منه وكشف عورته، ولكن أخوي حام وضعا الرداء على أبيهما.

٢ ـ في الأصل: إلا بسبب، فأسقطناها.

٣ ـ الآية: ٣٦/ هود: ١١.

٤ ـ الآية: ٣٧/ هود: ١١.

٥ ـ الآية: ٢٦/ نوح: ٧١.

٦ ـ الآية: ٣٧/ هود: ١١.

٧ ـ الساج: نوع من الأشجار ينتج الأخشاب الصلبة.

يَستهـزئـون به، ويسخـرون منـه. فلما أدركَ الشجـرُ أمـره الله تعـالى أن يقطعـه. فقطعَه، وجفَّفــه. ثم قال: «يــاربِّ، كيفَ أتَّخِــذُ هذا البيتَ؟». قال: «اجْعلْهُ على ثلاثِ صُورٍ؛ اجعـل رأسـه كرأس الـديـك، وجَـرْجَـرَه كجـرجـر[1] الطـير، وذنبه كذنب الديك». وبعث الله إليه جبر يـلَ عليـه السـلام، يعلِّمـهُ صنعـةَ السفينـةِ. فأوحَى الله إليـه: «يانوحُ، عجِّلْ بصنع السفينةِ، فقد اشتدَّ غَضبي على من أكلَ رِزْقي، وعبد غَير ي».

فعنـد ذلـك نهضَ نوحٌ عليـه السـلامُ واستأجَرَ أجير ين، أي نجَّارينِ يعملانِ معه، وسامٌ وحام ويافثُ يعملون معه.

قال صاحبُ عقايقِ الحقايق: «رُوي عن ابن عباسٍ المَرْوزيِّ أن جبر يلَ أخذَ العصا[2] التي كانت في يدِ نوحٍ، يتوكَّأُ عليها، وغرسَها على ساحلِ الدَّجلة. فقال له نوحٌ: «مـاهـذا ياجـبر يـلُ؟»، قال: «فيهـا سِرٌّ، وليس هذا وقتَ إفشـاء السـرِّ». فنبتتِ العصا، وارتفعتْ في الطولِ. فصارَ طولُها أربعين[3] ألف ذراعٍ. ثم / قطعَها جبر يلُ، وحملها إلى ١٩/ب نوحٍ، فعمـلَ السفينـةَ على سَبـعِ طَبَقـاتٍ. ثم قال جبر يـلُ: «تأهَّبْ يا نوحُ للطوفانِ». قال: «فـما علامـةُ ذلـك ياجـبر يـلُ؟». قال: «إذا فارَ التنُّـورُ»[4]. قال: «وكـانَ التنـورُ من الحـديـدِ»، وكان لآدمَ عليه السلام. فوصلَ إلى نوحٍ بالميراثِ[5]. وكانتِ امرأةُ سامٍ وحام ابني نُوح يخبِـزان يومـاً إذ نبـعَ المـاء من النار الذي بالتنور. بقُدرةِ الواحدِ الجبارِ. وكان نوحٌ قائماً يُصلِّي. فقالَ له جبرائيلُ: «اصعدِ السفينةَ. ونادِ للوحوشِ والحيواناتِ: أجيبوا داعيَ الله».

فلما نادَى نوحٌ عليه السلام بلغَ صوتُه المشرقَ والمغربَ بإذنِ الله تعالى، وجَمعهم ربُّ المشرقينِ في أسرع من طَرفةِ عينٍ. وأخذ معه من كلّ زوجينِ اثنينِ.

---

١ ـ الجرجر: الحلق.
٢ ـ في الأصل: العصاة.
٣ ـ في الأصل: أربعون.
٤ ـ من الآية: «حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور..» (الآية: ٤٠/ هود: ١١).
٥ ـ ذكر بعضهم أن التنور كان في الهند، وآخرون أنه في أرض الكوفة (الطبري: ١/ ١٨٦).

وفي كتاب زهرِ الرياض للشَّعبي رحمه الله أن الألواحَ التي[1] دخلتْ في عمارةِ السَّفينةِ كانتْ مئةَ ألفِ لوحٍ وأربعةً وعشرين[2] ألفاً على عددِ الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام. على كل لوحٍ اسمُ نبيٍّ من الأنبياء، منقوشٌ. أملى أسماءهم جبريلُ لنوحٍ. فكتبَ نوحُ الأسماء على الألواح كلِّها. وعازَت[3] أربعةُ ألواحٍ. فأمرَ الله عزَّ وجل جبريلَ أن يُعلمَ نوحاً بذلك، وأمرَهُ أن يكتبَ على الألواحِ الأربعةِ: أبا بكرٍ على أول لوحٍ، واسمَ عمر على اللوحِ الثاني، واسمَ عثمانَ على اللوحِ الثالث، واسمَ عليٍّ على اللوحِ الرابعِ. وأن يجعلَ اللوحَ الذي فيه اسمُ أبي بكر على جانبِ السفينةِ الأيمنِ، واللوحَ الذي فيه اسمُ عمرَ على جانبها الأيسر، والذي فيه اسمُ عثمانَ على مُقدَّمِها، والذي فيه اسمُ عليٍّ على مُؤخَّرها، ففعلَ نوحٌ ذلك.

فلما كملتِ السفينةُ أمرَ الله عزَّ وجل نوحاً عليه السلام أن يَطْليَها بالقارِ / وهو الزِّفتُ، ٢٠/آ ففعلَ ذلك. فلما انقضَى أمرُ السفينةِ أعطى نوحٌ للنجارين أجرتَهم إلا نجاراً واحداً، أرادَ أن يَحملَه معه في السفينة لأجل خَلَلٍ يقعُ فيها، فيحتاج إلى إصلاحه. فقالَ لنوحٍ: «يامجنونُ، أعطِني أجرتي، فإن وُدّاً وسُواعاً[4] ويغوثَ ويعوقَ[5] ونَسراً سَيُنجونَني مما يريدُ إلهُك». فأخذ نوحٌ فضةً من أصحابِ السفينةِ، ودفعها إليهِ وقال لهُ: «سَتعلم أيُّنا المجنونُ إذا حلَّ العذابُ بك غداً». فأوحى الله إليه أنِ: احملْ فيها من كلٍّ زوجينِ اثنين وأهلَكَ. إلا من سبقَ عليه القولُ. فكانَ ممَّن سبقَ عليه القولُ امرأةُ نوحٍ وابنه كِنعانُ[6]، وكانتِ

---

١ ـ في الأصل: الذين، وأتبع قوله بالمذكر، والمقام مؤنث.

٢ ـ في الأصل: وعشرون.

٣ ـ عاز: احتاج إلى. ومعناها في الأصل: احتاج إلى الشيء فلم يجده، ولعله استخدم الفعل استخداماً عامياً.

٤ ـ ود: في دومة الجندل عبدته كلب، وكسره خالد (الأصنام: ١٠ و٥٥). سواع: كان في ينبع سدنته بنو لحيان.

٥ ـ يغوث: على أكمة في اليمن لمذحج. يعوق: في اليمن لخيوان وهمْدان. نسر: لحمير في أرض سبأ عبدوه حتى هوّدهم ذو نواس.

٦ ـ ورد في قاموس الكتاب المقدس أن كنعان هو حفيد نوح وابن حام الرابع، وهو جد القبائل التي قطنت

امرأة نوحٍ كافرةً، وكانتْ تقولُ لابنها: «لاتخفْ، فإنّا نأوي إلى شاهقِ هذا الجبلِ، فَنَنْجو، ولاتركبْ معَ أبيك فإنّه مجنونٌ». ولم تزلْ تلاطفُه بالكلامِ وتحذِّرُه من إطاعةِ أبيهِ، حتى أطاعَها. فجاءها الموجُ فطمَّها، فغرَّقَها وهلكتْ بسوءِ تَدبيرها. فكانت سَبباً في هلاكها وهلاكِ ابنها كِنعانَ.

وهذا ممَّا يناسِبُ ماالتزمناهُ في هذا الكتابِ.

قال: وصعِدَ الحيةُ والذئبُ في السفينةِ، فقال نوحٌ: «إلهي كيفَ تكونُ الحيةُ معَ بني آدمَ، والذئبُ معَ الغنم؟ وهم أعداء بعضِهم لبعضٍ؟». فقال: «الذي ألقى بينهم العداوةَ يجعلُ بينَهم الألفةَ». فقال: «إلهي، قد أَمرْتَني أن أحملَ من كلِّ زَوجين اثنينِ، وقد حملتُ معي ماقدِرتُ عليه، فكيفَ لي بالوحوشِ والسباع والطَّير؟». فقالَ: «أنا أحشرُهم إليك». فبعثَ الله جبرائيلَ، فحشرهم فجعلَ يضربُ بيدهِ على الزوجين، فتقعُ اليُمنى على الذَّكر، واليُسرى على الأنثى، فأدخلَهم السفينةَ. فلما أدخلَ فيها ماأمرَ الله به خافتِ السباعُ والبهائمُ والوحوشُ من الهلاك. فجعلوا يَلحسونَ أقدامَ نوح، ويقولونَ: احملْنا / معكَ يانبيَّ الله. فقالَ: «إنما أُمرتُ أن أحملَ فيها من كلِّ زوجين اثنين»[1]. قيلَ: إنَّ نوحاً ٢٠/ب جعلَ السفينةَ ثلاثَ طبقاتٍ، وجعلَ على كلِّ طبقةٍ باباً مُغلقاً مُطبقاً. فجعلَ منها طبقةً للسباع والدوابِّ، وجعلَ الوحوشَ والطيورَ في الطبقة الثانية وأطبقَ عليها. وجعلَ الذريةَ في البابِ الأعلى لضَعْفها، لايَطؤها الدوابُّ.

وألقى الله تعالى على الأسدِ الحُمَّى، فشغَلَه بنفسهِ عن الدوابِّ، فكان آخرَ من دخلَ معه الحمارُ، فتعلَّقَ إبليسُ لعنه الله بذنبهِ. وقد دخلَ في السفينةِ، فجعلَ الحمارُ

أراضي غربي الأردن المسماة كنعان (ص: ٧٨٩). ويذكر ابن كثير أن كنعان هو يام (قصص الأنبياء: ٨٠). وفي الكامل أن ابن نوح الكافر هو يام، وهو الذي نزل في القرآن على لسان نوح: «يا بُني اركب معنا ولا تكن من الكافرين»، ويقال إن اسمه كنعان (الكامل: ١/ ٧٢).

١ ـ يذكر ابن كثير أن في كتب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج وما لا يؤكل زوجين؛ ذكراً وأنثى (قصص الأنبياء: ٧٩). وفي قاموس الكتاب المقدس (٩٨٢) أنه حمل زوجاً من كل نوع من البهائم النجسة ومن الطيور، وسبعة أزواج من البهائم والطيور الطاهرة.

يضطـربُ، ولايَستطيـعُ أن يدخـلَ في السفينـةِ. فقـال له نوحٌ: «ادخـلْ وَيْلك». فجعـلَ يضطربُ، ولايستطيعُ أن يدخلَ. قال نوحٌ: «ادخلْ، ولو كان الشيطانُ مَعك»[1]. فدخلَ الحـمارُ، ودخـلَ معـه إبليسُ لعنَه الله. قال نوحٌ: «ياعدوَّ الله مَن أدخلك السفينةَ؟». قال: «أنتَ قلتَ للحـمارِ: ادخـلْ ولـو كانَ الشيطـانُ معَك». فقيلَ: إن هذا سببٌ إذا رأى الحمارُ الشيطانَ نهقَ.

وجـاء عوجٌ فقـال: «يـانـوحُ احمِلْني معك». فقال: «اخرجْ ياعدوَّ الله، فإني لم أؤمَرْ بحملك». فأولُ ماحملَ معه في السفينةِ الإوزُّ، وآخرُ ماحملَ الحمارُ. وقال زيدُ بن ثابت: «إنَّ المعـزَ استعصَتْ على نوحٍ أن تدخـلَ معـه السفينـةَ، فرفَعهـا بذَنبهـا. فمن ذلـك انكسـرَ ذنبُهـا، وصـارَ معقـوفـاً، وبَدا حياؤ ها. وأما النعجةُ فذهبتْ حتى دخلتِ السفينةَ. فمسحَ نوحٌ على ذنبها، فسترَ حياءَها.

ثم زاد المـاء وارتفـعَ حتى بلغَ رؤ وسَ الجبـال، ولم تتحـرَّكِ السفينةُ من مكانِها، وذكرَ مُقـاتـلٌ أن علوَّ السفينـةِ كان ألفَ ذراعٍ. فغطى الماء منها ثمانِ مئةِ ذراعٍ[2]. فقالَ جبريلُ: «يـانـوحُ، سَيِّرْهـا بالأسماء لا بالماء». / قال: «ماذا أقولُ؟». قال: قُل: «باسم الله مَجراها ومُرساها، إنَّ ربي لغفورٌ رحيم»[3]. وكان الطوفانُ يومَ الأربعاء، الثاني عشرَ من شهرِ رجب الفَرْد. واستقرَّتْ يومَ الجمعة عاشرَ المحرم. ٢١/آ

وروى أبو العباس المَرْوزيُّ: أنها طافَتْ من المشرق إلى المغرب، ومن المغربِ إلى المشـرق ثلاثَ مئـةِ مرةٍ، لايعـرفُ الليـلُ من النهـار إلا بجـوهرةٍ جاء بها جبريلُ من الجنة. فكـانتْ تُضيء مثـلَ الشمسِ والقمـر. وقيـلَ: كان من مع نوح خَرزَتانِ مُضيئتان؛ واحدةٌ

---

١ ـ يرى ابن كثير أن قوله هذا «كلمة زلت على لسان نوح».

٢ ـ يخفف ابن كثير من حجم السفينة فيرى ان ارتفاعها ثلاثون ذراعاً؛ كل طبقة عشرة أذرع. ويوافق ابن الأثير على الارتفاع عند ابن كثير(ص: ٧٨) ويجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً (الكامل: ١/ ٦٩).

٣ ـ الآية: ٤١/ هود: ١١.

تضيء مكانَ الشمس، وواحدةٌ مكانَ القمر. فكان يعرف بهما[1] مواقيت الصلاة، فإذا أَمسوا غلبَ سواد هذه بياضَ الأخرى. وإذا أَصبحوا غلبَ بياضُ هذه سوادَ الأخرى، على قدر الساعات. ثم إنَّ نوحاً نادى ابنَه، فقال: «يابنيَّ، اركبْ معنا ولاتكنْ مع الكافرين». وكان ابنُه كافراً، ولم يعلم نوحٌ بكفرِه. وقيل: إنه اتَّخذ بيتاً من زجاج، وتحصن فيه من الماء. فلما فار التنور دخل البيتَ الزجاجَ، ووقفَ في جَوف البيت. فلم يزل يبولُ ويتغوَّطُ حتى غرقَ فيه!.

ورُوي أنَّ نوحاً لما فرغ من عمارَة السفينة أنطقَ الله تعالى السفينةَ بنطقٍ فصيحٍ، والناسُ يسمعون، فقالت: «لا إلهَ إلا الله، إلهُ الأوَّلين والآخرين، أنا السفينةُ التي من رَكبني نَجا، ومن تخلَّف عني هلك». وسارت السفينةُ حتى بلغتْ بيتَ المقدس، فقالت لنوحٍ: «هذا البيتُ تسكنُه الأنبياء من وَلدك يانبيَّ الله». ثم سارتْ إلى البيت الحرام، فطافت به أسبوعاً، ونطقتْ بالتَّلبية، ونوحٌ ومن معه في السفينة، ثم مرت فكانت لاتقفُ في موضعٍ أو يوقفُ إلا وتناديه: «يانبيُّ، هذا موضعُ كذا وكذا..» حتى طافت /بنوحٍ المشرقَ ٢١/ب والمغربَ. ثم كرتْ راجعةً إلى ديارقومِ نوحٍ، فوقفتْ وقالت: «يانبيَّ الله، ألا تسمعُ صَلصلةَ السلاسلِ في أعناقِ قومك، وهم يُسجرون في النار؟».[2]

وقيل إن كنعانَ كان ابنَ امرأةِ نوحٍ، ولم يكن الغرقُ عقوبةً للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم. وقيل لما كثر الماء في السكك، حنَّت أمُّ صبي عليه، وكانت تحبُّه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغتْ ثلثَه، ثم إلى ثلثيهِ. فلما بَلغها الماء استوتْ على الجبل. فلما بلغَها الماء إلى رَقبتها رَفعت يدَيْها فعلاها الماء، فجعلت ولدَها تحتَ رجليها[3]. فلو رحمَ أحداً منهم لرحمَ أمَّ الصبي.

---

١ ـ في الأصل: بها.

٢ ـ من الآية: «.. ثم في النار يسجرون» الآية: ٧٢/ غافر: ٤٠. سجر الكلبَ: شده بالساجور، وهو خشبة تعلق في عنق الكلب.

٣ ـ نرى أن صواب الجملة ما ذكره الطبري (١/ ١٨٠): «فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب به الماء». إذ لا يعقل أن تضع الأم ولدها تحت رجليها.

وقـال ابن عسـاكـر في تاريخه عن الحسن البصريِّ: إن نوحاً أولُ مُرسل بعثَه الله إلى الأرض. وكـانتِ المعـاصي كثرتْ فيهم، وعَتَوا عُتُوَّاً كبيراً، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهاراً، سِراً وجهراً. وكان صبوراً حليماً. ولم يلقَ[1] أحدٌ من الأنبياء أشدَّ مما لقيَ نوح مِن قومِهِ، وكـان[2] قومُـه يدخلون عليـهِ، فيضربونه حتى يُشرفَ على الموت، ويضربونهُ في المجالس، ويطـردونـهُ. وكـان لا يدعـو[3] عليهم، ويصبرُ على أذاهم، ومـع هذا كان يدعـوهم إلى ماينفعُهم، ويدعو لهم فيقول: «اللهمَّ اغفرْ لقومي». ولايزدادون مع ذلك إلا فراراً. حتى إنه كان إذا كلَّم الرجلَ منهم، يلفُّ الرجلُ منهم رأسهُ في ثوبه، ويجعلُ إصبعَه في أُذنيه حتى لايسمـعَ من كلامـه شيئـاً، وكـانـوا يضربونه حتى يُغشى عليه. فإذا أفاقَ قال: «ربِّ اغفرْ لقومي، فإنهم لايَعلمون».

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «إن نوحاً كان يُضربُ، ثم يُرمى في بيته، يرون أنه قد ماتَ، ثم يخرجُ إليهم، فيدعُوهم إلى التَّوحيد. وكان أحدُهم يجيء به، ومعه ابنُه وهو / يتوكَّأ على عصاه، فيقول لابنهِ: «يابنيَّ، انظرْ إلى هذا الشيخ، لايغرَّنْك». فيقولُ: «ياأبتِ مكنِّي من العصـا». فيعطيـه العصـا فيقـول: «ياأبتِ، ضعني على الأرض». فيضعُه على الأرض، فيمشي بالعصـا، فيضـربُـه على وجهـه أو على رأسِـه حتى يسيلَ دمُه، فيقول: «ياربِّ، إن كان ذلك من عبادك خيرٌ[4] فاهدِهم، وإن كان غيرَ ذلك فصبِّرْني حتى لايبقى في أصلابِ الرجال نطفةٌ، ولا في بطون النساء حملُ مُؤمن». فعند ذلك أُوحى الله إليه «أنِ اصنعِ الفُلْك بأعيننا». فصنعَ نوحٌ السفينةَ كما ذكرنا فيما تقدم. فقال الله تعالى عند ذلك «ففتحْنـا أبـوابَ السـماء بماء منهمرٍ، وفجرنا الأرضَ عيوناً. فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِر. وحملناهُ على ذاتِ ألواحٍ ودُسرْ».[5]

٢٢/آ

---

١ ـ في الأصل: يلقى.

٢ ـ في الأصل: وكانت.

٣ ـ في الأصل: يدع.

٤ ـ نفضِّل: خيراً.

٥ ـ الآيات: ١١و١٢و١٣/ القمر: ٥٤.

فإنه سبحانَه وتعالى أخبر عن قوم نوح أنهم كذَّبوه. فقال الله تعالى: «كذَّبت قبلَهم قومُ نوح»[1] أي كذَّبوا رسولَهم نوحاً، كما قال تعالى: «فكذَّبوا عبدَنا، وقالوا: مجنون - أي هو مجنون - وازْدُجر»[2]، أي زجروهُ عن تبليغ النبوةِ بالشتم والتهديد، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى بقوله تعالى: «لئن لم تنتهِ يانوحُ لتكونن من المرجومين»[3]. ثم قال تعالى: «فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصر»[4]، أي فانتقمْ لي منهم.

وعن عاصم في رواية: «إني مغلوب» بكسر الألف، أي دَعا فقال: «إني». والفتحُ لوقوع الدعاء عليه. فقال تعالى: «ففتحنا أبوابَ السماء بماء منهمر» أي فأَجبناهُ وأَمرناهُ باتِّخاذ السفينة. ثم لما بلغ الكتاب أجله فُتحت أبواب السماء فوقهم بماء منهمر، أي كثيرٍ، مصبُّه خارجاً عن المعتاد. وقيل: هو الكثيرُ السريع الانصباب. ثم قال: «وفجرنا الأرض عيوناً» أي سيَّلنا عيونَ الأرض تحتَهم. فالتقى الماء أي اجتمعَ ماء السماء وماء الأرض على أمرٍ قد قُدر، / أي قدَّره الله تعالى، وعلم مقدارَه ومبلغَه. وقدّره في أمِّ الكتاب، وهو اللوحُ المحفوظ، أي قدَّرنا هلاكَ القوم به. فلم يزد على ماسبق علمه به، ولم يَنقص عنه. ٢٢/ب

وقيل: أي التقى الماءان[5] على قدرٍ واحد، فكان ماء السماء بقدرٍ وماء الأرض، لايزيد أحدُهما على الآخر «وحملناهُ» أي حملنا نوحاً «على ذاتِ ألواحٍ» أي على السفينةِ ذاتِ صفائح من الخشب الذي تُؤلف منه السفينةُ، و«دُسر» جمعُ دِسار وهو المسمار. قاله قُطْربٌ. وأما الخليلُ بنُ أحمدَ فإنه قال: «إنه خيطٌ من ليفٍ تُشدُّ به ألواحُ السفينة». وقالَ الفرَّاء: «الدُّسُر: مساميرُ السفينة». وقال مجاهدٌ: «الدُّسر: أضلاعُ السفينة». وقال الضحاكُ: «طَرفاها وأصلها». وقال نِفْطويهِ: «الدُّسر: السفينةُ بعينها، تَدسرُ الماء بصدرِها أي تدفعُه».

«تجري بأعيننا» أي تمرُّ بمرأى مِنَّا، أي نحن نَراها ونَحفظها. «جزاء لمن كان كفَر» أي

---

١ - الآية: ١٢/ ص: ٣٨.
٢ - الآية: ٩/ القمر: ٥٤.
٣ - الآية: ١١٦/ الشعراء: ٢٦.
٤ - الآية: ١٠ / القمر: ٥٤.
٥ - في الأصل: الماءين.

جزاء لنوحٍ بصبرهِ على أذى قومهِ وكُفرهم به وتركهم الشكرُ له على دُعائه إياهم إلى مافيهِ نجـاتُهم. «ولقـد تركنـاهـا آيـةً» أي تركْنا السفينةَ علامةً على قُدرةِ الله ولطفهِ بأهل ولايتهِ. وقيـل: أي تركنـا هذهِ الفعلة آيـة للعـالمـين، يَعتبر بها كلُّ من بلغَه هذا الخبرُ. وقال قتادةُ: أبقى الله سفينةَ نوح على الجوديِّ حتى أدركَها أوائلُ هذه الأمة. وأما ماذكرناهُ من أمرِ عوجٍ حين جاء إلى نوح وهـو في السفينـة وقـالَ لهُ: «احملْني مَعـك في السفينـة» فقال له: «اخرجْ ياعـدوَّ الله، فإني لم أؤ مـرْ بحملك». فلما فتـح الله أبـوابَ السـماء بماء منهمـر وفجر الأرض عيوناً، وأقام الأمرَ على ذلك أربعين يوماً، والماء ينزل من السماء، وينبعُ من الأرض. والماء ينهمرُ من السماء/من كلِّ مكان. وصارتِ الأرضُ كلُّها عيوناً، وارتفعَ على رؤ وس الجبال، ٢٣/آ ولم يبلغ ركبتَي عَوج.

وقيل إن عَوج لم يهلك بالطوفان. لأنه أعانَ نوحاً على حمل خشبِ السفينة؛ فإنه نَجا منه مجازاةً له بذلك. وفي إمهالِه أيضاً فائدةٌ، وذلك ليخبرَ الآخرين بماشاهده من الطوفان، ليعتبروا بذلك؛ فإن عوجـاً عاشَ بعد الطوفان ألفاً وثلاثَ مئة سنة، حتى قتله مُوسى عليه السلام. وكان هلاكُه على يدِ موسى، وقصته مشهورة.

وكـان مع نوحٍ في السفينـة ثمانـون نَفساً[1]، وقيل: تسعةٌ وسبعون، وقيل غير ذلك. منهم سام وحـام ويـافث، ونسـاؤ هم ثلاث، وغـيرُهم. فجميعُ ماحصلَ لحام بن نوح من المَقْت والـدُّعـاء عليـه من أبيـهِ نوح عليـه السـلام بسببِ امـرأتـه، ومُراوَدَتِها له في وَطئها في السفينـة، ومطـاوعتهِ لها، ومخالفتهِ لوصيةِ أبيه نوح عليه السلام. فكانتْ هي السببَ لذلك كلِّه، أعاذَنا الله وإياكم من كيدِهنَّ «إن كيدهنَّ عظيم».

---

١ ـ ياقوت: ثمانين: بليدة عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر التغلبي فوق الموصل. كان أول من نزلها نوح لما خرج من السفينة ومعه ثمانون إنسـانـاً، فأقـاموا فيها فسمي المكان بهم. ثم أصابهم وباء، فمات الثمانون غير نوح وولده، فهو أبو البشر كلهم.

قصة صالح

ومن هذا القَبيـل المـرأتـانِ اللتانِ كانَتا سبباً لعَقرِ ناقةِ صالح[1]؛ نبيِّ الله ورسولِهِ على نبينـا وعليـهِ أفضـلُ الصـلاة والسـلام، حتى حلَّ بقومهِ من العذاب والهلاك ما حلَّ بسببِ ذلك.

والقصةُ في ذلك على سبيل الاختصار ما رُويَ أن الله عزَّ وجل أرسلَ نبيَّه صالحاً عليه السلامُ إلى قومهِ، وأمره أن يدعُوَهُم إلى التوحيد. فكان يبالغُ لهم في ذلك، ويدخلُ عليهم في بيوتهم، ويقومُ عليهم في مجالسِهم، ويقعدُ لهم على طوارقِ الطُّرق، ويقصدُ جماعاتِهم، ويهجمُ عليهم في عيـدِهم، فلا يزدادون إلا طُغيـانـاً وكُفـراً، فقـالوا له: «أرِنا آيةً تدلُّ على صِدقك». فقال لهم: /«إنْ أرأيتكم آيةً ولم تُؤمنوا أنزلَ الله بكم العذابَ». وكان لهم عيدٌ ٢٣/ب يجتمعـون فيـه بأصنـامِهم. فقـالـوا: «أتخرجُ مَعنا إلى العيد، وتَدعو؟». فقال لهم: «فإنِ استجيبَ لي في دُعائي تتركونَ عبادةَ أصنامكم؟». قالوا: «نَعم». فخرج القومُ إلى عيدِهم بأصنـامِهم، وخـرجَ معهم[2] صالـحٌ. فاجتمعـوا أن يتمنَّوا عليه تَمنيةً، وهم يرون أنهُ يعجزُ عنهـا ربُّـه، ولا يجيب فيهـا. فقـالوا له: «إنَّ آيةً بيننا وبينَك أن تدعُوَ ربَّك يُخرجُ لنا من هذه الصخرةِ ناقةً من الإبل غرَّاء سَوداء، ذاتَ عُرفٍ وناصيةٍ، وشعرٍ ووبرٍ، عُشَراء[3]، متوَّجةً. فإن فعلتَ ذلك آمنَّا بك وصدَّقناكَ واتَّبعناك. وإن عجزتَ عن ذلك فاكففْ عنا قَولك، فإنا

---

١ ـ ونسبـه كما عنـد ابن كثـير: صالـح بن عبيـد بن آسِف بن ماشـج بن عبيـد بن جادر بن ثمـود (قصص القرآن: ١١٢).

٢ ـ في الأصل: معه.

٣ ـ ناقة عُشراء: الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية، أو هي كالنُّفَساء من النساء.

نكرهُ أذاكَ لنا وشَتْمك آلهَتَنا، وكنتَ مرجوًّاً قبل ذلك، وأنتَ في فنائنا وعزِّنا وحَسَبنا».

فلما سمعَ قولَهم ضاقَ صدرُه وخافَ أن لا يكونَ ذلك. وعظَّم الله تعالى وأجلَّه أن يسألَه عن ذلك أو يتمنَّى عليه مِثلما قال القومُ الذين لا يؤمنون بقدرتهِ. فلم يَبرحوا من مجلسهم الذي سألوا فيه ذلك، حتى تَزلزلتِ الصخرةُ، فنظروا إليها وهي تتمخَّضُ وتضجرُ كما تفعلُ الأنثى في توجُّعها في الولادة. فلم يَلبثوا حتى انْفرجت عن أمانِيهم التي سألوا عنها. لم يترك من قولهم قليلاً ولا كثيراً. فخرجتْ من الصخرة سوداء ذاتُ شعرٍ ووبر، وعُرف، عشراء، سَعةُ ما بينَ جَنبيها مئةٌ وعشرون[1] ذراعاً، ثم أقبلتْ تمشي حتى توسَّطتْهم، ثم بركتْ للنِّتاج، فلم تلبثْ حتى وضعتْ منها شيئاً قريباً منها في العِظَم. ثم انبعثتْ تطلبُهم للكلأ، فشاركتْهم في الماء والشجرِ، ورعَتْ في السهلِ والجبل، ورعتْ في الشتاء والصَّيف.

وكانت تردُ الماء عبًّا؛ تستوعبُ الماء في ورُودِها، وتسلُك / الفجَّ واردةً، فيسَعُها، ثم ترجعُ فيهِ صادرةً، وقد تملأت من الماء، فيضيقُ الفجُّ عليها. ثم تردُ وتصدرُ، وأحلامُها تشخَبُ[2] لبناً، فتتلقَّى بالمحاليب والأواني والأسقية، فتضرعُ لهم من اللبن مثلما شَربتْ من الماء، وارتفع الماء منه، فتشرعُ فيه وهو ممتلىء مُفيضٌ[3]، فلا تزال تشربُه، وتُدلي فيه رأسَها وعنقَها حتى يغيبَ فتستوعبُه جميعَه. وكان عمقُ الجبِّ عشرين[4] ذراعاً. وكان الجُبُّ مقسوماً بينهم؛ لهم يومٌ ولها ـ أي الناقة ـ يومٌ. وكانوا يشربون يومَ الناقة من رؤوسِ الجبالِ والمغارات، فشقَّ عليهم ذلك. ولو أنهم صبروا لفجَّرَ الله لهم الأنهارَ والعيون.

1/24آ

وكان للناقةِ[5] السهلُ، فتهربُ المواشي منها إلى الجبل، فأضرَّ بهم ذلك، وأضرَّ بمواشيهم للبلاء الذي كتبَه الله عليهم.

---

١ ـ في الأصل: عشرين.
٢ ـ شخب اللبنَ: حلبه وشخب اللبنُ: سال.
٣ ـ يفضل أن يقول: ممتلىء فَيض أي كثير ـ أو يقول: مُفاض.
٤ ـ في الأصل: عشرون.
٥ ـ في الأصل: الناقة.

وفي روايةٍ أخرى ذكرها صاحبُ الكتابِ المعروف «بالنُّطق المفهوم من أهل الصمتِ المعلوم»[1] أنَّ قومَ صالح قالوا: «نريدُ منك أن تُخرجَ لنا ناقةً من هذه الصخرةِ - وكانت صخرةً بيضاء - حتى نؤمنَ بك، ونعلمَ أنكَ صادقٌ». فقال لهم صالحُ: «إنَّ ذلك هينٌ على ربي، ولكنْ صِفُوها لي». فقالَ الملكُ لقومِهِ: «مَن الذي يصفُ هذه الناقةَ؟». فقال داودُ بن عمرَ خادمُ الأصنام: «إئذنْ لي في وَصفها لهُ أيُّها الملك». قال: «قد أذنتُ لك، فافعلْ ما بدا لك». فأقبلَ داودُ على نبيِّ الله صالحٍ وقال له: «يا صالحُ، إن كنتَ نبياً فأَخرج لنا ناقةً» وذكر وصفَها، وقصَّر في وصفها. فوثبَ إليه رجلٌ اسمُه بحرُ بن الشَّكيمة وقال: «أيُّها الملك، إئذن لي في وصفها، فإنَّ داودَ قد قصَّر في وصفها». فقال: «قد أذنتُ لك في وصفها». فقال: «يا صالحُ، إن كنتَ نبياً فأَخرجْ لنا ناقةً» وذكر وصفَها وقصَّر في وصفها. فوثبَ إليه آخرُ اسمُه لبيدُ بن حَواس، فقال: «أيُّها الملك، إئذن لي في وصفها، فإنَّ هذين[2] قد قصَّرا في وصفها». قال: /«صفْها لي». فقال: «يا صالحُ إن كنت نبياً فأَخرج لنا ناقةً من هذه الصخرة» وذكر وصفها. ٢٤/ب

فلما كثر ذلك أعرضَ الملكُ عنهم، وأقبلَ على صالح عليه السلام وقال: «إن هؤلاء أكثروا عليك وصفَهم، غير أني أصفها لك بما في قلبي، وهي أن تكونَ ناقةً ذاتَ فَرثٍ[3] ودمٍ ولحم وعظم وعصبٍ وعروق وجلد وشَعر يخالطُه وبرٌ، ولتكن[4] مع ذلك شكلاء شَولاء دَغصاء دَلصاء هَلباء كَوساء[5] شقراء غراء هوجاء جَوفاء مِنهاجةً مهراجة[6] مدراجة مُوثقة

---

١ - كتاب النطق المفهوم لابن الجوزي. يقول حاجي خليفة (١/ ١٩٥٩): وهو من أغرب مصنفاته.

٢ - في الأصل: هذان.

٣ - الفرث: هو السرجين ما دام في الكرش.

٤ - في الأصل: ولتكون.

٥ - الشكلاء: ما كان بياضها يضرب إلى حمرة. الناقة الشائل: التي تشول بذنبها للقاح ولا لبن لها أصلاً. دغصت الإبل: إذا امتلأت من الكلأ حتى منعها ذلك أن تجتر. حجر دلاص: شد الملوسة. الهلباء: الكثيرة الشعر أو التي لا شعر عليها (ضد). الكوساء: ذات السير البطيء، كوَّس في السير: أبطأ. الهوجاء: الناقة المسرعة كأن بها طيشاً.

٦ - أنهج الدابة: سار عليها حتى انبهرت . المهراجة: الكثيرة الجري.

مُعتقـة لها ضرعٌ كأكـبر القِـلال[1]، تدرُّ، من غيرِ أن تُستـدرَّ، لها لبناً غزيراً صافياً، ولتكنْ مع ذلك لها تَبيعٌ يَتبعها على صِفتها. فإذا رغَتِ الناقةُ أجابَها فَصيلُها مثلَ رُغائها وحَنينها. وليكن حنينُهـا الإخـلاصَ لربـك بالعبودية والتوحيد والإقرار لك بالنبوة. فإن أخرجْتَها على هذه الصفة آمناً بِك وصدَّقناك».

قال: فأوحى الله تعـالى إليـه أنْ «أعـطِ القومَ ما طَلبوا وما سألوك. ولو أني أحببتُ أن يكـونَ ذلـك من دعـائـك لأخـرجتُهـا أسـرعَ من طَرفـة عينٍ، ليعلمـوا أني على كلِّ شيء قديـر». قال: فأقبـلَ صالـحُ على قومـهِ وقال: «إنَّ الله تعالى وعدَني إلى حاجتي، ويخرجُ لكم الناقة وتَبيعَهـا على ما تقـولـون، فإن أخرجَها لكم أفتؤ منونَ به؟». قالوا: «بشرطِ أن يكونَ لبنُها ألـذَّ من الـزُّبـد وأحلى من العسل». فقال صالح عليه السلام: «إن أخرجَها لكم كذلك، أفتؤ منون به؟»، قالوا: «بشرط أن يكونَ لبنُها في الصَّيف بارداً وفي الشتاء حاراً، لا يشربُه مريضٌ إلا برىء من مرضه، ولا فقـيرٌ إلا استغنَى». فقـال صالـح: «إنْ أخـرجهـا لكم، أفتؤ منون به؟» قالوا: «بشرط أن لا تَرعى في مَراعينا، ولتكن تَرعى في رؤ وس الجبال وبطونِ الأوديـة، وتـذَرُ ما على وجـه الأرض لمواشينـا». قال صالح: «إن أخرجها لكم، أفتؤ منون به؟». قالـوا: «بشـرط أن يكـونَ المـاء لها يومٌ ولنـا يومٌ، ولا يفوتُنا اللبنُ». /قال صالح: «إن أخرجها لكم، أفتؤ منون به؟». قالوا: «نعم، بشرط أن تدخل بالعشيات في بيوتنا، وتسمي كلَّ واحدٍ باسمهِ، وتُنادي: ألا من أراد اللبنَ فليخرجْ. فنحلبُ مانريدهُ تحت ضَرعها، يمتلىء الإناء لبناً من غير احتلاب منا». ٢٥/آ

فقـال صالـح: «قـد شرطتم عليَّ شرائطَ كثيرةً، وإني أيضاً أشرطُ عليكم، ألا يركبَها أحدٌ منكم، ولا يَرميَها بحجرٍ ولا سهمٍ، ولا يمنعَها من شربها، ولا من فَصيلها من ذلك». فقـالـوا: «لـك هذا كلُّه يا صالـح». قال: فأخـذ صالـح عليهم العهـودَ والمواثيقَ على هذا جميعـه، ثم قام صالـح عليه السلام، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم رفع يديه إلى السماء. فلم تزل أقـدامُ القـوم من مَواضعها حتى اضطربتِ الصخرةُ، وتمخَّضت، وتفجَّرت من أصلها بماء مَعـين، حتى امتلأ الـوادي، والقـومُ ينظـرون إلى ذلـك. فتقدمَ صالحُ إلى الصخرة، ووضع يدَه عليها، فاضطربتْ وجعلتْ تئنُّ كما تئنُّ المرأةُ الحاملُ عند الولادة. والناقةُ تدورُ

---

١ ـ القُلَّة: الجرة العظيمة.

في جوانب الصخـرةِ كالـولـدِ في بطن أمِّـه. ثم خرجَ رأسُ النـاقة أولاً كما وَصف الملكُ حتى تكاملتِ الناقةُ بقدرة الله تعالى، وخرجت جميعُها، وهُم ينظرون.

فكـانتِ النـاقـةُ تستـوفي السهلَ، فترعى ما فيهِ من الكلأ، فتهربُ المواشي منها إلى جبلٍ فأضَّر بهم ذلك، وأضرَّ بمواشيهم للبلاء الذي كتَبه الله عليهم.

وكـان في قومِ صالـح امـرأتـان مَوْسومتانِ بالجمال الفائق، غَنيَّتان. لهما مالٌ كثيرٌ من الشياهِ والبقر والغنم. وكانت إحداهما يقال لها «صَدوق»[1]، والأخرى يقال لها «عُنَيترة»[2]. وكـان لهما خَدامـان من قومِهـما، يألفانِها، ويتحدثان معهما. وكان أحدُهما يقال له «قدارُ بن سالفٍ»، والآخر يقال له «مَصدع»[3]. وكان قدارٌ رجلاً[4] أحمرَ أمعَر[5] أشقر أزرقَ العينين، كوسجـاً قصـيراً وكـان خِدناً[6] صدوقاً. وكان «مَصدعُ» عزيزاً / مَنيعاً في قومه، وكان نحيفاً طويلاً. وكان أهرجَ[7] مُضطرباً[8]، وكان خدنَ عُنيترةَ. وكانت هاتان المرأتان[9] أشدَّ عداوةً لنبيِّ الله صالـح وأعظمَهم كفـراً لما جاء به عن الله تعـالى. وكـانتـا تُحرِّضـان قومَهـما على عقـر الناقة لما أضـرَّت مواشِيَهم، وهـروبَهم منهـا إلى الجبـال. فزارَهما خِدنـاهُما يوماً من الأيام. فقالت صَدوقُ: «لـو كان لنـا مزاجٌ لأسقينـاكـما خمراً، ولكن هذا يومُ ورودِ الناقة، فلا سبيلَ لنا». وقالت عُنيترةُ: «والله إنَّ لنا إلى الماء سَبيلاً واسعاً لو كانت رجالنا رجالاً، وهل هذه الناقةُ إلا ناقـةٌ من الإبـل تُطـردُ ويُضـرب وجهُهـا عنـا كما تضـربُ الإبلُ وتُطرد؟ ولكن لا رجالَ لنا في

٢٥/ب

---

١ ـ هي صدوق بنة المحيا بن زهير بن المختار، وابن عمها «مصرع» (قصص الأنبياء: ١١٩).

٢ ـ كذا في الأصل وفي قصص القرآن: عنيزة بنة غنيم بن مجلز. ويروي ابن كثير أنها عرضت على قدار بناتها يختار من يشاء إن هو عقر الناقة. ولدى ابن الأثير (الكامل: ١/ ٩١) أنهما قطامِ وقبالِ. والاثنتان من ثمود.

٣ ـ كذا في الأصل، وفي رواية ابن كثير: مصرع.

٤ ـ في الأصل: رجل.

٥ ـ الأمعر: القليل الشعر. الكوسج: الذي لحيته على ذقنه لا على العارضين أو الناقص العقل.

٦ ـ في الأصل: خدن. والخدن: الحبيب والصاحب، للمذكر والمؤنث.

٧ ـ هرج الرجلُ: أخذه البُهر من حر أو مشي، والهِرج: الأحمق.

٨ ـ في الأصل: مضطرب.

٩ ـ في الأصل: وكانتا هاتين المرأتين.

الـوادي». فقـال لها قدارُ: «فـماذا عليـكِ يا صدوقُ إن أنا فعلتُ ما قالتْ عنيترةُ، فكفيتُكِ النـاقـةَ اليـومَ وشـربَهـا، وخـلا لك الشـربُ فوردتْ مواشيـكِ ورَويتْ، وأَصَبتِ من المـاء حاجَتَـك؟». فقـالت: «لـكَ إذاً نفسي، وما طلبتَ مني». وسفرتْ عن وجهها، فإذا هي أحسنُ الناس جمالاً».

فلما سمـعَ مصـدعُ قولهـا طمعَ في صاحبتهِ فقال: «ومالي عليكِ يا عُنيترةُ إن شاركتُ قدارَ في ما قال، فشاركتِ صاحبَتَكِ في الماء؟». فقالت: «إذاً نفسي». وسفرتْ عن وجهها وقـالت: «اختـرْ ما شئتَ منـا» فإذا هيَ بها من الحُسن ما لا يعلمُـه إلا الله تعالى. (فقالا: «خُـذانـا إن كنتـما)[1] تُريـدان ذلك، فاملآ علينا الخمرَ». قال: فأملآ عليهما الخمرَ من غير مزاج، حتى سكرا خرجا إلى أصحابٍ لهما من سُفهاء القوم، فاستعانا بهم على عقرِ الناقة، فأجابوهما[2] وهم سَبعةٌ، فصاروا بهما تسعةَ رهطٍ، وهم: قدارُ بن سالف، ومَصدعُ بنُ مَهجر / والهزيلُ بن عتر وك، وعُميرُ بن عميم، وعُفير بن كردم، وعاصم بن مَخرمة، وسُليط ابن صَرفة، ونشيطُ بن ثَقيف. ٢٦/آ

ثم انطلقـوا إليهـا ومعهم السهـامُ والسيـوفُ حتى قعدوا للناقةِ على بابِ الفجِّ الذي يخرجُ منـه المـاء. فلما وردتْ عليهم حملوا عليهـا ليضـربـوهـا بسيـوفهم، فاشتدَّتْ عليهم. فانهزموا، فركنَ لها قدارُ من خلفها، فتعاطى فعقرَ عُرقوبَها الأيمنَ بالسيف. وضربَ مصدعُ سهـماً للعـرقـوب الآخر، فخرَّتِ الناقةُ إلى الأرض. فأسرع قدارُ إليها بالسيف، فنحرَها، فلما رأى الفصيـلُ ما فُعـلَ بها ولَّى هاربـاً منهم، حتى صدع الجبـلَ، ثم رَغـا رُغـاء عظيماً، فقطعَتْ منه قلوبُ القوم.

فلما سمع الناسُ ذلك، أي عقْرَها، تَبادروا إليها، فانتشلوا لحمَها. وصالحُ [بعيدٌ][3] عنهم في ديار قومِهِ، ولا علمَ له بها. حتى بلغَه الخبرُ فقيلَ له: «هل علمتَ أن ناقةَ ربِّك قد عُقـرت وتقسَّمت وغَلى لحمُهـا في المـراجـل؟». فخـرج نحـوَها سريعاً في عُصبةٍ من قومهِ.

---

١ ـ وفي الأصل: خذنا إن كنتا.

٢ ـ في الأصل: فأجابوهم.

٣ ـ بياض قدر كلمة في الأصل، ولعلها كما ذكرنا.

فوجدها كذلك، فأوعدهم العذابَ، فشتمُوه. وتغامقَ الشرُّ بينَهم، ونشأتِ العداوةُ الكبرى. فقال صالح لمن معَه: «التمسوا الفصيلَ، فإن أنتم وجدتموهُ وإلا فاعْلموا أن العذابَ نازلٌ عليكم». فانطلقوا يطلبون الفصيلَ في الجبل، فلما أرادوا أن يصعدُوا إلى الجبل ازدادَ الجبلُ طولاً في السماء. فلم يقدروا عليه. فلما رأوا ذلك أيقنوا بالعذاب، وأنه حالٌّ بهم. فقال لهم صالح عليه السلام: «تمتَّعوا في داركم ثلاثةَ أيام، وذلك مساء يوم الأربعاء». قال: «وآيةُ ذلك أن تُصبحوا غداً ووجوهُكم مصفرَّةٌ، وبعدَ غدٍ محمرَّةٌ، وفي اليوم الثالث مسودَّةٌ. ثم ينزل بكم العذابُ».

٢٦/ ب

فلما قال لهم ذلك تآمَّروا في قتله، فانتبذَ أصحابُ الناقة الذين عَقروها، وهم تسعةُ رهطٍ، كما تقدَّم، فتعاهَدوا على بَياتِهِ. فلما انتهوا إلى دارِهِ لقيتْهم الملائكةُ فقالوا لهم: «ما تريدون؟»، فقالوا: «نريدُ أن نقتلَ صالحاً، وثمانيةً من قومه بمن قُتل منا». فقال لهم قومُ صالح: «لا تعجلوا حتى تَستدبروا الموعدَ الذي وعدكم ربُّكم، فإن كان وعدُ ربِّكم حقاً علا غضبُكم. وإن كان ما وعدَكم به باطلاً فأنتم وراء أمورِكم، فافْعلوا». فانصرَفوا وتركوهم، فأصبحوا يومَ الخميس وجوهُهم مُصفرَّةٌ. ثم أُصبحوا يومَ الجمعة وجوهُهم محمرَّةٌ. ثم أصبحت مسودةً يومَ السبت.

فلما نظروا إلى وجوههم مسودةً خدُّوا لهم أُخدوداً، وتَزمَّلوا بالأنطاع[1]، وسدُّوا أبوابَهم ولزموا قعودَ البيوت. فلما صاحَ عليهم جبرائيلُ بأمرِ الله تبارك وتعالى هَمروا[2] «فدمدَمَ عليهم ربُّهم»[3]. وأرسل عليهم عذاباً فأهلكهم بذنوبهم «فسوَّاها»، أي ساوَى العَقريةَ على الكبير والصغير. فلم يبقَ منهم أحدٌ إلا أخذتْه الصَّيحة بَياتاً من ليلةِ الأحد. فأصبحوا في ديارهم جاثمينَ، ولم يَسلم منهم أحدٌ إلا جاريةٌ مُقعدةٌ[4] وكانت شديدةَ العداوَةَ لنبيِّ الله صالح ومَن آمنَ معَه، شديدةَ الكفر بالله تعالى. فلما أهلكهم الله تعالى أطلقَ لها

---

١ ـ النَّطع: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.
٢ ـ همر الكلامَ وفي الكلام: أكثر منه.
٣ ـ الآية: ١٤/ الشمس: ٩١.
٤ ـ اسمها «كلبة بنت السلق» (قصص الأنبياء: ١٢٢).

رجلَيْها، ليعتبرَ الناسُ بها، ولتحدِّثَهم بالذي رأتْ من العذاب في قَومها. فخرجتْ تسعى حتى انتحت إلى وادي القُرى، فأخبرتْهم الخبر، وما جرى لقومها. فاستسقَتْ من الماء فسقَوها. فلما شربت ماتَتْ.

فعند ذلك قال صالح لقومِهِ: «هذه دارٌ سخط الله عليها وعلى أهلها. فاظعنوا عنها، فإنها ليستْ لكم بدار». فقالوا له: «رأيُنا لرأيِك تبعٌ / فأمرْنا نفعلْ، وأيَّ بلدٍ نذهبُ؟». ٢٧/آ
قال: «تلحقون بحرمِ الله تعالى وأمنهِ، لا أرى لكم قراراً دونَه». فأهلُّوا من ساعتِهِ بالحج، ثم انطلقوا يلبُّون آمِّينَ البيتَ الحرامَ حتى وردوا مكةَ المشرَّفَةَ، فما زالوا بها حتى ماتوا، فتلك قبورُهم في غربيِّ الكعبة، بين دارِ الندوة والحجر.

فانظروا، رحمكم الله، كيدَ هاتين المرأتينِ، كانتا سبباً في عَقرِ ناقةِ صالح عليه السلام، التي هي آيةٌ من آيات الله تعالى، ومعجزةٌ لنبيِّه صالح عليه السلام. وانظر ما حلَّ بقوم صالح من العذاب الأليم والخزْيِ العظيم والنكال. قال الله تعالى: «فأخذتْهم الرجفةُ»[1] أي صيحةُ جبريلَ عليه السلام من السماء، وجاءتْهم الزلزلةُ من الأرض. «فأصبحوا» أي بكرةَ يوم الأحد «في ديارِهم جاثمين» أي لازقين بالأرض. واحترقوا بعدَها بالصاعقة، فصاروا رماداً. وجاءتْهم نارٌ من الهواء، وخرجتْ لهم من تحتِ أرجلهم، فاحترقوا عن آخرهم، وهلكوا في ساعةٍ واحدة، فسبحانَ القاهرِ الذي لا يُقهر، الغالبِ الذي لا يُغلب.

وقال الكلبي رحمه الله تعالى: وكان صالح قد خرجَ ومَن آمن معَه مِن بَينِهم قبلَ نزولِ العذاب بهم، وهم مئةُ نفسٍ وعشرةٌ، وهو يبكي على قومه. فالتفتَ، فرأى الدخانَ ساطعاً فعرفَ أن القومَ هلكوا. وكانوا ألفاً وخمسَ مئةٍ. فلما هلكوا رجعَ صالح ومَن آمنَ معه، سكنوا الديارَ حتى تَوالدوا وتناسلوا وماتوا فيها، وهذا قولُ الكلبي رحمه الله. **فانظروا** ما فعلَ الله بقوم صالح، وما أنزل الله بهم من العذاب، وهم كانوا ألفاً وخمسَ مئةِ نفس بسبب/ تلك المرأتين المتقدِّمِ ذكرُهما، وهما صَدوقُ وعُنيترَةُ لما افتُتن بهما قدارٌ ومَصدعٌ، حين ٢٧/ب

---

١ ـ الآية: ٧٨/ الأعراف: ٧، والآية: ٩١/ الأعراف.

قالتـا لهما: «إنْ عقـرتُمـا ناقـةَ صالـح مكنًّـاكـما من أنفسِنـا، وأعطينـاكما ما تَشتهيان[1] منا».
فحملهما ذلك على عقرِ الناقةِ. فعقروها، وهي آيةٌ من آياتِ الله تعالى. فأنزل الله العذابَ بقومِ صالحٍ، فأهلكهم الله أجمعين. أعاذَنا الله وإياكم من كيدِهم «إن كيدَهنَّ عظيم».

---

١ ـ في الأصل: تشتهيا.



قصّة امرأة بَلعام

ومن هذا القَبيل امرأةُ بَلعام بن باعُورا[1]. وكان بلعامُ رجلاً عالماً عابداً صالحاً مُجابَ الدَّعوة. وكان زمنَ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام.

والقصةُ في ذلك على وجه الاختصار أنَّ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام أراد أن يغزوَ ملكاً كافراً، فجاء الملك[2] إلى بلعام فقال: «إنَّ موسى حديدُ الخلق، ومعه خيلٌ كثيرٌ فإن ظهرَ علينا أهلكنا، فادعُ الله أن يردَّه عنا». فقال له بلعام: «إن فعلتُ ذلك ذهبَ دُنياي وآخرتي». فقال له الملك: «إنه يريدُ أن يُخرجَنا من بلادنا ويسكنَ فيها بنو إسرائيلَ، ونحن قومُك، وليس لك بقاء بعدنا، ولاخيرَ لك في الحياة بعدَنا، وأنت مُجابُ الدَّعوة، فاخرجْ وادعُ عليهم». فقال بلعام: «ويلكم، نبيُّ الله معهُ الملائكةُ والمؤمنون، فكيفَ أدعو الله عليهم، وأنا أعلمُ من الله ماأعلمُ».

فلم يزالوا يترفَّقون به ويتضرَّعون إليهِ. وكان لهُ امرأةٌ أنسبُ منه، وكان يحبُّها ويُطلعها على أمرهِ. فقدَّموا إليها هدايا، فقَبلتها. ثم أتَوها فقالوا لها: «قد نزلَ بنا ماتَرَين فكلِّمي بلعامَ في هذا». فقالت لبلعام: «إن لقومِك عليك حقاً وجواراً وحُرمةً. وليس مثلكَ /مَن يُسلم جيرانَه عندَ الشدائد، وقد كانوا محسنين إليك، وأنت جديرٌ أن تُكافئَهم، وأن تهتمَّ بأمورهم». فقال لها: «لولا أعلمُ أنَّ هذا من عندِ الله لأجبتُهم». فلم تزلْ به امرأتُه حتى ضلَّ وغوِيَ، وركبَ حمارَةً له وتوجَّه بها إلى الجبل الذي يطلعُ على بني إسرائيلَ، ٢٨/آ

١ ـ بلعام في العبرية «الملتهم». ويلفظون اسم أبيه «بعور». موطنه في بلاد مابين النهرين أصلاً.

٢ ـ اسم الملك «بالاق» وهو ملك موآب، وموآب اليوم القسم الشرقي من البحر الميت (قاموس الكتاب المقدس: ١٨٩).

وقصدَ أن يدعو عليهم. فما ساروا إلا قليلاً، وربَضتْ أتانُه فنزل عنها، وضربها. فلم يزلْ كذلك حتى كلمَتْه. فقالت: «يابلعامُ، إني مأمورةٌ فلا تَظلمني، انظرْ إلى مابينَ يديْك، ألا ترى أن الملائكةَ أمامي يردُّونني[1] على وجهي، ويقولون لي: أتذهبين به ليدعُوَ على نبيٍّ الله والمؤمنين؟». قال: فلما رأى بلعامُ ذلك خلى سبيلَ الدابَّة، وتركَها وانطلقَ حتى أشرفَ على رأسِ جبلٍ مشرفٍ على بني اسرائيل، وجعلَ يدعو، فلا يَدعو بسوء إلا صرفَ الله به لسانَه إلى قولِه، ولايدعو لقومِهِ بخيرٍ إلا صرفَ الله بِهِ لسانَه إلى موسى وقومِهِ.

فقال له قومُه: «ألا ترى ماتصنعُ في دُعائك؟» فقال: «هذا شيء لا أملكُه وقد غلبَ على لساني ماأقول». فعند ذلك جاءتْه لمعةٌ من السماء قد ذهبتْ ببصرِهِ، فعميَ بصرُه. فقال لهم: «قد ذهبتِ الدنيا والآخرةُ عني».

وفي روايةٍ أن دابتَه لما كلمتْه فقالتْ له: «انظرْ أمامك» فإذا ملَكٌ قد قطعَ عليه الطريقَ، فخرَّ ساجداً حتى انكشفَ عنه الملكُ ثم رجعَ إلى قومِهِ فقرَّبَ قُرباناً، فقبِلَ الله قربانَه.

وأوحى الله إليه أن «موسى خِيرتي من خَلقي» فانصرفَ فرجعَ، فما زالتَ امرأتُه حتى فتنَتْه فقالت: «لم يبقَ إلا الحياةُ، اعلموا ياقومُ، إنَّهم أهلُ كتابٍ إذا أذنبَ أحدٌ منهم ولم تَنْهَهم عامَّتُهم عمَّهم فدسُّوا / في عسكرهم». فإني لا أعلمُ فتنةً أسرعَ صرعةً للرجالِ من النساء. فا جمعوا النساء الحسانَ وأعطوهنَّ السِّلعَ، وأرسلوهنَّ إلى عسكر موسى، يَبعْنَها فيه، ولا تمنعِ المرأةُ نفسها من رجلٍ منهم إنْ راوَدها. فإنهم إن زَنى رجلٌ منهم بامرأةٍ كُفيتموهم. ٢٨/ب

فمرَّت امرأةٌ على رجلٍ منهم فأعجبتْه، فأخذَ بيدها وأدخلها خيمتَه، فوقعَ عليها الرجلُ. فنظرَ لهما رجلٌ عَلا على قومه بَسطةً في الجسم. فأخذ حربتَه ودخلَ عليهما وهو فوقَها فطعنَهما بحربتِهِ حتى أنفذَها منهما، ثم رفَعهما في الهواء، فأقبلَ الناسُ وأنكروا وغيَّروا. فوقاهُم الله العذابَ ببركةِ موسى عليه السلام. وأقبلَ موسى وقومُه وحاربوا قومَ بلعام

---

١ ـ في الأصل: يردوني.

وغلبـوهم وأسـروا مِنهم وقَتلوا وأجـابـوا مَلكهم أسيراً فقتلوهُ، وظفروا بالهدايا التي أُهديتْ لزوجةِ بلعام، فأخذوها.

فأنزلَ الله ذلك كلَّه على سيدنا محمد ﷺ، فقال تعالى: «واتلُ عليهم نبأَ الذي آتيناهُ آيـاتِنـا، فانسلخَ منهـا، فأتبعَـه الشيطانُ فكانَ من الغاوين»[1]. فقوله: «آياتِنا» هو اسمُ الله الأعظم، قال هذا كلَّه الإمـامُ أبـوحفصٍ الكبـيرُ النَّسفيُّ في تفسيرهِ. ثم قال: ومايذكرُ في بعض الـروايـاتِ أن الآيـاتِ: الكتـابُ والوحيُ، وأنه كان نبياً لاينبغي أن يقال ذلك، لأن الأنبيــاء مختــارونعلى العلـم؛ قال الله تعــالى: «ولقــد اخــترنــاهم على علمٍ على العالمين»[2]. وقال الله تعالى: «الله أعلمُ حيث يجعل رسالته»[3].

فمن المحــال أن يكــون منهم الانســلاخُ عن الـدين. وقيـل: «الآيـاتِ»، صحفُ إبراهيمَ كان يحفظها وقيل: هي الكراماتُ[4].

وكـان بلعـامُ / إذا نظـر إلى السماء رأى العرشَ، وإذا نظر إلى الأرضِ نظر الثرى، ٢٩/آ وكـان وليـاً له كرامـاتٌ ظاهـرة قال: وقـولـه تعـالى «فانسلخَ منها» أي تركها وفارقها، وصار كالمنسلخ الخارجِ من الشيء. «فكان منَ الغاوين» أي فكان في الله تعالى ينسلخُ من آياتهِ، فيكونَ من الكافرين حين ينسلخُ. وقوله: «ولـو شئنـا لرفعناهُ بها» أي لأعلينا درجتهُ في الناس بتلك الآيات. وقيل: لو شئنا لرفعناهُ عن الكفر.

قال مجاهد: ولكنه أخلدَ إلى الأرض واتَّبع هواهُ، أي ركنَ إلى الدنيا وأحبَّ الحياةَ في الدنيا. يقال: خلدَ أي دام، وأخلد أي سكنَ واطمأنَّ. و«اتَّبعَ هواهُ» أي تركَ هُداه واختارَ ما دعـا إليـه هواهُ من حيث الـدنيـا. وقال بعضهم: اختارَ الدنيا على الآخرة. وقيلَ: أطاعَ شيطـانَـه. «فمثَلُه كمثلِ الكلب. إن تحملْ عليه يلهثْ أو تتركْه يلهثْ»[5]. وهو في الكلبِ

---

١ ـ الآية: ١٧٤ / الأعراف: ٧.
٢ ـ الآية: ٣٢ / الدخان: ٤٤.
٣ ـ الآية: ١٢٤ / الأنعام: ٦.
٤ ـ في الأصل: الكرمان.
٥ ـ الآية: ١٧٦ / الأعراف: ٧.

طبعٌ إن تطردْه يلهثْ أو تتركْه يلهثْ. فسواء عندَه التَّركُ والطردُ. فكذا هو الخبيثُ.

قال ابن عبـاس رضي الله عنهما: الكلبُ منقطـعُ القـوى، فهـو يلهثُ إن تُركَ أو لم يُتركْ. كذلـك الـذي يتركُ الهـدى، لاقِوى له. وقال القتيبيُّ: كلُّ شيء يلهثُ من إعياء أو عطشٍ إلا الكلبَ، فإنـه يلهثُ في التَّعب والمـزاحـة[1]، والمـرض والصحـة، والـروْيِ والعطش. ضرب الله مثـلاً للذين كفـروا بآياته والذي يوعَظ ولايتَّعظ. ونظيرهُ قولهُ تعالى: «وإن تَدعوهـم إلى الهدى لايتَّبعوكم سواء عليكم أَدعوتموهـم أم أنتم صامتون». [2]

قال: وقوله: «فانسلخَ منها» دليلٌ على أنَّ شَقاوتَه كانت من جهتِه، وهو / أنه انسلخَ من الآيات، وكان مراعاتُه إياها حافظتَه. فلما تركها تبعَه الشيطانُ وهو كاللصِّ لا يصلُ إلى الغنم ومعَه الرعاةُ، فإذا فارقوها وصلَ إليها اللصُّ. ٢٩/ب

وبلعامُ لما جهلَ قدرَ ماأنعم الله عليه واستحقَّ بذلك خِزْيَه، وتغيرَّ عليه حالُه قال الله تعالى: «إنَّ الله لايغيِّرُ مابقومٍ حتى يغيرِّوا مابأنفسهم»[3]. وكان انسلاخُه بسببِ مطاوعتهِ لامـرأتـهِ من المَيـل إلى الدنيا وأخذِ الحُطام الفاني، ولاشيء أضرُّ للعالم من الطمع: قال الله تعـالى: «يـاأيهـا الـذين آمنـوا إن كثيـراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموالَ الناس بالباطل ويصـدون عن سبيـل الله»[4]. وقـال تعـالى: «يأخذون عرضَ هذا الأدنى»[5] أي يأخذون حُطامَ الدُّنيا الفاني. وقال عن الأنبياء: «وماأسألُكم عليه أجراً»[6]. وقوله: «كمثلِ الكلب» في المعنى الـذي ذُكـر ولامسـاواةَ بينَهـما بل كلبٌ واحـد خيرٌ من ألفٍ وأكثـر من بلعـام. فإن الكلبَ عارفٌ بالله تعالى، موحِّدٌ لايعاقبُ بالنار، وبلعامُ كافرٌ بالله تعالى خالدٌ في العقاب الأليم.

---

١ ـ لعلها: الراحة.
٢ ـ الآية: ١٩٣ / الأعراف: ٧.
٣ ـ الآية: ١١ / الرعد: ١٣.
٤ ـ الآية: ٣٤ / التوبة: ٩.
٥ ـ الآية: ١٦٩ / الأعراف: ٧
٦ ـ الآية: ٢٣ / الشورى: ٤٢.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله تعالى : «ولو شِئنا لرفعناهُ بها»[1] أي لو ساعدتْه المشيئةُ بالسعادة الأزلية لم تلحقْه الشقاوةُ الأبديَّة . ولكن مَن قصمتْه السوابق لن تنفعْه اللواحقُ .
قال : وفي قوله تعالى : «ولكنه أخلدَ إلى الأرض»[2] إذا كانتْ مساكنهُ آدمَ الجنةَ وطمعُه في الخلود فيها أوجبَ خروجَه منها ، فالركونُ إلى الدنيا أولى أن لايوجِبَ البقاء فيها . وهذا كلُّه بمشيئةِ الله تعالى .

---

١ ـ الآية : ١٧٦ / الأعراف : ٧ .
٢ ـ الآية : ١٧٦ / الأعراف : ٧ .

قصة حرب البسوس

وروى أبو الجوزاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن الآيةَ نزلت في حربِ البَسوسِ[1]، / وذلك أن رجلاً من عبادِ بني إسرائيلَ أُعطي ثلاثَ دعواتٍ مستجاباتٍ. ٣٠/آ وكان له امرأةٌ يقال لها حربُ البسوس، وكان له أولادٌ منها. فقالت له: «اجعلْ لي من هذهِ الدعواتِ واحدةً». فقال لها: «لكِ منها واحدةٌ، فما تريدين بها؟». فقالت: «ادعُ لي أن أكونَ أجملَ امرأةٍ في بني إسرائيل». فدعا لها. فكانت كذلك. فلما رأتْ أنه ليسَ فيهنَّ مثلُها تكبَّرتْ عليه ورغبتْ عنه. فغضبَ عليها العابدُ، ودعا عليها أن تكونَ كلبةً نبَّاحةً، فكانتّ. فذهبتْ فيها دَعوتان. فجاء أولادُها إلى أبيهم فقالوا: «ياأبانا، ليس لنا على هذا صبرٌ ولا قرارٌ، وقد صارتْ أمُّنا كلبةً نباحةً، والناسُ يُعيرِّوننا بها، ادعُ الله أن يردَّها إلى الحالة التي كانتْ عليها أولاً». فدعا الله فعادتْ كما كانت، وذهبت الثلاثُ دَعوات فيها.

فانظر ماوقع لبلعامَ وإلى ماحلَّ به من الشقاء والضلال بسببِ إطاعتهِ لامرأتهِ حتى نزعَ الله من قلبهِ الإيمانَ. حتى رُوي أنَّ موسى عليه السلام دَعا على بلعامَ لما بلغَه أن بلعامَ يريدْ أن يدعوَ عليه فقال موسى عند ذلك: «اللهمَّ انزعِ الإيمانَ من قلبهِ». فاستجابَ الله له في بلعامَ، ونزَعَ المعرفةَ والتَّوحيدَ من قلبهِ، فخرجَ من صدرهِ كحمامةٍ بيضاء، واندلقَ لسانُه على صدرهِ، واسودَّ وجهُه. فعلم موسى أنه سُلب الإيمانَ، فأخذَ حجراً من الأرض وجعل يضربُه على صدرهِ وهو يقول: «واإسلاماهُ، واإيماناهُ، واتوحيداه» إلى أن ماتَ.

قال الإمام النسفي في تفسيرهِ: ومارُوي أنه دَعا على موسى وقومهِ حتى تاهُوا في

---

١ ـ ليس للاسم علاقة بحرب البسوس أحد أيام ربيعة في الجاهلية، ولعلها صفة للمرأة.

التِّيه. فقد أنكرَ ذلك / المحققون وأبطلوهُ، وخطَّؤوا مَن قاله، والله أعلم. ٣٠/ب

فانظر مافعلتْ حربُ البسوس مع زوجها الصالح العابدِ، وكيفَ أذهبتْ قلبَه بالدعواتِ المستجابات، وانسلخ منها، وصار بحالٍ يدعو الله تعالى لنفسه بالسعادة فلا يستجاب له. وماتَ على غيرِ الإسلام. نعوذُ بالله تعالى من كيدهنَّ «إنَّ كيدَهُن عظيم».

قصة يوسف

ومن هذا القبيل ماوقعَ لسيدنا يوسفَ عليه السلام[1] مع زُليخاء امرأةِ العزيز[2]، وكيف كادتْ له، وراودتْه عن نفسهِ، وطلبتْ منهُ أن يطاوعَها على قصدِها لولا أنَّ عصمهُ الله تعالى. قال تعالى: «وراودتْه التي هوَ في بيتها عن نفسهِ». قال النسفيُّ رحمه الله في تفسيره: إنَّ «المراودةَ» فعلٌ بين اثنين، يراودُ أحدُهما الآخرَ، فيجري بينَهما في ذلك مُدافعةٌ وممانعةٌ، مأخوذٌ من الإرادة وهي المشيئة. ومن «الرَّود» وهو الطلبُ، أي طالبتْ زليخاء يوسفَ بمساعدتِها على ارتكابِ الفحشاء منه. ويجوز أن يكونَ مشتقاً من التَّرْوية، وهو التَّمهيلُ والتوقُّف. و«المراودةُ»[3] هي المطالبةُ على التوقُّف والتَّمهيل، ومعنى «عن نفسهِ» أي من أجلِ نفسهِ، أي يقالُ: فلانٌ تخاصمَ عن فلانٍ، أي من أجلهِ.

«وغلَّقتِ الأبوابَ» وتشديدُ اللام لتكثيرِ المحالِّ، وإنما غلَّقتْها لئلا يَفجأها أحدٌ، ولئلا يتخلَّصَ منها يوسفُ والرجاء أن يجيبَها، فتكون أسبابُ الخلوة حاصلةً. «وقالتْ: هيتَ لك»[4] أي هلمَّ إلى ماهُو لك. وقيل: معناه أنا لكَ. وقيلَ: إنها ليستْ. .[5] «قال:

---

١ ـ النبي يوسف هو الابن الحادي عشر من أولاد يعقوب الاثني عشر، وهو بكر يعقوب من زوجته راحيل. وقد سمته بيوسف، ومعناه يزيدني الرب، لاعتقادها بأن الله سيرزقها ابناً آخر.

٢ ـ عزيز مصر: فوطيفار ـ ومعناه عطية إله الشمس ـ قائد حرس فرعون. وقد عين يوسف وكيلاً على منزله. واسم زوجته في كتب أهل الكتاب «راعيل» وكذا في (الكامل: ١/ ١٤١).

٣ ـ في الأصل: المرادة. والآية قبلها: ٢٣/ يوسف: ١٢.

٤ ـ الآية: ٢٣/ يوسف: ١٢.

٥ ـ بياض قدر كلمة في الأصل.

معاذَ الله» إن جئنا إلى هذا «إنه ربِّي»، أي زوجها، سيدي بحكمِ الشراء ظاهراً: «أحسنَ مَثْواي» أي أكرمَ مُقامي. «أنه لايفلحُ الظالمون»[1] أي لايفوزون بخيرٍ، ولايُحمدون / بين الناسِ. وقيل: «لايُفلح الظالمون» أي لايأمَن الزاني مِن عذاب الله تعالى. ٣١/آ

وقال الإمام أبو منصور: مادامت على ظُلمهم، فإذا تركوهُ وتابُوا عنه أفلحوا.

والقصةُ في ذلك على سبيلِ الاختصار، وذلك أنَّ زُليخاء هَويت وهامتْ بحبِّ يوسف، ونحلَ بدنُها وتغيَّر لونُها، وذهب قواها ونومُها، وارتاب أهلُ بيتها في أمرِها. فجاءتها عجوزٌ ذاتَ يوم فسألَتْها عن ذلك. فأظهرتْ لها حالَها، واستعانتْ بها على بلوغِ مُرادها من يوسفَ عليه السلام. فقالت لها العجوزُ: «أخبريهِ عمّا في قلبِكِ من مرضِ محبَّتكِ له، واعْرِضي عليه حالَكِ». فقالت: «لا يَدنو[2] منّي، ولاينظرُ إليَّ، ولايفتحُ عينه في عَيني إذا دخل عليّ». فقالت لها: «أنا أحتالُ لكِ في ذلك، فلا بدَّ لي من مالٍ كثيرٍ». فبذلتْ لها ماطلبتْ منَ المال، فاتَّخذتْ بيتاً من رُخامٍ مُملَّس منقوشٌ على[3] سقفه وحوائطهِ صورةُ يوسفَ وزُليخاء. فلما تمَّ ذلك وهيَّأتِ البيتَ بأنواعِ الفَرش، وزيَّنتْه بالأواني والحَلْي، ولبستِ الحُللَ، وتضمَّختْ بالمسكِ والزبَّاد[4] والعنبر، وتتوَّجت زليخاء بتاجٍ مرصَّع بسائر الجواهر، وجلست على سريرٍ منَ الذهب الأحمر مرصعٍ بالياقوت، وعليها أنواعُ الحَلي، ودَعتْ يوسفَ إليها. فلما جاء، وهو لايعلمُ ماقصدُها بهِ أغلقتْ عليه الأبوابَ، وكانتْ سبعةَ أبوابٍ، بعضُها في بعضٍ وقالت: «يايوسفُ، ماأحسنَ وجهَك!». قال: «صوَّرني ربي إلى ماتَرين». قالت: «يايوسفُ، ماأحسنَ شعرَك!». قال: «هو أولُ شيء يسقطُ مني في قَبري». قالت: «يايوسفُ، ماأحسنَ عينيك[5]». قال: «بهما أنظرُ إلى ربي عزَّ وجل». قالت: /

---

١ ـ الآية: ١٣٥/ الإنعام: ٦.
٢ ـ في الأصل: لا يدن.
٣ ـ في الأصل: عليه.
٤ ـ الزباد: مادة عطرة تتخذ من سنور الزباد. وقط الزباد حيوان من رتبة اللواحم. يحمل تحت استه جيباً تتجمع فيه مادة عطرة ممسّكة (انظر: معجم الحيوان: ٦٥).
٥ ـ في الأصل: عينك.

٣١/ب «يايوسفُ، ارفعْ بصركَ وانظرْ إليَّ». قال: «أخشى العَمى في آخرِ عُمري إن نظرتُ إليكِ». قالت: «يـايـوسفُ، لِمَ تَتَبـاعـدُ عني؟». قال: «أريدُ القربَ من ربي». قالت: «يايوسفُ، هذا القيطـونُ[1] عملتـهُ من أجلك، فادخلْ معي فيه». قال: «لاشيء يَسترُني من ربي عزَّ وجل». قالت: «يايوسفُ، مالكَ تَعصيني؟». قال: «أطلبُ بذلك مرضاةَ ربي». قالت: «يـايـوسفُ، أنتَ عبـدي اشـتريتُـك وأنتَ مُتعـاظمٌ عليَّ». قال: «بجُرمي وخَطيئتي اشـترَيْتِني». قالت: «يـايـوسفُ، ليتَني لم أعرفْك». قال: «هكذا فعلتْ إخوتي». قالت: «يـايـوسفُ، ضعْ يدكَ على صدري». قال: «لاأصـبرُ على احـتراقِ جسـدي بالنـار». قالت: «يايوسفُ، الجنينةُ قد عطشتْ قُم فاسقِها». قال: «الذي معَه مفاتيحُها أحقُّ بسقْيها مني». قالت: «يـايـوسفُ، إن لم تُطعْني، وإلا سلَّمتُـك للمعـذِّبـين فيَسْلون جَسمَـك كما سَلَيت جسمي». قال: «لابأسَ بذلك عليَّ، إنْ كان فيه رضاء ربي». قالت: «يايوسفُ، بأيِّ علَّةٍ امتنعتَ عنيٍّ؟». قال: «أخـافُ من إلهي الـذي في السـماء ملكُه وفي الأرضِ سلطانُه، وهو يشهـدُ عليَّ وعليـك». قالتْ: «يـايـوسفُ، أمَّـا سيدُك الذي في الأرضِ سلطانُه فإني آخذُ كأسَ الـزبـرجـدِ بيدي اليمنى، وإبريقَ الدرِّ بيدي اليسرى، فأسقيهِ الكأسَ الأولَ فيسقطُ لحمهُ بين يديَّ، فأجعلهُ في قُبطيةٍ[2] وأدفنُه في أساسِ بَيْتي. وأمَّا إلهك الذي في السماء فإن لي مِن الأمـوال والجـواهـر مالا أطيقُ حملَه. وإني أتصـدَّقُ به عنـكَ، فيغفـرُ لك إلهُك الذي في السـماء، وتخـوِّفُني به». فغلبتْـه بالكـلامِ، فلم يردَّ جوابـاً فقـال: «معـاذَ الله من أنْ أرتكبَ حَراماً. فمنِ ارتكبَ حراماً سوَّدَ الله وجهَه يومَ القيامة، وهَتَك ستره، وأحرقَ جسمَه بالنار، ٣٢/آ فلا تُسوِّدي وجهي يومَ القيامة، ولا / تُخجليني عند أبي وأمي، ولاتُسخطي عليَّ ربِّي، ولا تُسلطي نارَ جهنمَ على جسمي». فعند ذلك أغلقتِ الأبوابَ، وأرختِ الستور.

قال القشـيريُّ: لما أغلقتْ عليـه أبـوابَ الحجـرةِ، فتـحَ الله عليـه أبـوابَ العِصمـة والنُّصـرة، فلم يضـرَّه ماأغلقت عليه بعدما أكرمَه الله تعالى بما فتحَ، وقيل: لما حفظَ حرمةَ المخلوق بظهـرِ الغيبِ أكـرمـهُ الله تعالى بإمدادِه بالعصمةِ في الحال، ومكَّنه من مُواصلتهِ في

---

١ ـ القيطون: غرفة النوم بلغة أهل مصر.

٢ ـ القبطية: ثياب من كتان منسوبة إلى القبط.

المال على الوجهِ الحلال قولهُ تعالى: «ولقد همَّت به وهمَّ بها» الآية[1].

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ماقالَه بعضُ أهلِ التفسير إنها استلقتْ له، وهمَّ بها، وحلَّ أزرارَه، ومثلُ هذا من الخرافات، وهذا كلُّه مما لايُقالُ. والدليلُ على فسادِ ذلك من وجوهٍ؛ أحدُها قولُه تعالى إخباراً عن يوسفَ: هيَ راوَدتْني عن نفسي. والثاني قولُه تعالى: «كذلك لنصرفَ عنْه السوء والفحشاء، إنه من عبادِنا المخلصين»[2]. والثالثُ قولُهُ تعالى: «ذلك ليعلمَ أني لم أخنْه بالغيب»[3]. والرابع قولُه تعالى: «ماعَلمنا عليه من سوء». والخامسُ قولُه تعالى: «الآنَ حَصْحَص الحقُّ، أنا راودتُّه عن نفسهِ»[4]. فهذا كلُّه دليلٌ على أنه لم يكنْ شيء من ذلك. فليسَ في ظاهرِ الآية مما قالوا من كثيرٍ ولاقليلٍ، إذ ليسَ فيه شيء من ذلك سِوى: «همَّتْ به وهمَّ بها لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه». ماهوَ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما إنه ناداهُ جبريلُ عليه السلام: «يايوسفُ، يابنَ يعقوبَ اسمُك في ديوانِ الأنبياء مكتوبٌ وأنت في ديوانِ الأبرار، فلا تعملْ عملَ الفُجَّار». وقيل: تمثَّلَ جبريلُ عليه السلامُ في صورةِ أبيهِ يعقوبَ عاضَّاً على أصابعهِ. فلما رآه هابَ ذلك وبادرَ / إلى الباب. ٣٢/ر

وقال مقاتل: قال محمدُ بنُ كعبٍ: إنه رأى في سقفِ البيتِ سَطراً مكتوباً فيه: «ولاتَقربوا الزنى»[5]، الآية.

وقال جعفرٌ الصادقُ: البرهانُ النبوةُ التي أودعَها الله في صدرِه، وهي التي حالتْ بينَه وبينَ ماأسخط الله. وقيلَ: نظر إلى الحائطِ فرأى قلماً يكتبُ على الحائط:

بسم الله الرحمن الرحيم، «ولاتقربوا الزِّنى». فحوَّل وجهَه إلى الحائط الآخر[6] فرأى

---

١ ـ الآية: ٢٤/ يوسف: ١٢.
٢ ـ الآية: ٢٤/ يوسف: ١٢.
٣ ـ الآية: ٥٣/ يوسف: ١٢.
٤ ـ الآية: ٥٠/ يوسف: ١٢.
٥ ـ الآية: ٣٢/ الإسراء: ١٧. وانظر ما كتب على الجدران في (الكامل: ١/ ١٤٢).
٦ ـ في الأصل: الأخرى.

قلماً يكتبُ بعـد البسملة «كـلُّ نفس ٍ بما كسبتْ رهينـةٌ»[1]. فحـوَّل وجهَـه إلى الثالث فرأى القلمَ يكتبُ بعـد البسملة: «وإن عليكم لحافظـين» الآيـة[2]. فحوَّل وجهه إلى الرابع فرآه يكتب بعـد البسملة: «يعلمُ خائنـةَ الأعينِ، وماتُخفي الصدور»[3]. فنكسَ رأسَه إلى أسفلَ فرأى مكتوباً على الأرض: «إنني معكما أسمعُ وأرى»[4]. فنظر إلى السقفِ فرأى صورةَ أبيهِ يعقوبَ. فنظر إليه عاضَّاً مُسبحتَه مُشيراً إليه. فبادر إلى الباب وهو قوله تعالى: «كذلك، لنصرفَ عنه السوء والفحشاء»[5] أي الفِعلة القبيحة. وكُرِّر لاختلاف اللفظين، كما في قوله تعـالى: «إنَّـه من عبـادنـا المخلصـين»[6] بكسـر اللام، هم الذين خلَّصوا أنفسهم وقلوبَهم وأعمالهم لله عزَّ وجل. والذين صفَّوا أعمالَهم وأقوالهم وأحوالهم عن الشوائب. والمخلصين، بفتح اللام، هم الذين صَفَّاهم الله تعالى من الكدورات واصْطفاهم بالكرامات.

وقوله: «واسْتَبقا الباب»[7] أي تَنادَبا إلى الباب، ليطلبَ كلُّ واحدٍ منهما السبقَ على صاحبـهِ؛ هي تريـدُ أن تسبقَ فتظفـرَ به، وهـو يريـدُ أن يسبقَ فيخلصَ منها. وقوله تعالى: «وقـدَّت قميصَـه» أي جذبَتْـه، فشقَّتـه طُولاً، وألفَيـا سيـدَهـا لدى الباب أي وَجدا/ زوجَ زليخـاء عنـد الباب، والسيدُ: الزوجُ بلفظ القِبط. وفي الحديث: «تفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا، قبل أن تتزوَّجوا فتنشغلوا». ٣٣/آ

قالت: «مـا جزاء مَن أرادَ بأهلك سُوءاً؟» فُهم من هذا أنـه أرادَ بها فُجـوراً، ولم يكن كذلــك. ولم تتعمَّــدْ صريــحَ الكـذب. لكنْ بالتعـريض في الحقيقـة استفهـامٌ على جزاء مَن يريـدُ بأهلك سوءاً، لا تحقيقَ أنه فعل بها. قالوا: لما خافتْ عليه من زوجها من القتلِ إذ علمتْ

---

١ ـ الآية: ٣٨/ المدثر ٧٤.
٢ ـ الآية: ١٠/ الانفطار: ٨٢.
٣ ـ الآية: ١٩/ غافر: ٤٠.
٤ ـ الآية: ٤٦/ طه: ٢٠.
٥ ـ الآية: ٢٤/ يوسف: ١٢.
٦ ـ تابع الآية السابقة.
٧ ـ الآية: ٢٥/ يوسف: ١٢، وتتمتها بعدها.

من زوجها الغَيرةَ، فقالت: «إلا أن يُسجنَ» أي يحبس. ثم علمتْ أنه لا يرضى هذا القدرَ من العقوبة إذا وقع عنده أنها صادقة. فضمَّت إلى ذلك أمراً قد يصغرُ وقد يكبر احتيالاً للتسكين، فقالت: «أو عذابٌ أليم». ولما سمع يوسفُ ذلك وعلم أن السكوتَ يُفضي إلى وقوع الفهم أنه وُجدَ منه الفجورُ ومايَنْبغي للمسلم أن يرضى بلحوقِ هذه التهمةِ إياه، فكيفَ بالصدِّيق ابن الصديق، وبالنبيِّ ابنِ النبي؟ فصدَقَ لإظهارِ براءةِ نفسهِ وتأسيسِ قواعدِ دولتِ إياهم على التوحيد والشرائع فقال: «بل هيَ فعلتْ ذلك، راوَدتْني عن نفسي».

ورُوي أن يوسف عليه السلام لما هربَ منها وقصدَ نحوَ الباب تساقطتْ أقفالُها ومَغاليقُها، خرجَ فأدركتْه زليخاء عند الباب الآخر. فأخذتْ بذيلِهِ وهو يجاذبُها، وهي تجرُّه من خلفهِ، ليرجعَ إليها. فانشقَّ قميصُه من دُبرٍ. وألفيا سيدَها، أي وجدا زوجها عند الباب. فقال: «ما شأنكما؟». قالت: «أدخلتَ بيتَك لصاً عادياً، وائتمنتَه على أهلك. فأغلقَ عليَّ البابَ وأنا نائمةٌ، فلم أشعرْ إلا وهو يريدُ /أن يدخلَ فراشي. فقمتُ إليه من نومي، آخذُه فبدَرَني إلى الباب. فأرادَ أن يأبقَ[1] من أجلِ ما فعلَ، فلا تراهُ أبداً». فقال له العزيزُ: «أَخُنتَني يا يوسفُ في زوجتي؟ وغررْتَني بما كنتُ أرى من صَلاحك، وما كنتَ تُظهر لي من أمانتك وعَفافَتك؟». فقال يوسف: «هي راوَدتْني عن نفسي، وغرَّتني وغلبتْني، وهذا قميصي، قُدَّ من خَلفي حين ولَّيتُ منها هارباً». /٣٣

وفي كتاب عصمة الأنبياء[2] أنها لو كتمتْ ذلك لكان لا يُفشي سرَّها. فلما أحالتِ الذنبَ عليه لم يُحبَّ أن يعرفَه خائناً، فيسوء ظنُّه به، حتى إذا عرفَ براءتَه عرفَ أن امرأتَه تباشِرُ الفِعلةَ، فينفرُ طبعُه منها. بل كانتْ منها المراودةُ لا المباشرةُ، قوله تعالى: «وشهدَ شاهدٌ من أهلها»[3] رُوي أنه كان صَبياً في المهد، وكان ابنَ زليخاء. قال صلى الله عليه وسلم: «لم يتكلمْ في المهد إلا ثلاثةٌ: شاهدُ يوسفَ، وعيسى ابنُ مريم ـ وصاحبُ جُريجٍ

---

١ ـ أبق العبد: هرب.

٢ ـ تأليف فخر الدين الرازي.

٣ ـ الآية: ٢٦/ يوسف: ١٢.

الراهب[1]. «إنْ كان قميصُه قُدَّ من قُبل فصدقتْ، وهو من الكاذبين»[2] يعني أن قميصَه إن كان قدَّ من قبلٍ يدلُّ ذلك على أنه كان مُقبلاً عليها، وهو يريدُها، وإن كان قميصُه قدَّ من دُبر فإنه يدلُّ على أنه كان هارباً منها. فلما رأى قميصَه قدَّ من دُبر قال: «إنه من كيدكنَّ، إن كيدكن عظيم» أي احتيالاً لكنَّ يا معشرَ النساء على الرجال إذا عَملوا بخلافِ مُرادكنَّ.

وقيل: هو قولُ الزوج لها. وقيلَ: هو قولُ الشاهد على قول مَن زعم أنه رجلٌ بالغ: «إن كيدكن عظيم» أي عظيمُ الصدِّ. وسُمِّي كيدُ الشيطان ضعيفاً / وكيدُ النساء عظيماً، ٣٤/آ لأن ذاك سرٌّ وهذا جهرٌ. وذاك وحدَه، وهذا مع الشيطان. وذاك يفرُّ من الاستعاذة، وهذا لا يفرُّ. قوله تعالى: «يوسفُ، أعرضْ عن هذا، واستغفرِي لذنبك»[3] أي قال زوجُ زليخاء.

وقيل: قال ذلك الرجلُ الشاهدُ، أي قال: «يا يوسفُ، أعرضْ عن هذا الحديث، لا تذكرْه لأحدٍ، وهو سترٌ لحالها، وهو المستحبُّ المندوبُ إليه، الَّا يفشي سرَّ أهلِ بيتِهِ خصوصاً خدمُه ومماليكُه. وقيل: « لا تبالِ وطيِّبْ نفسَك، فقد ظهرتْ براءتُك، «واستغفر لذنبك» أي قال لزليخاء: «استغفري الله». وإن كانت مشركةً، فهم يُقرُّون بأن الله خالقُهم. وقوله: «إنكِ كنتِ من الخاطئين» أي من الجانين على الزوج.

قال الإمام القشيري رحمه الله: ليس كلُّ أحدٍ أهلاً للبلاء لأرباب الولاء. فأما الأجانبُ فيتجاوزُ عنهم ويُخلِي سبيلَهم. هذا يوسفُ كان بريء الساحة وظَهرَ للكل براءةُ جانبِهِ، وابتُلي هذا بالسجن، وامرأةُ العزيز قد ظهرَ للعزيز سوء فعلها حيث قال: «إنه من كيدكنَّ إن كيدكنَّ عظيم». فاقتصر في حقِّها أن تستغفرَ لذنبها، ولم يُنزلْ بها شيئاً من البلاء «ويفعلُ الله ما يشاء». فسجن يوسفَ في السجن اثنتي عشرةَ سنةً، وخرجَ من السجن حين رأى الملكُ[4] ذلك المنامَ، وفسَّره له يوسفُ عليه السلام. وقال له يوسفُ: «اجعلني على

---

١ - يرد ذكره بعد باسمه.
٢ - الآية: ٢٦/ يوسف: ١٢.
٣ - الآية: ٢٩/ يوسف: ١٢.
٤ - يعني بالملك فرعون يوسف واسمه الريان بن الوليد، وهو من العمالقة. حكى الثعلبي أن فرعون عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف (قصص القرآن: ٢٥٠).

خزائنِ الأرض، إني حفيـظٌ عليم»[1]. فملَّكه المملكةَ وأجلسَه على الكرسي، وأمر العسكرَ له بالسمعِ والطاعة، فامتثلوا أمرَ الملك وأطاعوا يوسفَ عليه السلام. وصار يوسفُ ملكاً. ووقعَ القحطُ بعد ذلك. ومضتْ أيامُ القحط وسنينُ[2] الجدب. وماتَ /ملكُ مصرَ في حياة يوسفَ عليه السلام. وكان يوسف قد نذرَ نذراً إن أحسنَ الله عاقبةَ الناس وردَّ أمرَهُم إلى ما كانوا فيه أولاً، أن يفعلَ وليمةً للفقراء والمساكين وأهلِ الحاجة. فلما طالتِ الأيامُ نسيَ يوسفُ عليـه السـلام ذلـك النذرَ الذي كان نذرَه. فنزل عليه جبريلُ عليه السلام بأمرِ ربِّ العـالمين وقـال له: «يـا يوسف، إن الله تعـالى يأمـرك أن تُوفيَ نذرَك الـذي نذرتَه». فتذكر يوسفُ عند ذلك وقال: «سَمعاً وطاعة».

٣٤/

وقيـل: إنـه عليـه السلام لما أن سُجن في السجن، وذلك لما جاع الفقراء المسجونون رفـع رأسَـه إلى السـماء وقـال: «يـا ربَّ العـالمين إنْ أخرجْتَني من هذا السجن ورزقْتَني رزقاً واسعـاً لأجمعنَّ على طعـامِ الغنيَّ والفقيرَ والكبيرَ والصغيرَ». فلما خرج يوسفُ من السجن وقال للملك الريَّان: «اجعلْني على خزائنِ الأرض» وإنما قال يوسف كذا لأنه كان ناظراً إليه بالوفاةِ. فلما اسْتَوى وحكمَ ومرَّت عليه الأيامُ والأعوامُ في الاستيلاء والحكم، واستكملَ أمرَه نسيَ نذرَه. فجـاء جبريـلُ بعـدَ سنـينَ وقال له: «يا بنَ الأكرمينَ المحسنينَ، أُوفِ نذرَكَ». فاستيقـظَ لنفسـهِ، وأقـامَ شَهراً لما يحتاجُ إليه الوليمةُ، وأرسلَ مُنادياً ينادي في الناس ظاهراً فلم يتخلَّفْ عنـه أحـدٌ. فجـاءه جبريـلُ وقال له: «لم يحصلِ المقصودُ». فرجع يوسفُ إلى نفسـهِ وبعث الحجَّـابَ فدارُوا في المـدينة وجاؤوا ومعَهممشايخُ كبارٌ قد منعهم الضعفُ من السعيِ وقـالـوا: «لم يبقَ أحـدٌ». فأراد أنَ يأذنَ للنـاس بالأكل، فهبط جبريلُ عليه السلام وقال له: «قد بقيَ مَن لم يحضرْ». فقال له يوسفُ: «فأين /نطلبُه؟». قال: «بظاهرِ المدينة بيتٌ على ساحـلِ البحـر، وهـوَمن جريـدِ النَّخل، وفيه عجوزٌ عمياء فقيرةٌ، وقد منعَ الله جميـعَ الخلقِ الـذين جمعتَهم لمائـدتـك من الأكـلِ لأجلها، فلا تأذنْ للناس في الأكلِ حتى تحضرَ هذه العجوزَ». قال: فبعثَ يوسفُ عليه السلام حجَّابَه إليها، فقالوا لها: «إن الملك

٣٥/

١ ـ الآية: ٥٥/ يوسف: ١٢.

٢ ـ صحيحة على قراءة.

يدعـوكِ إلى طعـامـهِ؛ الطعـام العـامِّ، لتـدخُـلي تحت الإنعـام». قالت: «لا حاجةَ لي في الـوليمــة، عَيني ملآنــةٌ من الـولائم، وأذني صماء عن لوم الـلائم». فقـالـوا لها: «إنَّ طاعـة الملكِ واجبةٌ عليك». فقالت: «يُفترضُ عليكم إذ كرامتُه واصلةٌ إليكم. فإن أرادَ حضورَنا فليأتِ بنفسِه إلينا». فأتى الحاجبُ إلى يوسفَ مُخبراً له بما كان لهُ من جوابها إلينا فقال يوسفُ عليه السـلام: «إن الملكَ العـلاَّمَ قد منـعَ النـاسَ من الطعام لأجل هذه المعذورةِ المتكلِّمة بهذا الكلام، وسأسعى إليها ساعياً، وأكونُ لأجل الله لها مُراعياً». ثم مشى على أقدامهِ إليها، ولم يزلْ ماشياً على أقدامه حتى أتى إلى بيتها وقال لها: «احضُري أيتُها العجوزُ». فقالت له: «يـايـوسفُ، أين قَولُـك يا سيِّـدتي مِن قولك يا عجوزُ؟ لَعَمري ما عجزتُ عن حمل ما بُليتُ بهِ، وإن ذهبَ المـالُ والبَصـر، والنفسُ على حالهـا لم تُكسَر طالما أَنعمنا عليك، ونَثَرْنا الجواهرَ بين يديك!». فقال يوسفُ عليه السلام: «ما هذا الكلامُ والإذلالُ؟». قيل له «يا يوسفُ، هذهِ زليخاء». فبكى يوسفُ بكاء شديداً رحمةً لها حيث وَصلتْ إلى هذا الحال.

فلما أن حضـرتْ زليخـاء معَ يوسفَ إلى الـوليمـةِ ودخلتِ القصـرَ، وكان ذلك الخبرُ وصـلَ إلى ذلـك الجمـع. فلم يبقَ أحـدٌ إلا قام قائماً لِما سبقَ من إحسانها. /فأمرَ لها يوسفُ بالخُلع والمال. فقالت: «لا رغبةَ لي في ذلك، قد ملكْنا كثيراً من هذا، ولم ينفعْنا. لكن إن قدِرتَ على ما أريـد وإلا رجعتُ إلى البيت الـذي حَمَلْتني منـه، وهو أسترُ إلى حالي». قال لها: «مـا تريـدين؟» قالت: «أريـدُ أن تدعُوَ الله أن يردَّ عليَّ بَصري، وأتمتعَ بنظري. وليسَ هذا بعـزيـزٍ على ربِّـك». قال: فسأل يوسفُ ربَّ العـالمـين في ذلك، فرجعَ إليها بصرُها، فقـالـت: «يـا يوسفُ، إني أطمـعُ أن يجودَ عليَّ بردِّ شبـابي». فسأل الله تعالى في ذلك، فردَّ عليهـا شبـابَهـا. فقـالت: «الآنَ طابَ القلبُ، اللهمَّ إني أريدُ أن أتزوجَ بيوسُفَ». فجاءه جبريـلُ عليـه السـلام، وأمـرَه بزواجهـا، وأوحى الله تعـالى إليه: «قد أكرمْناها لأَجلك، فأكـرِمْهـا لأجلنـا». فكـان هذا الطعامُ؛ طعامُ النذر الذي نذرَهُ يوسفُ، وهو في السجنِ، طعامَ عرسِهِ لأنه تزوج زليخاء، ودَخل بها تلك الليلةَ[1].

٣٥/ب

---

١ ـ استخـدم هذه القصـة شعـراء التصـوف والـرمـز الـديني بتـوسـع. انظر كتابنا الأدب المقارن، فصل «القصص الديني». ويذكر ابن الأثير أن الريان بعد أن أخرج يوسف من السجن زوجه راعيل (الكامل:

فلما أراد أن يدخـلَ تبـاعـدتْ عنه . فكثر ميلُه إليها ولم يقدرْ أن يصبرَ عنها . فدنا منها ثانيـاً ، فتبـاعدتْ عنه . فاشتدَّ شوقُه إليها ، وهجم عليها فلم تُمكِّنْه من نفسِها ، فأخذَ بذيلِ قَميصهـا وجـذَبها إلى عندهِ ، فتأخَّرتْ إلى ورائها . فانقدَّ قميصُها . فبينما هما كذلك إذ نزلَ جبريلُ عليه السلام وقال له : «يا يوسفُ ، قَدٌّ قميصٍ بقميصٍ ، وهربٌ بهربٍ» . ثم إنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء ألَّفَ بينَ يوسُفَ وزُليخـاء ، ومكَّنتْـه من نفسهـا ، حتى رُزِق منهـا أولاداً على عَددِ إخوته . وكان إخوتُه أحدَ عشرَ . فوُلد ليوسفَ من زليخاء أحدَ عشرَ ولداً[1] . وهذا

١/٣٦ آ

/ الأمرُ من عجائبِ قدرةِ الله تعالى .

ويضيف ابن كثير أنه لما دخـل عليها وجدها عذراء ، لأن زوجها كان لا يأتي النساء (قصص ١٤٧/١) . القرآن : ٢٥٠) .

١ ـ وكأنهم أشاروا إلى أنه الولد الحادي عشر من أبناء أبيه يعقوب ، وفي قوله تعالى : إني رأيت أحد عشر كوكباً» .

قصّة داود

ومن قَبيل ما تقدَّم ما وقعَ لسيدنا داودَ عليه السلام بتلكَ المرأةِ، وكانتِ امرأةَ وزيرهِ «أُوريَّـا»[1] وكـان وزيـراً خاطباً عليها، فرآها داودُ فأعجبتْه. فاشتغلَ بها، وطلبَها ليتزوجَ بها قال الله تعالى في حقِّه: «وظنَّ داودُ أنَّما فَتنَّاهُ فاستغفرَ ربَّه، وخرَّ راكعاً وأنابَ»[2].

والقصـةُ في ذلـك على سَبيـل الاختصـار ما رُوي عن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهما أن داودَ عليـه السـلامُ قال: « ياربِّ، اجعلْني مع أجـدادي في رُتبتهم، وأَعطِني ما أَعطيتَهم». فأوحى الله تعالى إليه: «إني لم أبتلِكَ[3] بما ابتليتُ به أجدادَكَ، فأما إبراهيمُ فقد ابتليتُه بالنارِ والنفسِ والولدِ، فلم أرَ منه ما أكرَهُ. وأما إسماعيلُ فقد ابتليتُه بالذَّبح، فسلَّمَ لقضائي. وأما يعقـوبُ فقـد ابتلَيتُـه بالحـزنِ على ولـدهِ يوسُفَ، فرضيَ وصَـبر. فإن شئتَ جعلنـاك بمعـانِيهم». فقـال داود عليـه السلام: «فابتلِني[4] بما شئتَ يا ربِّ، وأَدخلْني في دَرَجتهم». فأوحى الله تعالى إليه: إني مُبتليك في شهرِ كذا، في يومِ كذا». قال: فجعلَ داودُ يتحرَّى ذلك الشهرَ وذلك اليومَ. وخلا بنفسهِ، وجعلَ الحرسَ على بابه، وكانوا ثلاثةً وثلاثينَ ألفَ فارسٍ، وقيـل: أربعـةَ آلافٍ. و وكل الحـراسَ بالأبـواب، ولبس داودُ الصـوفَ ودخـلَ المحرابَ، وفتح الزَّبورَ فوضعَه بينَ يديهِ.

فبينـما هو في نُسكـه إذ وقـعَ طائـرٌ بينَ يديـهِ فحسِبَـه داودُ مِن ذهبٍ، فمدَّ يدَه ليتناولَهُ

---

١ ـ هو من أصل حثيٍّ، وكان قائداً في جيش داود. اسم زوجته «بتشبع»، وهي التي ولدت له سليمان.

٢ ـ الآية: ٢٤ / ص: ٣٨.

٣ ـ في الأصل: لم أبتليك.

٤ ـ في الأصل: فابتليني.

٣٦/ب ويـدفعَـه إلى بُنيٍّ له صغـيرٍ. فوثبَ الطائرُ وخيَّم[1] في موضعٍ / آخرَ. فقام إليه داودُ، فوضعَ نظرَه إليه، وقد خيَّمَ على كوةٍ ـ أي طاقةٍ ـ فقام داودُ إليها فوقعَ نظرُه في بستانٍ فيه أشجارٌ. فرأى امـرأةً لم يرَ الـراؤونَ أحسنَ منهـا جَمالاً وحُسناً. فتحسَّر داودُ وأُعجبَ بها. فرأتْ ظلَّه، فانتفضَتْ في شَعرِها، وغطَّتْ وجهها[2]، فازدادَ بذلك عجباً، فرجع. وكان له تلميذانِ من بني إسـرائيـلَ، فدعـا أحـدَهُما وقال له: «اذهبْ وانظرْ حالَ المرأةِ والبستانِ، وهل هيَ ذاتُ زوجٍ أمْ لا». فذهب ورجعَ وقال لداودَ عليه السلام: «إنها امرأةُ أُورِيَّا».

قال مقـاتـل: وكـان أُوريا غائباً في غزاةٍ مع أيوب بن صوريا ابن أختِ داود. فكتبَ داودُ إلى ابن أختهِ أنِ أمرْ أوريا أن يذهبَ إلى أرض البلقاء[3]، فليقاتلْ أهلُها حتى يفتحَها أو يُقتلَ. قال: فقاتلَ حتى قُتل. وهذه روايةُ مقاتل، لكن قال سعيدُ بنُ المسيب رحمه الله: سمعتُ علياً رضي الله عنـه يقـول: «مَن حدَّثكم بحـديثِ داودَ على تَرويـةِ[4] القُصَّـاص جلدتُه مئةً وستين جلدةً، لأنه جَلدُ الفِرية[5] أي المفتري على الأنبياء» فأضعفه.

وقـال الإمـام النسفيُّ في تفسـيرهِ: وقيـل إنـما كانتْ زلَّتـه أنـه تمنَّى أن يتـزوجَ بامرأةِ أوريـا. .[6] فيهـا من غيرِ قصـدٍ من داود. فأُخـبر داودُ بقتلِ أوريا، فلم يخرجْ. فعاتبَهُ الله على ذلك.

وقـال الإمـام أبـو منصـور رحمـه الله تعـالى: أمَّا وقوعُ الطائر بقربٍ منه، ونظرُهُ إليه وإعجابُه، وأُلهم بأخذهِ فيحتملُ أن يكون لتعريفهِ حالَه، وكذا الذهابُ في طلبهِ والنظرِ إليه أنـه مِن أين وإلى أين وإلى ماذا صارَ / يحتمـلُ أن يكـونَ في ذلك معذوراً كما كانت الطيورُ ٣٧/آ

---

١ ـ خيم بالمكان: أقام.

٢ ـ ابن الأثـير: بينـما كان يلاحق الحـمامـة أشـرف على امرأة تغتسل فأعجبه جمالها، فلما رأت ظله جللت نفسها بشعرها فاستترت به فزاده ذلك رغبة (الكامل: ١/ ٢٢٤).

٣ ـ البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان.

٤ ـ روى الشعر تروية: حمله على روايته.

٥ ـ فراغ قدر كلمتين، ولايخالف كثيراً في المعنى.

٦ ـ الفرية: الكذب واختلافه.

حُشـرت إليـه، وسُخِّرت في التسبيح معَه، والطاعةُ له. فجائزٌ أن يكونَ له البحثُ عن حال ذلك الطائرِ على حسب ما كان من سليمانَ عليه السلام حتى تَفقدَ الطيرَ. فقال: «مالي لا أرى الهدهدَ، أم كانَ من الغائبين؟»[1].

وكذلك وقع بصره على تلك المرأة فكان بلا قصدٍ من داود، فكان معذوراً فيه، وميل قلبِه لحسنها وجمالها، فذلك من غيرِ تكلُّف. وأما إدامةُ النظر إليها فلأنَّه لا يحتملُ أن يكونَ ذلـك من نبيٍّ من الأنبيـاء النظـرُ إلى ما لا يحلُّ، بلِ إلى ما يحلُّ النظـرُ إليـه. وكـذلك بعثُه زوجَها في الجهاد، فهو أيضاً غيرُ محتملٍ، لكنه بعثَه ليجاهدَ أعداء الله تعالى، وكان ذلك فَرضاً عليهِ، وقُتل في الجهاد مِن غير أن يتوهَّم قتلَه وهلاكَه.

قال الإمـام أبـو منصـور: فإن قيـلَ: كيف عُوتبَ هذا العتـابَ حتى بعثَ المـلائكةَ للخصومةِ عنده تمثيلاً لحالِهِ، وتقريراً لذلك عندَه، ثم أخبرَ أنَّه غُفرله بعدَ طولِ المدة إن كان معذوراً في ذلك غيرَ مؤاخَـذٍ به؟ قيـل: إنَّ الأنبيـاء يؤاخذون بأدنى شيء كان منهم ممَّن لا يؤاخَذُ غيرُهم بذلك، بل يُعدُّ ذلك منهم مِن أرفعِ الأعمال وأجلِّها، نحوَما عُوتب يونسُ في خروجـهِ من قومـهِ ليسلمَ له دينُـه ونفسُـه، لكنـه خرج بلا إذنٍ كان من الله تعـالى فعوتب. كذلـك جازَ أن يكـونَ عتـابُ داودَ لأن ما فعـلَ فعلَهُ بغـيرِ إذنٍ من الله تعـالى. ثم في بَعثِ المـلائكـة لهُ وجـوهٌ من الحكمـة وأنـواعٌ من الفائدة؛ أحدُها جوازُ الحجّابِ والحرسِ / حين دَخلوا عليـه، والثـاني رفـعُ الحجابِ عن نفسهِ والجلوس للقضاء في طلب الخصوم، لا على وقتِ إدخـالـهِ لنفسـهِ حيث دخلَ في باب الخصومةِ بلا إذنٍ منه. والثالث قدرةُ الملائكة على التصـوُّر بصـورة البشر، وذلك يردُّ على الفلاسفة قولَهم بخلافهِ. ثم قولُ الخصمينِ: «بغى بعضُنا على بعضٍ»[2] وكذا وكذا، ولم يكن عندهما تكذيبٌ بل هو تمثيلٌ وتشبيه، أي ولو كانا أخـوينِ لأحـدِهما كذا نعجـةً، وللآخـرِ نعجـةٌ واحـدة، فغلب صاحبُ النعـاج الكثيرةِ[3] صاحبَ النَّعجة الواحدة، فأَخذها منه ليس يكونُ ظلماً، فيكونُ معنى قولِهِ: «خصمانِ» أي

٣٧/ب

١ ـ الآية: ٢٠/ النمل: ٣٧.

٢ ـ الآية: ٢٢/ ص: ٣٨.

٣ ـ في الأصل: الكثير.

نحن في صورةِ خصمين بغَى أحدُهما على الآخر وذلك التسعُ والتسعون نعجةً على التمثيل لنساء نبيِّ الله داودَ. وكانت نساؤه بهذا العددِ. والعربُ تُكنيٍّ عن النسوة بالنعاجِ والبقرةِ والنوق.

وقيل: إنَّه لم يكن منه إلا خطبتُها إذ ليس في الآيةِ إلا قوله تعالى: «اكفلْنيها وعزَّني في الخطاب» ولم يقُلْ في الاستيلاء. وقيلَ: إنه كانتْ زلتُه أنه سألَ عنها، فقيل: إنها فارغةٌ من الأزواج فخطبَها. وكان خطبَها غيرُه قبلَه، فكانت خطبتُه على خطبةِ أخيهِ، فعوتب في ذلك. وعلى هذا قولُه: «وعزَّني في الخطاب»[1] أي في خطابِها بالخطبة.

وقال محمدُ بنُ جرير الطبري: القصةُ على ظاهرها والخصمان كانا من الإنس ولم يكونا من الملائكة وقعتْ لهما هذه الخصومةُ على الحقيقة، فاستعجلا في الوصولِ إلى نبيِّ الله بالتسوُّر في المحرابِ، ولم ينتظرا خروجَه، ولا إذنَ الحجاب. وكان هذا من سوء / الأدبِ فاستنكره داودُ، وسخط عليهما. ثم مال قلبُه إلى المدَّعي لترقيقهِ في الكلام. فعجلَ في الحكمِ قبلَ مسألةِ الخصم فقال: «لقد ظلمَك بسؤالِ نعجتك إلى نعاجِهِ»، فكان ذلك زلتَه، إذ كان الواجبُ عليه الاحتمالَ منهما، وأن لايعجلَ في القضاء. وقال تعالى: «فظنَّ داودُ إنما فتنَّاه» أي وقعَ له في غالب الظنِّ أنه أخطأ فيما فعلَ وأنا فتنَّاه بذلك. فاستغفر ربَّه، وخرَّ راكعاً، وأنابَ، «فغفرْنا له ذلك» أي فغفرْنا له ذلك دليلٌ على ما قلناه. فإنَّ قولَه ذلك إشارةٌ إلى المذكور قبلَه، وهو ما ذُكرَ في الآية قبلَ شيء آخرَ، وكذلك ما بعدَه. /٣٨

وقال تعالى: «ياداودُ، إنا جعلناكَ خليفةً في الأرض»[2] أي صيرَّناك في الأرضِ ما بينَ العباد خَلفاً عما كان قبلك فيها من الأنبياء، «فاحكمْ بين الناسِ بالحقِّ» أي فامنعْ المتنازعين بعضَهم من بعضٍ بما أمر الله به عن ذلك، فإنه الحقُّ الذي يجب العملُ به. «ولا تتبعِ الهوى» يريدُ هذا وإن كان ما ذكرناه جائزاً.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فإن قيلَ: ماالحكمة في ذكرِ زلاتِ الرسلِ عليهم الصلاةُ السلام، والله سبحانَه وتعالى وصف نفسه بأنه غفورٌ أي ستور. وقد أَمرَنا بالستر

---

١ ـ الآية: ٢٣/ ص: ٣٨.

٢ ـ الآية: ٢٦/ ص: ٣٨.

على من ارتكبَ ذنباً، فيكف ذكرَ هو زلاتِ رسلهِ وأنبيائهِ حتى تقرأ زلاتُهم في المشاهدِ والمكاتبِ بأعلى صوتٍ إلى يوم القيامة؟ قلنا: لذلك وجوهٌ؛ أحدُها أن يكونَ آيةً لرسالتهِ، لأن قلوبَ الخلق لاتحتملُ ذكرَ مساوىء الآباء والأجداد، وذكرَ مساوىء أنفسهم. فإذا ذكرَ رسولُ الله ﷺ ذلك دلَّ على أنه من أمر الله. والثاني ذكرُ زلاتهم امتحاناً منه عبادَه. أم كيفَ يعاملون رسُلَه بعدما عرفوا / منهم الزلاتِ، وكيف ينظرون إليهم بعينِ الرأفةِ والرحمة، يَمتحنُه بذلك على ماامتحنَهم به عن سائرِ المحن، ليعلمَ الخلقُ أن سائرَ الرسل كيف عامَلوا ربَّهم عند ذُنوبهم؟ مِن ذلك البكاء والتضرعُ إلى الله تعالى والتوبة. والرابعُ أن يكونَ ذكرَها ليعلمَ أن ارتكابَ الصغيرةِ لاتُزيلُ الولايةَ، ولا تخرجُ من الإيمان ردّاً على الخوارج. والخامسُ أن يكون ذُكر ليعلمَ أن الصغائرَ ليستْ بمغفورةٍ، والله له أن يعذبَ عليها ردّاً على المعتزلةِ. وكلُّ هذا ذكره الإمامُ أبو حفصٍ الكبيرُ في تفسيرهِ.

٣٨/ب

وقال أيضاً في تفسير قولهِ تعالى: «وخرَّ راكعاً وأناب»[1] أي ساجداً أربعين يوماً وليلةً يبكي حتي نبتَ العشبُ من دموعهِ. فأوحى الله إليه: «إنا قد غفرنا لك».

ورُوي أنه ماشَرب. . .[2]. وقيل: أَغلق داودُ يومَ خوفِ الابتلاء على نفسهِ أبوابَ الدار، لكن لم يمكنْه أن يغلقَ على نفسهِ أبوابَ الأقدار. وقولهُ تعالى: «ولاتتَّبعِ الهوى فيُضلَّك عن سبيل الله»[3] أي لايعدلُ بك الهوى واتباعُه عن الطريقِ المُفضي بالسالك إلى رضوانِ الله تعالى. وقولهُ: «إن الذين يَضلُّون عن سبيلِ الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحساب»[4] أي نسوا يومَ القيامةِ الذي يحكم الله فيه بين عبادهِ بالحقِّ، بخلافِ ماحكموا في الدنيا.

وهذا النسيانُ هو التناسي والتغافلُ. ثم هذا الخطابُ من قولهِ: «ياداودُ» إلى هَهُنا يحتملُ الاستخلافُ بعد التوبة عليهِ، ويحتملُ أن يكون معناهُ: «ياداودُ، إنا جعلناك خليفةً

---

١ ـ الآية: ٢٤/ ص: ٣٨.
٢ ـ ساقط نصف سطر من الأصل.
٣ ـ الآية: ٢٦/ ص: ٣٨.
٤ ـ تتمة الآية: ٢٦

في الأرض. فأنتَ على ذلك، فاحكمْ بين الناس بالحقِّ» / . هذا آخرُ ماذكره النسفيُّ في ٣٩/أ
تفسيرهِ، ونقلَه عن الأئمة قبلَه.

وذكر الإمام أبو الفرج ابنُ الجوزيِّ رحمه الله في كتابه «شَوق العروس» أنَّ داودَ عليه السلام كان قبلَ الخطيئةِ إذا أراد أن يَقرأ في الزبورَ صعدَ على الجبل، ويقرأ. فيرفرفُ الطيرُ على رأسهِ، وتجتمعُ الوحوشُ حولَه، وتسبحُ معه الطيورُ والوحوشُ والجبالُ، وتضجُّ الجبالُ بالتسبيح لربِّ العالمين «وإنْ من شيء إلا يُسبح بحمدهِ»[1]. فلما وقعتْ منه الزلةُ تفرَّقتْ منه الوحوشُ والطيورُ، وانقطع عنه تسبيحُ الجبال، وتغيرَّت نعمتُه. فبكى وشكا ليلاً ونهاراً، وهو ساجدٌ حتى نبتَ العشبُ من دموعهِ، فسجدَ أربعين يوماً يبكي وينادي في سُجوده: «وأخطيئتاهُ، تركتْني خطيئتي كالغريقِ الذي ليس له مَلجأ، واخطيئتاهُ! تركتْني خطيئتي كالسقيم ليسَ له دواء، واخطيئتاه! كيفَ تُقلُّني الأرض أو تُظلني السماء، واخطيئتاه! بمثلِ خطيئتي لم أسمعْ ولم أرَ، خلَّق وجهي ذلُّ الخطايا، أو ثَقَتْني خَطيئتي. ياعليمُ بقصَّتي دُلَّني على حيلتي».

كان داودُ عليه السلام له وقتٌ يجدُ فيه اللذةَ مع الله تعالى. فلما وقعتْ منه الزلَّةُ زال عنه ذلك، فبكى وشكا ونادى: «ياسيدي مأبكي على نفسي إذْ ماتتْ، إنما أبكي على لذةٍ قد فاتَتْ». سمع النداء: «ياداودُ، أمَّا الذنبُ فمغفورٌ، وأما الودُّ فغيرُ مردود، ولايعودُ». وجاءه جبريل عليه السلام فقال: «ياداودُ ارفعْ رأسكَ». قال: «لاأرفعها حتى يغفر لي ربي». قال الله تعالى: «فغفرْنا له ذلك، وإنَّ له عندنا لزُلفى وحسنَ مآب»[2]. فناداه جبريلُ: / «ياداودُ ارفع رأسَك فقد غُفر لك، ولابدَّ من الوقوف بينَ يديَ الحيِّ القيوم، ويقتصّ من الظالم للمظلوم» قال: «ياجبريل، الآنَ طابتْ نفسي وطاب البكاء، وقلَّ الغرامُ». ٣٩/ب

وذكر في صدور المجالس لابن الجوزي أيضاً: نظر داودُ نظرةً فبكى حتى نبتَ العشبُ من دموعهِ. فقيلَ له: «ماتطلبُ ياداودُ؟» قال: «التوبةَ». وكان يؤتى بالاناء ناقصاً

---

١ ـ الآية: ٤٤/ الإسراء: ١٧.

٢ ـ الآية: ٢٥/ ص: ٣٨.

فلايشـربُ منـه حتى يتمّمَـه بدموعهِ. أسكتَ الحمامَ بنوحهِ، وأعرضَ عن صَدحِها بصوتِه. قيل له: «مالكَ ياداودُ؟ أجائعٌ أنتَ فتطعَمَ أم عطشانُ فتُسقى؟ أم عُريانُ فتكسى؟». فلما رأى ذنبه لم يُغفرْ صاحَ صيحةً أحرقت العشبَ بنفسه حشى سبعَ عدولٍ بلا رمادٍ، ثم بكى حتى بلَّها بدموعهِ.

خرج داودُ إلى الـبريَّـة ينـوحُ في بني إسـرائيلَ، وكانوا ثلاثين[1] ألفاً، فرجعَ في عشرة آلافٍ، ومـاتَ عشـرون ألفـاً من سماعِ نَوحـهِ. وقـال ابنُ الجـوزي أيضـاً في كتـابـه صَبـا [نجـدٍ][2]: إنَّ الله تعـالى يقـول لداودَ يومَ القيـامـة في الجنـة: «يـاداودُ، مجِّدني بصـوتـك الرَّخيم». ورُوي أن صوتَه كان يعدلُ تسعةً وتسعين صوتاً من المزاميرِ. وكان إذا قرأ في كتابهِ الزَّبور يقفُ الماء عن جَريانه. وهذا كان قبلَ أن يقعَ في الزلةِ. فلما وقع فيها تغيرتْ أحوالهُ، وصار يبكي ويقول: «ويحَ صَوتي بين أصواتِ العارفين العابدين!».

ورُوي أن الله أوحى إليـه: «يـاداودُ، اذهبْ إلى قبرِ أُوريـا واسألْه أن يحالِلـكَ من زَلَّتك، فإني سآمرهُ أن يجيبَك من قبرهِ». قال: ففرحَ داودُ بذلك، فذهب داودُ إلى قبرِ أوريا وناداهُ «ياأوريا». فأجابه / بإذن الله: «لبَّيك، من تكون؟» قال: «أنا نبيُّ الله داودُ». قال: «وماتريدُ ياداودُ؟». قال: «أريدُ أن تجعلَني في حلٍّ بما وقعَ مني في حقِّك». قال: «جلعتُك في حلٍّ من ذلـك». قال: فرجـعَ داودُ عليـه السـلامُ مستبشراً. فأوحى الله إليه: «هل أعلمتَ أوريـا ياداودُ بما فعلتَ؟ وأنـك تزوجتَ امرأتَه بعد وفاتهِ؟». قال: «لايارببِّ». قال: «ارجعْ وأعلمـه بذلـك». فرجـع إليـه داودُ، وناداهُ: «ياأوريا» ثانياً. فأجابه، قال له: «اجعلني في حلٍّ». قال: «أمـا جعـلتـكَ في حِلٍّ؟». قال له: «تـعـلمْ ما فعـلتُ بعـدَكَ؟». قال: «ومـافعلتَ؟». قال: «تـزوجتُ بامرأتِك». فسكتَ أوريا ولم يتكلمْ ولم يُجبْ بجوابٍ. فعندَ ذلـك رجـع داودُ باكيـاً حزينـاً كئيباً. وصارَ يبكي الليلَ والنهار، وأقامَ على ذلك مدةً طويلةً يتضرَّعُ إلى الله تعالى، ويسألُه المغفرةَ. فنزلَ جبريلُ عليه السلامُ وأخبرَه أن الله تعالى قد غفـرَ له، وسيُرضي عنه أوريا يومَ القيامة بفضلهِ وكرمهِ. قال الله تعالى: «فغفرْنا له ذلك،

٤٠/آ

---

١ - في الأصل: ثلاثون.

٢ - فراغ في الأصل، أضفناه من كشف الظنون: ٢/ ١٠٧٠، وهو مختصر في الموعظة.

وإنَّ له عندَنا لزلفى وحسنَ مآب».

فانظرْ ماجرى لداودَ عليه السلام من الحزن والبكاء والهمِّ الدائم حتى رُوي أنه ماالتذَّ بطعامٍ ولاشرابٍ ولانوم، ونُغِّصت عليه معيشتُه، وصارَ مغموماً مهموماً قرينَ الحزن والكمدِ، إلى أن ماتَ عليه السلام. وكان يقول: «الله اغفرْ للخاطئين حتى تغفرَ لداودَ معهم». وهذا كلُّه بسببِ نظرةٍ وقعتْ منه لتلك المرأةِ بغيرِ اختيارٍ منه. فدعتْه تلك النظرةُ إلى التزوُّج بتلك المرأةِ الذي كان خاطباً عليها.

وقيل: إن داودَ عليه السلام لما عَلم بقتل زوجها لم يهتمَّ عليه[1] كما اهتمَّ بقتل غيرِهِ حتى تزوَّج بها بعدَه. وقيل: إنَّ أُوريا لما خَطب / عليها سأله داودُ أن ينزلَ عن خطبتهِ فأبى. فلما قُتل أوريا تزوَّج بها داودُ، فعاتبَه الله عزَّ وجل على ذلك. وحصل له ماحصلَ بسببها نعوذُ بالله من ذلك، ومن الفتنِ، وعصَمنا وإياكم من كيدِهن بمنِّه وكرمِه، آمين.

٤٠/ب

---

١ - لم يهتم عليه: لم يحزن عليه.

قصَّة سُليمان

ومن قبيـل ذلـك ماوقـع لسليـمانَ عليه السلام[١]، وذلك أنه غزا ملكاً كافراً من ملوك الكفار فقهرهُ وسبى ابنتَه على مارواهُ قتادةُ أحدُ المفسرين رحمه الله تعالى . فلما صارتِ ابنةُ الملك عندَه أعجبته، وامتُحن بها، فاصطفاها من بين نسائهِ[٢] . وكان اسمُها جَرادة . فأنزلها في مكانٍ وحدَها، وكان يدخُل عليها كما يدخُل على نسائه . وكان سليمانُ عليه السلام قَتل أبـاهـا حين أبى أن يُسلم[٣] . فلما اشتـدَّ حزنُهـا على أبيهـا واشتاقتْ إليه، واستوحشتْ إليه قالت لسليمان، لما علمت محبتَه لها : «يانبيَّ الله، إني رأيتُ أن تأذنَ لي أن أتخذَ صورةً على صورةِ أبي، فإني لست أتمالكُ شوقاً إليه، فلعـلَّ ذلـك يخففُ عني ماأجدُه من الشوق إلى رؤ يتـهِ برؤ يتي إلى صورتـه» . فأذن لها في ذلك . فصوَّرت صورةً على صورةِ أبيها، وعلَّقت تلك الصورةَ في بيتها، وجعلتْ تلك الصورةَ على هيئة الصَّنم . فاشتدَّ بها الأمرُ حتى عبدتْه من دون الله تعالى . ولم يكن لسليمانَ علمٌ بشيء من ذلك . فكانت تعبدُ تلك الصورةَ في دارِ سليـمانَ . وشـاع أمـرُهـا بين الناس، حتى وصلَ إلى آصفِ بن بَرخيًّا[٤] . وكان عالماً فاضلاً

---

١ ـ كان لداود عدد من الأولاد، لكنه ملَّك سليمان بعده لأنه وعد زوجته بثشبع أن يخلفه ابنها ولا سيما حينما خانه ابنه ابشالوم . وقد بدأ سليمان حكمه بزواجه من ابنة فرعون (قاموس الكتاب المقدس : ٤٨١) .

٢ ـ يروى أن له سبع مئة زوجة وثلاث مئة سرية .

٣ ـ سبى سليمان جرادة من إحدى جزائر البحر يقال لها صيدون، وأبوها سلطان الجزيرة (الطبري : ١/ ٤٩٦) .

٤ ـ اسمه العبري «آساف» أي الجامع . وقد سأل آصف نساء سليمان فأنكرن تصرف سليمان الجني فعلم أنه ليس هو. واسم الشيطان صخر وهو صاحب البحر (الطبري : ١/ ٤٩٨ ـ ٩٩) .

زاهداً عابداً . وكان ابنَ خالة سليمانَ عليه السلام . وكان يعرفُ الاسمَ الأعظمَ ، وهو الذي أتى بعرش بلقيسَ من اليمن إلى البيتِ المقدس أسرعَ من طرفةِ عينٍ ، وكان / وزير الإنس ، وكان يجلسُ عن يمينِ سليمانَ ، كما كان الدمرْياطي وزيرُ الجن يجلس عن شمال سليمان . قال : وأقامتْ بنتُ الملك تعبدُ ذلك الصنمَ أربعين يوماً . فلما بلغ خبرُها لآصفِ ابن برخيا . قال لسليمان : «يانبيَّ الله ، إني أريدُ منك أن تأذنَ لي أن أصعدَ على المنبر وأعظَ الناسَ بحضورك» . فأذن له سليمانُ في ذلك . فلما صعد آصف بنُ برخيًا على المنبر ، وجعل يذكرُ قصةَ كلِّ نبيٍّ ، ويذكر فضائلَه . وابتدأ بقصةِ آدمَ عليه السلام ، ثم بقصة إدريسَ ، ثم بقصة نوح ، ثم بقصة إبراهيمَ ، ثم بقصة موسى . فلما وصل إلى سليمانَ عليه السلام سكتَ ونزلَ عن المنبر ، ولم يذكر قصتَه . فقال له سليمان : «لِمَ لاتذكرُ قصتي مع قصص الأنبياء؟» . فقال : «أنا لاأذكرُ قصةَ مَن في بيته مَن يعبدُ غيرَ الله تعالى» . فقال سليمان : «الله أكبر ! كيف يكون هذا؟» ونهض قائماً وأسرع إلى منزلِهِ ، وهو في غايةٍ من الغيظ ، ودخل على ابنةِ الملك ؛ سَرِيَّتهِ . وكان دخولُه عليها في غيرِ يومها . فوجد الصنمَ بينَ يديها ، وهي تعبدُه ، فضربَها ضرباً مؤلماً ، وكسرَ ذلك الصنمَ وحرقَه[1] .

[41/أ]

وكان سليمان إذا أجنبَ أو دخلَ الخلاء نزع الخاتم من إصبعهِ ، وأعطاه لبنتِ الملكِ جرادةَ ، فإذا خرجَ من الخلاء أو اغتسل أعطتْه الخاتمَ ، وكان مُلكه في خاتمه ، إذا لبسهُ عكفتْ عليه الطيورُ والوحوشُ والإنسُ والجنُّ . وكان في زمانهِ جنيٌّ ماردٌ شيطانٌ اسمهُ صخرٌ الماردُ ، وكان متمرداً عاصياً على سليمانَ . فجاء سليمانُ يوماً ، ودخلَ الخلاء ، وأعطى الخاتمَ لجرادةَ . فجاء صخرُ الجنيُّ إليها في صفةِ سليمانَ عليه السلام ، وطلب منها الخاتمَ ، فناولتْه له ، فلبسَه/ ومضى إلى كرسيِّ سليمان فجلس عليه . فعكف عليه الطيورُ والوحوشُ والجنُّ والإنسُ ، وحكم بين الناس . فاعتقد[2] الناسُ أنه سليمانُ . فلما خرج سليمانُ من الخلاء طلبَ الخاتمَ من جرادةَ فقالت : «أنتَ أخذتَه مني» . فقال : «لا والله» . فقالت : « ماأنتَ

[41/]

1 ـ تذكر شروح التوراة أن سليمان انساق إلى بناء معابد الأوثان إرضاء لنسائه في أواخر أيامه . ويروي ابن الأثير انها رجته أن يعمل لها الشياطين صورة لأبيها (الكامل : ١/ ٢٣٩) .

2 ـ في الأصل : فاعتقدوا .

سليمانُ، إن سليمانَ على كرسيِّه يحكمُ بين الناس».

وصار سليمانُ كلُّ من قال له من قومِهِ: أنا سليمانُ، لا يصدِّقُه. فعرفَ سليمانُ أن الله ابتلاهُ. فأقام على ذلك أربعينَ يوماً، وصار الملكُ لصخرٍ المارِدِ. فلما طال الأمرُ على الناس، وتغيرتِ الأحكامُ عليهم أنكروا حكمَه، وقالوا: «هذه الأحكامُ لا تشبهُ أحكامَ سليمانَ». فشكَوا أمرهم إلى آصفِ بن بَرخيا فقال لهم: «أنظرُ في أمرِهِ وأمضي إليه، وأستعيذُ بالله من الشيطان الرجيم، وأقرأُ شيئاً من التوراة بحضرتهِ، فإن كان سليمانَ فهو يقرأ معي، وإن كان هو غيرَ سليمانَ فهو يهربُ ولا يسمعُ كلامَ الله تعالى». ثم مضى إليه آصفُ بنُ برخيا. فلما جلس استعاذَ بالله من الشيطانِ الرجيم وقرأ شيئاً من التوراة، طارَ الشيطانُ عن كرسيِّ سليمان. فكان سليمانُ في تلك الأربعينَ يوماً يخدمُ في بستانٍ عند حاجبِهِ. فلما كان ذلك اليومُ الذي هرب فيه صخرٌ الماردُ اجتازَ صاحبُ البستان برجلٍ صيادٍ، واشترى منه سمكةً كبيرةً وحملها إلى منزلِهِ، وأمر زوجتَه بإصلاحها ليُفطرَ عليها هو والذي عندَه في البستان، أعني سليمانَ عليه السلام. فأخذتْها المرأة، وشقَّت بطنَها، فرأتْ فيها خاتماً فأخذتْه ولفَّته في كمِّها، واشتغلتْ بإصلاح السمكةِ، فأصلحتْها فلما فرغت امرأة صاحب البستان من عمل السمكة واستوت قدَّمتها / إلى زوجها. فجلسَ يأكلُ هو وسليمانُ. فبينَما هما يأكلان إذ أخرجتِ المرأة من كمِّها الخاتمَ، وناولتْه لزوجها، وقالتْ له: «إني وجدتُ هذا الخاتمَ في بطنِ هذه السمكة». فناولَه الرجلُ لسليمانَ، فعرفَه سليمانُ، ولبسَه في إصبعهِ. فعكفَت عليه الطيورُ والوحوشُ والإنسُ والجن. ٤٢/آ

فخرج سليمانُ إلى كرسيِّ مملكتهِ وجلسَ عليه، وردَّ الله عليه ملكَه، ورجعَ إليه حالُه كما كان. فعندَ ذلك قال: «ربِّ اغفرْ لي وهبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، إنك أنتَ الوهَّابُ»[1]. قال الله تعالى: «فسخَّرنا لهُ الريحَ تجري بأمرِهِ رُخاء حيثُ أصابَ والشياطين، كلَّ بنَّاء وغوَّاص، وآخرين مُقرَّنين في الأصفاد، هذا عطاؤ نا فامنُنْ أو أَمسِكْ بغير حساب، وإن له عندنا لزُلفى وحسنَ مآب»[2].

---

١ ـ الآية: ٣٥/ ص: ٣٨

٢ ـ الآيات: ٣٦ ـ ٤٠/ ص: ٣٨.

قال الإمام النسفيُّ في تفسيره: يُحتملُ أن سليمانَ عليه السلام سألَ ربَّه أن يهبَ له ملكاً لاينبغي لأحدٍ من بعده[1] . الذكر والثناء الحسن في الخلق. وكذلك كان التماسُ المرسلين. قال الخليلُ عليه السلامُ: «واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخرين»[2]. وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إن عفريتاً من الجنِّ تغلبَ عليَّ البارحةَ، ليقطعَ عليَّ صلاتي، وإن الله تعالى أمكنني منه. ولقد هممتُ أن أربطَه إلى ساريةِ المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم ـ وفي رواية: تلعبُ به أولادُ المدينة ـ فتذكرتُ قولَ أخي سليمان: ربِّ اغفرْ لي، وهبْ لي ملكاً لا يَنبغي لأحدٍ من بعدي».

وقوله تعالى إخباراً عن سليمان: «إنك أنتَ الوهابُ» أي المعروفُ /بكثرةِ الهباتِ ٤٢/ا للعباد. وقيل: إنما سألَ مثلَ هذا الملكَ لينالَ ثوابَ الملوك العادلين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عدل ساعةٍ خير من عبادة سنة». وقيل: سأل ذلك لعلمهِ أنه لا يقومُ به غيرُه مثلَه لينصفَ المظلومَ من الظالم، وليعمَّ البلادَ، وينعشَ العبادَ، ويظهرَ الرشادَ، ويقطعَ الفسادَ. ولذلك كان يأكلُ خبزَ الشعير، ويعملُ صنعة الخُوص[3]، ويأكلُ من كدِّ يدهِ، ويجلس مع المساكين.

وقوله : «لاينبغي لأحدٍ من بعدي» قال أبو عبيدةَ: «لا ينبغي» لا يكونُ، فاستجابَ الله دعاءه. وقوله: «فسخَّرْنا له الريحَ» أي ذلَّلناه لهُ. وقوله «تجري بأمرهِ رُخاء» أي سهلةً لينة. وقوله: «حيث أصابَ» أي حيث أرادَ سليمانُ من البلاد والمواضع.

وقال قتادةُ: «رخاء» أي سريعةً طيبةً حيث أراد. وقال الحسنُ: كان يغدو من إيلياء[4] ويقيلُ بقزوينَ ويبيتُ ببابلَ. وقوله: «والشياطين» أي سخَّرنا له الشياطين. وقوله: «كلَّ بنَّاء وغواص» أي فسخَّرناهم له، فبعضُهم كانوا يبنون الأبنيةَ العظيمةَ المرتفعةَ، وبعضهم كانوا يستخرجون له من البحارِ الجواهرَ واللآلىء والحليَ الثمينة.

---

١ ـ فراغ في الأصل قدر كلمة
٢ ـ الآية: ٨٤/ الشعراء: ٢٦
٣ ـ الخوص: ورق النخل، والخوّاص بائعه والخياصة عمله.
٤ ـ إيلياء: اسم بيت المقدس.

وقـال مقـاتـل: كان سليمانُ أولَ مَن استخرج اللؤلؤَ من البحر. وقوله: «وآخرين» أي من الشياطين آخرين «مُقرنين» أي مقيَّدين في القِران[1]. «في الأصفاد» أي الأغلال، والواحدُ صَفد؛ بفتح الفاء. وقال السُّدِّيُّ: كان يجمع أيديَهم وأعناقَهم في السلاسل. وقال الإمام أبو منصور: كان مَن امتنعَ من العمل له من البناء والغواص وغيرِ ذلك قيَّده بالغلِّ، ليدفعَ شرَّه عن الخلق. وقولُه: «هذا عطاؤنا فامنن» أي فأعطِ ما شئتَ أو أَمسكْ، / أي امنعْ منه ما شئتَ ومَن شئتَ. «بغير حسابٍ» أي بغير تُبْعةٍ عليك. «ولا سؤالٍ عنه» أي لم يُقل[2] لك: أعطيتَ؟ ولِمَ أمسكتَ؟. وقيل: «بغير حسابٍ» أي فامننْ عليَّ مَن شئتَ. «فأطلقْه ولا تستعملْه، أو أَمسكْه» أي احبْسه واستعملْه بغير حساب، لا نحاسبُك على مافعلتَ ولانسألُك عنه لَمَ فعلتَ؟ أو هلاَّ فعلتَ؟ وقوله: «وإن له عندنا لزُلفى» أي لَقُربى في المنزلة يومَ القيامة. «وحسنَ مآب» أي مرجع، وهو الجنة.

٤٣/آ

---

١ ـ القَرْن: ج قرون وقران، الحبل المفتول من لحاء الشجر.

٢ ـ في الأصل: يقال.

قصَّة جالوت

ومن قَبيل ماتقدَّم ماوقع لداودَ عليه السلام مع ملكٍ في زمانه يُسمى «جالوت» الذي ذكره الله تعالى في القرآن في سورة البقرة[1]. والقصةُ في ذلك: أنَّ بني إسرائيلَ أقاموا مدةً طويلةً بغير ملكٍ أي سلطانٍ يحكمُ بينهم، ولايقاتلُ في سبيل الله على مارَواهُ ابن عباس رضيَ الله عنهما. وكانت النبوةُ في سبط لاوي بن يعقوبَ[2]، والمُلكُ في سبطِ يَهوذا بن يعقوب[3]. وكان الملكَ يعملُ بأمرِ نبيٍّ أزمانهم، فصار يعملُ برأيِهِ. ومضى على ذلك مدةٌ، وكثرتِ المعاصي في بَني إسرائيلَ. وصارَ الملكُ لايطيعُ النبيَّ في مايقولُه. فسلَّط الله عليهم جالوتَ وقومَه.

وكان بنو إسرائيل لبثوا أربعينَ سنةً بأحسنِ حال. وكان الله تعالى وضعَ عنهم القتالَ، وكفاهم مؤونةَ العدوِّ. وكان جالوتُ عظيمَ الجثةِ، شديدَ الشَّوكة. وكانت خوذتُه التي على رأسهِ ثلاثَ مئةِ رطلٍ من حديد. وكان بنفسهِ يُساوي في الشجاعة والقتالِ مئةَ فارسٍ. وكان جندُه ثمانِ مئةِ ألفِ فارسٍ. فبارزَ بني إسرائيلَ، وقصدَهم في ديارِهم. وكان عندَهم تابوتٌ[4] من عهدِ موسى عليه السلام فيه سَكينةٌ، كما قال الله تعالى: «فيهِ سكينةٌ

---

١ ـ وذلك في الآيات: ٢٤٦ ـ ٢٥١.

٢ ـ لاوي: معناه «المقترن» وهو ثالث أبناء يعقوب أمه ليئة.

٣ ـ وهو أشهر الأسباط.

٤ ـ فيه بقية مما ترك موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فكانوا لايلقاهم العدو فيقدمون التابوت إلا هزم الله العدو (الكامل: ١/ ٢١٤). قيل: هو طشت من ذهب يغسل فيه قلوب الأنبياء، وهو من در وياقوت وزبرجد..

من ربكم وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هارونَ تحملُه / الملائكةُ»[1]. فإذا وقعَ القتالُ بين بني /٤٣
إسـرائيـلَ وبـينَ أعدائهم أخرجوا التابوتَ ووضعوهُ بين الصفَّين، فتحصل السكينةُ وتطمئنُّ
قلوبُهم للقتالِ وينتصرون.

فلما طغَـوا وأفسـدوا وكثُـرت مَعـاصيهم سلَّط الله عليهم جالـوتَ وقـومَـه، فأخرجوا
التـابـوت، فلم تسكُن قلوبُهم، ولم يَسكنوا للقتال. وأخذَهُم الرعبُ لكثرة مَعاصيهم. وقَتل
جالــوتُ منهم مقتلةً عظيمــةً وسَبى نسـاءهم وذراريهم، وأسـر من أبنـاء مُلوكهم أربـعَ مئـةٍ
وأربعين غُلاماً، وغَنم سائرَ أموالهم، وحَمل تابوتَهم وأخرجَهم من ديارهم. ومضى على ذلك
زمانٌ فجاؤوا إلى نبيِّهم شموئيلَ بن بلقاتا[2]، واسمُ أمِّه حنَّة. وهومن نسلِ هارونَ أخي[3]
موسى، صلواتُ الله وسلامه عليهم. فقالوا له: «ابعثْ لنا ملكاً نُقاتلْ في سبيل الله». قال:
«هـل عَسيتم إن كُتب عليكُم القتـالُ ألاَّ تقـاتلوا؟»[4] قالوا: «ومالنا ألا نُقاتلَ في سبيل الله،
وقـد أخـرجنا من ديارنا وأبنائنا..» إلى آخر الآيات[5] فقالَ لهم نبيُّهم شَموئيل: «إنَّ الله قد
بعثَ لكم طالـوتَ ملكـاً». قالـوا: «أنَّى يكـونُ له المُلكَ علينـا ونحن أحقُّ بالمُلك منه، ولم
يُؤتَ سَعةً من المال؟».

والقصـة في ذلـك أن الله تعـالى بعثَ عصـاً إلى نبيهم وقال له: «مَن كان طولَ هذه

---

١ ـ الآيـة: ٢٤٨/ البقـرة: ٢. وكـان هذا حالهم من لدن توفي يوشـع بن نون إلى أن بعث الله أشمـوئيل وملكهم طالوت وردّ عليهم التابوت.

٢ ـ اسم أول نبي بعـد موسى، وشمـوئيـل وصمـوئيل معناه العبري: اسم الله. ويلفظ كذلك: سموئيل وأسموئيل. في منطقة غزة وعسقلان (قصص القرآن: ٤٧٨) وفيه أنه ابن هلفاقا. ابن الأثير: كان جالوت ملك النعانيين، هاجم بني إسرائيل وضرب عليهم الجزية وأخذ منهم التوراة، فدعوا الله أن يبعث لهم نبياً يقاتلون معه. وكان سبط النبوة هلكوا فلم يبق منهم غير امرأة حبلى فحبسوها في بيت خيفة أن تلد جارية فتبـدلهـا بغـلام. فولدت غلاماً سمته أسموئيل، ومعناه: سمع الله دعائي (الكامل: ١/ ٢١٧) وهذا جائز فيصبح شبيهاً بإسماعيل في المعنى.

٣ ـ في الأصل: أخا.

٤ ـ الآية: ٢٤٦ / البقرة: ٢.

٥ ـ تتمة الآية: ٢٤٦.

العصـا فهـوا ملكُهم». فجعـل يقتـدرُ النـاسُ بها، فلم يبلغْ أحدٌ ذلك حتى جاء يوماً رجلٌ اسمُه طالوتُ، وسُمي به لطولهِ عن أبناء جنسهِ. وهو طالوتُ بن قيس بنِ حراز من أولاد بنيامين[1] بن يعقوب، شقيقِ يوسُفَ. ولم يكن طالوتُ من سِبط الملك، وكان يحترفُ بحرفةٍ دنيَّـة. قيـل: إنـه كان تارةً سقَّـاء، وتارةً دباغاً يدبغُ الجلودَ، وتارةً يكون مُكارياً[2]. فضلَّ حمارٌ له ذاتَ يومٍ، فجعـل يطـوفُ الأمكنـةَ عليه. فانتهى مع غلامٍ له إلى دارِ نبيٍّ لهم وهو شَمـوئيـلَ. / فقـال له غلامُـه: «تـدخـلُ إلى هذا وتـزورُه، وتسألُـه الدعاء عسى يَدعولنا بحـاجتنـا فتُقضى». ففعـلا ودَخـلا عليـه. فنظر إليه نبيُّهم فوقع في قلبهِ أنَّه المرادُ، فقدَّر به العصا، فكان على قَدرِ طولها، وكان أطولَ أهل زمانهِ، يعلوعلى كلِّ طولٍ برقبتهِ ورأسهِ، ويبلغ أطولَ القوم بصدرهِ، فلا يجاوزُه...

٤٤/آ

فقـال لهم نبيُّهم: «هـذا الذي أقامَه الله عليكم ملكاً فأَطيعوه، وقاتِلوا معه عدوَّكم. فقالوا مُتعجبين من ذلك: «كيف يكونُ له الملكُ علينا، ونحن من سبط الملوك، ونحن أحقُّ بالمُلكِ منه؟»، أي أُولى بالرئاسة عليه، دونَه بالرئاسة علينا؟ «إنا نحنُ من بيت الملوك، ولم يُؤتَ سَعةً من المال، ولم يُعطَ ثروةً وكثرةً». فقال لهم: «إنَّ الله اصطفاهُ عليكم، أي قالَ لهم نبيهم، إن الله اختـارَه عليكم». وأصـلُ الاصطفاء أخذُ صفوةِ الشيء ونفادُ ماسِواهُ. أي لم يكن له نسبٌ، فلهُ فضيلةٌ أخـرى، وهي قولُـه تعالى: «وزادَه بسطةً في العلم والجسم»[3]، وهي طولُ القامة، وعظمُ التراكب، وكمال التراكب[4]، وروعةُ المنظر، وجمالُ الوجه.

وقيل: كان ذلك استجماعَ سائرِ الخصالِ المحمودة النفسانيةِ دونَ عِظم البُنية. أشارَ بذلـك إلى أن الـرئـاسـة لاتُنالَ بالوراثةِ ولا بالثروة، بل بفضائل النفسِ. فإن اجتمعَ إليها

---

١ ـ في الأصل: بنياميل. وبنيامين هو ابن يعقوب من امرأته راحيل، وكان أصغر إخوته. سماه أبوه بنيامين أي: ابن يميني، وكان ولداً مطيعاً محباً لأبيه ولأخيه يوسف (قاموس التوراة: ١٩٢).

٢ . المكاري: مُكري الدواب.

٣ ـ الآية: ٢٤٧/ البقرة: ٢.

٤ ـ في الأصل: التركبة، ولم نجدها. والتراكب: التراكم، فلعلها المقصودة.

النفسُ فهـو مؤكـدٌ لها «والله يُؤتي ملكـه من يشاء»[1] أي الملكُ لله تعالى، فهوَيضعُه كيف يشاء من غير عِلة، أي الملكُ له. وقد شاء وضعَه في طالوتَ، فلا اعتراضَ عليه «والله واسعٌ عليم»[2]، أي واسعُ الأفضال، كاملُ الاقتدار، عالمٌ بمواضع الاختيار.

وقيـل: إنهم كفـروا بتكـذيب نبيِّهم. وقيـل: كانـوا مُؤمنـين لكن تعجَّبوا وتفرَّقوا لمَّا جهلـوا وجهَ الحكمةِ في تمليكهِ، كما قالتِ الملائكةُ على آدمَ: «أتجعلُ فيها مَن يُفسد فيها؟»[3] وقال لهم نبيُّهم: /« إنَّ آيةَ مُلكهِ؛ أي علامةَ سلطنتهِ عليكم أن يأتيكم التابوتُ». ٤٤/ب وكان قومُ جالوتَ أخذوه ـ أي التابوتُ ـ وذهبوا به ودفنوه في مَخْراةٍ لهم. فأبْتَلاهم الله تعالى بالبواسير، وفشى ذلك فيهم، فهلك أكثرْهم، وهلكَ خمسُ مدائنَ. فقالوا: «ماابتُلينا بهذا إلا بفعلنا في التابوتِ». فاستخرجوهُ من القاذورة ووجَّهوه إلى بني إسرائيلَ على بقرةٍ. وفي روايـة: كانـوا وضعـوهُ في بِيعـةٍ لهم، أي كنيسـةٍ، وبـاتـوا. فلمّا أصبحوا دَخلوا بِيعتَهم رأوا الأصنامَ منكَّسةً. وقيل: وضعوهُ تحتَ صنمٍ لهم، فأصبحوا وقد قطعَ به. وكان مَن باتَ في الكنيسـة ونـام أتـاهُ الفأرُ وقـرضَ بطنَـه وأكـلَ أمعـاءه، فيموتُ. فكثر ذلك فيهم، فأخذوه وجَعلوه على بقرةٍ ووجَّهوه إلى بني إسرائيلَ. فبعث الله لهم ملائكةً، فساقوهُ، فإذا التابوتُ بين أظهُرهم، فذلك قولهُ تعالى: «إنَّ آيةَ مُلكهم أن يأتيكُم التابوتُ فيه سكينةٌ من ربِّكـم»[4] أي ماتسكنُ به قلوبكم، ويَقوى به رجالُكم بالنصرة والغَلبة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: السكينةُ دابَّةٌ قَدْر الهرة لها عينانِ لهما شعاعٌ إذا نظرتْ إلى شيء ذُعـر[5]. وكـانـوا إذا حضـروا بها العـدوَّ أطلعتْ رأسَها من التابوت وحركت يديْها وصاحتْ بأعلى صوتٍ فيولُّون هِراباً من الرعب. وكان التابوتُ من الصَّندل مُموَّهٍ بالذهب،

---

١ ـ الآية: ٢٤٧/ البقرة: ٢.

٢ ـ تابع الآية: ٢٤٧.

٣ ـ الآية: ٣٠/ البقرة: ٢.

٤ ـ الآية: ٢٤٨/ البقرة: ٢.

٥ ـ قال الزجاج: فيه ماتسكنون به إذا أتاكم. وقيل: إنه كان فيه رأس كرأس الهر، إذا صاح كان الظفر لبني إسرائيل. وقيل: إن السكينة لها رأس كرأس الهرة من زبرجد وياقوت ولها جناحان (اللسان).

وقيل: مِن . . .[1] الذي هو مُتخذٌ من الأمشاط. قال الله له: «كن فكانَ»، كما قال لألواحِ موسى: «كوني» فكانتْ من الزمرُّد. وكان قدر التابوتِ مايحملُه رجلان. وقال ابنُ مُنبِّه: كان التابوتُ أكثرَ من ثلاثةِ أذرعٍ في ذراعين.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كان للسكينةِ وجهٌ كوجهِ الآدميِّ، وهي ريحٌ هَفَّافةٌ[2]. / وقال مجاهدٌ: كان لها وجهٌ كوجهِ الهرَّة، وجَنَاحان. فكانت تهبُّ على الأعداء فتفرِّقُهم. وقال الكلبي: كانت السكينةُ من زبرجدٍ وياقوتٍ كأنها رأسُ هرةٍ «وبقيةٌ مما تركَ آلُ موسى وآلُ هارونَ»[3] أي أشياء تركها موسى وهارونُ وآلُ الإنسانِ نفسهُ. قال الله تعالى: «إنَّ الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمين»[4]. وأُضيفَ إليه كما يضافُ الإنسانُ إلى نفسهِ. وهذه البقيةُ هي عصا[5] موسى من آسِ الجنة. وعمامةُ هارونَ ورضراضُ[6] الألواح، وقفيزٌ[7] من المنِّ في طَشتٍ من ذهبٍ وخاتمُ سليمانَ. «تحملُه الملائكةُ»[8] أي تنقله.

45/آ

وقيل: كان حَمْلُهم سوْقَ البقر. وقيل: بل حَملوه في الهوى حتى وضعوه في بيتِ طالوتَ. «إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين» أي في إتيانِ التابوتِ علامةٌ واضحةٌ على صدق قولِ نبيكم في أن الله تعالى بعثَ طالوتَ مَلكاً فإنه أمرٌ ناقضٌ للعادة. «إن كنتم مؤمنين» أي مُصدِّقين بالله فصدِّقوا.

فلما رأوا الآية انقادوا لطالوتَ. وهيأ طالوتُ الأسبابَ، وعبَّأ الجيشَ وأخذَ الأهْبةَ،

---

١ ـ فراغ قدر كلمة، لعلها «العاج».
٢ ـ ريح هفافة: طيبة ساكنة.
٣ ـ الآية: ٢٤٨/ البقرة: ٢.
٤ ـ الآية ٣٣/ آل عمران: ٣.
٥ ـ في الأصل: عصاة.
٦ ـ الرضراض: ماصغر من الحصى ودق.
٧ ـ قفيز: مكيال. والقفيز من الأرض: قدر مئة وأربع وأربعين ذراعاً.
٨ ـ تتمة الآية: ٢٤٨/ البقرة: ٢. ومابعدها كذلك.

وتَميَّر و[1] للخروج. أوحى الله تعالى إلى شموئيل أن «ادعُ إيشًا[2] والدَ دوادَ عليه السلام، واسألـه أن يعـرضَ عليكم أكـبرَ بَنيهِ». فدعا إيشًا أكبرَ أولادهِ. فلما نظر إليه أعجبه حسنُه، فنوديَ: «ليس هذا هو». فعرض عليه ستةً، وفي كلٍّ ينادي: «ليس هذا هو». فقال: «هل لك ولدٌ غيرُهم؟». فقال: «نعم، لي ولدٌ غلامٌ يرعى الأغنامَ». فقال: «أرسلْ إليه». فلما جاء داودُ، وهو يحاذي رأسَ كلِّ واحدٍ من إخوته. فأوحى الله تعالى إلى النبي أشْموئيل[3]: هذا هو الذي يقتلُ جالوتَ.

فلما جاء داودُ من عندِ غنمهِ / وجدَ حجراً في طريقهِ، فناداهُ الحجرُ: «ياداودُ، خذني تقتـلْ بي جالـوتَ». فأخـذه وجعلَه في مخلاتـهِ. فناداهُ حجرٌ آخر فجعلَه في مخلاتهِ فلما دخلَ داودُ على طالـوتَ قال له: «أنـا الـذي أقتـلُ جالـوتَ». وأخـبرَه بشأن الحجـارة، فقـال له طالوتُ: «وهل أحسستَ في نفسك قوةً؟». قال: «نعم، وقع الذيبُ في غنمي فرضختُ[4] رأسـه فقتلْتـه». قال: «فهـل غيرُ ذلـك؟». قال: «نعم، عَدا عليَّ الأسـدُ فأخـذتُ لحييـهِ فشدختهما وفككتهما». /٤٥

وقال مقاتل: قال ذلك النبيُّ لطالوتَ: «إن الله تعالى سيبعثُ من قومك رجلاً يقتل جالـوتَ». وأعطى النبيُّ وهـو أشمـوئيـلُ لطـالـوتَ دِرعاً وقال له: «مَن سَبلتْ عليه[5] هذه الـدرعُ فلم تَقصـرْ عنـه ولم تطـلْ فهـو يلي قتـلَ جالـوت. فاجعلْ له نصفَ مُلكك ونصفَ مالِكَ». فبلغَ ذلك لداودَ، وهو يرعى الغنمَ. فاستودعَ الغنمَ ربَّه وخرج إليهم، وذكرَ قصةَ الأحجـارِ الثـلاثـةَ كما مرَّ. فأتى لطالوتَ فقال: «أنا أقتلُ جالوتَ بإذن الله تعالى، أتجعلُ لي

---

١ مار وأمار عياله: أتاهم بالطعام والمؤونة، والميرة: الطعام.

٢ ـ وفي كتب اليهـود هو «يسَّى». وفي الكـامـل (١/ ٢١٩): وكـان فيهم إيشى أبوداود ومعه أولاده ثلاثة عشر ابناً، وكان داود أصغر بنيه.

٣ ـ يرى ابن الأثير أن النبي الذي وقف عنده طالوت يسأله هو: يوشع بن نون أو اليسع أو أشموئيل بن بالي.

٤ رضخ: كسر.

٥ ـ سبُل السِّتر: أرخاه.

نصفَ مُلكـك ومـالِـك إن قتلتُ جالـوتَ؟». فقـال: «نعم، وأزوِّجـك ابنتي. البسْ هذه الـدرعَ». فلبسَهـا فطـالتْ، فانتفضَ فقلصَ منها. فجعلَ يدعو الله، ثم ينتفضُ، فتقلصُ الدرعُ، ففعل ذلك ثلاثَ مراتٍ، فاستوتْ عليه الدرعُ. فعلم طالوتُ أنه يَقتلُ جالوتَ.

قال مقاتل: وكان داودُ خفيفَ النَّظر، أعمشَ العينينِ، قصيرَ القامة. وقال عِكرمَةُ: لما رأى[1] بنـو إسـرائيـلَ الآياتِ، أي العلاماتِ، تسارع القومُ إلى الخروج. فقال طالوتُ: «لاحاجةَ لي في كل ماأرى، لايخرجُ بنا.... [2] ولاصاحبُ تجارةٍ مشتغلٌ بها، ولارجلٌ عليه الـدَّين، ولارجـلٌ تزوج بامـرأةٍ / ولم يدخْـل بها، ولا أبتغي إلا الشـابَّ النشـطَ الفـارغ». ٤٦/آ فاجتمع إليه ثمانون ألفاً على ماشرطَه، وخلَّفَ سائرَ القوم. فلما انتهى القومُ بطنَ الأردنِّ قال لهم: «إن الله مُبتليكم بنهـرٍ»، وذلـك قولُـه تعالى: «فلما فصلَ طالوتُ بالجنودِ قال: إن الله مُبتليكم بنهرٍ»[3] أي مُمتحنكم ومختبرُكم. والنهرُ بفتح الهاء وتسكينها. (فجرت النهرَ الـواسـعَ)[4]، وكـلُّ ثلاثيٍّ حشوهُ حرفُ حلقٍ، فتسكينـهُ وفتحَه لغةٌ كالشَّعْر والشَّعَر، والنَّحرْ والنَّحرَ، والدَّأب والدأب.

وكان في جندِ طالوتَ المخلصُ والمنافقُ، فميَّز بينَهما كالذَّهب والفضة؛ فيهما الخبيث. فميـز الخـالصَ من غيرِهِ بالنـار. فقـال طالـوتُ: «فمن شربَ منـهُ فليسَ مني، ومَن لم يطعمْـه فإنـه مني»[5] أي فإنكم ستعطشون في المفازةِ، وتَنتهون إلى نهرِ ماء، فمن لم يصبرْ على العطشِ وقـعَ فيـه، فيشـربُ منه كرعاً، فليسَ على ديني، وليس على مَذهبي، وليس بوليٍّ لي، أولا يصحبني». وقوله تعالى: «ومَن لم يَطعمْه فإنه مني» أي: ومن لم يشربْ. والطعمُ: الذوقُ؛ ويقعُ على الأكل والشرب. وقولُه: «إلا من اغترفَ غرفةً بيدهِ»[6]. قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو

---

١ ـ في الأصل: رأوا.

٢ ـ فراغ في الأصل قدر كلمتين.

٣ ـ الآية: ٢٤٩/ البقرة: ٢.

٤ ـ التركيب غامض، ولكن في النص نقصاً.

٥ ـ الآية: ٢٤٩/ البقرة: ٢.

٦ ـ تابع الآية: ٢٤٩، وكذا مابعدها.

عمرو بفتح الغين. وقرأ الباقون بضمها. والغرفُ: أخذُ الماء بالكفِّ. والغُرفةُ هيَ العليةُ؛ قطعةُ من البناء، استثناء من الشرب الممنوع من هذا النوع، وهو الأخذ بالكف والتناولُ منه. قال تعالى: «فشربوا منه إلا قليلاً منهم» أي مرَّ بهم في مفازةٍ معطشة. فلما انتهوا إلى النهر شربوا[1] كرَعاً إلا قليلاً منهم، وهم ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشر رجلاً على عددِ أهل بدرٍ. فإنهم اغترفوا فشربوا بالكفِّ ورَوَوا. والذين خالفوا ازدادوا عطشاً. / وقيل: انفتحتْ بطونُهم، وماتَ من ذلك سبعون ألفاً. وقيلَ: بقُوا جميعاً، لكن لما عرف طالوتُ الموافقَ من المخالف، خلَّف المخالفين واستتبعَ الموافقين. وقال: «إذا لم تُوافقوني في محاربةِ الأعداء الأشداء». «فلما جاوزَه هو والذين آمنوا معه قالوا: لاطاقةَ لنا اليومَ بجالوتَ وجنوده»[2]. ٤٦'

وسُمي جالوتاً لجلاوته[3]. قال ضُعفاء اليقين: لاقوةَ لنا ولاقدرةَ على مُقاتلتهم ومُقابلتهم. «قال الذين يظنون أنَّهم مُلاقو الله»[4] أي قال الذين يعلمون ويستيْقنون أنهم راجعون إلى الله تعالى في القيامة، ويُجزَون بأعمالهم: «كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذنِ الله»[5]. و«كم»: كلمةُ تكثيرٍ. و«مِن»: كلمةُ تأكيدٍ. و«الفئة»: الطائفةُ وأصلها من: فأتُّ رأسهَ فأواً أي قطعتُه. والطائفةُ من الناس: قطعةٌ منهم. وقيل: هيَ من الفيء، وهو الرجوعُ، أي وهم قومٌ يرجعون إلى أمرٍ واحد، ويرجعُ إليهم في الانتصار بهم. وقولُهم «بإذن» أي بتغلُّب الله، كما في قوله تعالى: «وماكان لنفسٍ أن تموتَ إلا بإذن الله»[6]، أي الإماتَة. وقيل: معناهُ هنا بنصرةِ الله تعالى.

قوله تعالى: «والله معَ الصابرين»[7] أي: فاصبروا فإن الله معينُ الصابرين

---

١ - في الأصل: فشربوا.
٢ - تابع الآية: ٢٤٩.
٣ - جالوت: اسم أعجمي، ولانرى شرحه.
٤ - تابع الآية: ٢٤٩.
٥ - تابع الآية: ٢٤٩.
٦ - الآية: ١٤٥/ آل عمران: ٣.
٧ - تابع الآية: ٢٤٩، والآية من طويلات الآيات.

وحافظُهم. وقال مقاتلٌ: قالتِ العصاةُ الذين كَرعوا من النهر ولم يصبروا: «لاطاقةَ لنا اليومَ بجالوتَ وجنودِهِ». قال أصحابُ المعرفة في الردِّ عليهم: «كم من فئةٍ قليلةٍ. . .» الآية.

قال مقاتلُ بنُ حِبَّانَ: كانَ فصلُ طالوتَ بالجنودِ وهم سَبعون ألفاً فأطاعَه في النهر أربعةُ آلاف، ونافقَ ستةٌ وستون ألفاً. فلما قالوا: «لاطاقةَ لنا اليوم بجالوتَ وجنوده» نافقَ أربعةُ آلافٍ إلا ثلاثَ مئةٍ / وثلاثةَ عشرَ. قوله تعالى: «ولما بَرزوا لجالوتَ وجنودِهِ»[1] أي ظهروا للقتال. والبُرَّازُ في الأرض العُصاةُ. قال الله تعالى: «وترى الأرضَ بارزة»[2] أي ظاهرةً لامُستظلة فيها. «قالوا: ربَّنا أفرغْ علينا صَبراً»[3]. أي صُبَّ علينا. وهو عبارةٌ عن الإكمال والإكثار. «وثبِّتْ أقدامَنا»[4] أي في موضعِ القتال، كيلا تزلَّ ولا تَزولَ. «وانصرنا على القوم الكافرين» أي أَعنَّا عليهم وامنعْنا منهم. ٤٧/آ

قال الإمام القشيريُّ: طلبوا الصبرَ والثباتَ أولاً، ثم النُّصرةَ، وهو حفظُ النفسِ. ثم أشارَ إلى أنهم طَلبوا النصرَ لا الانتقامَ منهم لفعلهم بهم، بل لأنَّهم كفارٌ وأعداء لربِّهم عزَّ وجل. قاموا من كلِّ وجهٍ لله بالله، فلذلك نُصروا وظَفروا.

«فهزموهم بإذن الله»[5] أصلُ الهزم: الكسرُ، وجعلُ بعضِ الشيء على بعض. وقيل: الهزيمةُ دفعُ الشيء بقوةٍ، حتى يدخلَ بعضُه في بعضٍ. والمِهزامُ: خشبةٌ يحرَّك بها الحجرُ، فيدفعُ بها بعضُهُ عن بعضٍ. وقيل: هي التفريقُ والتشقيقُ. واهتزامُ الشاة: ذبحُها. وقوله: «بإذن الله» أي بعونِ الله ومشيئتهِ وتسبُّبِهِ أسبابها وتيسيرِه[6] علمَ ما أراد.

و«قتلَ داودُ جالوتَ» قال ابنُ عباس: برزَ داودُ لجالوتَ من ميلٍ. فلما نظر إلى داودَ استضحكَ وازْدرى به فأخذَ الحجرَ ووضعَه في مقلاعهِ، ثم أرسله. فلما انتهى الحجرُ إلى

---

١ - تابع الآية: ٢٤٩.
٢ - الآية: ٤٧/ الكهف: ١٨.
٣ - الآية: ٢٥٠/ البقرة: ٢.
٤ - تابع الآية: ٢٥٠، وكذا مابعدها.
٥ - الآية: ٢٥١/ البقرة: ٢.
٦ - في الأصل: وتيسره، ولعلها كما ذكرنا.

جالـوتَ صار ثلاثـةَ أحجار. فوقع حجرٌ في جبهتِهِ، ووقع حجرٌ في فؤادِهِ، ووقع الآخرُ على خاصرتِهِ، فوقع قتيلاً.

وقـال أبـو العـاليـة: قال جالوتُ لداودَ: «خرجتَ إليَّ بمقلاعك لتقتُلني به كما قتلتَ الكلبَ!». فقال له داود: «هل أنتَ إلا مثلُ الكلب؟» ورماه بالأحجارِ الثلاثة، فوقعتْ في صدرهِ فمزَّقته. فخرجتْ من صدرهِ فقتلَتْه. / وقتلتْ ناساً كثيرة. وقيل: إنهم ثلاثون. ٤٧

وقـال مقـاتل رضي الله عنه: رمى داودُ بالأحجار، وألقتِ الريحُ الخوذةَ البيضةَ، أي الخـوذةَ، عن رأسِ جالـوتَ. فوقعتْ في دمـاغـهِ، وخـرجتْ من تحتـهِ، وانهزمَ الكفارُ. وفي روايـة: رمى بحجـرٍ واحـدٍ فأصابَ في بطنِ جالوتَ، وخرج من أسفلهِ. ورمى بالثاني فقتلَ ثلاثـين رجـلاً. ورمى بالثـالث فجعـلَ يدورُ في عسكرهِ حتى هزمَ عسكرَه. ورُوي أن تلك الأرضَ كان فيهـا من حجـارةِ المغنـاطيس، فجعلتْ تجلبُ كلَّ أحدٍ من عسكرِ جالوتَ كان معه أدنى حديدٍ، فتُثْبتهم حتى جاء طالوتُ بجنودهِ فأخذوهم وغَنموا أموالَهم.

وطلبَ داودُ من طالـوتَ الـوفـاء بالشـرط فقـال له: إن بنـاتِ الملوك لا تُؤ اخـذ إلا بصَداقٍ، وإن صَداقَ ابنتي الظفرُ بأعدائنا. وكان يرجو بذلك أن يُقتلَ داودُ. وكان طالوتُ ندمَ على ماشرط، فغدا داودُ عليه السلامُ للجهادِ، فأسرَ ثلاثَ مئةٍ وجاءبهم إلى طالوتَ. فلم يرَ أن يزوجَه ابنتَه وقصدَ قتلَه.

وقال عكرمةُ: لما ملك طالوتُ الأرضَ المقدسةَ جاءه داودُ يطلبُ ماشَرطَه له، فأعطاه السيفَ وزوَّجـه ابنتَـه. فلما مضى زمانٌ سأله شطرَ الملك فقال: «حباً وكرامةً». فقال جبابرةُ بني إسرائيلَ: «إنْ قاسمه الملكَ كان فيه فسادُ بني إسرائيلَ، لأنه لم يكن مَلكان في قومٍ إلا فسدَ حالُهم وأمْرُهم». فوافق طالوتُ كلامَهم. ولما رأى أهلُ العدل والوفاء منعَ طالوتُ داودَ ودخلوا به. فأتى ذُو العينين، فأخبرهم بمن دخلَ على داودَ، فقال أصحابه: «لاينتهي هذا دونَ أن يثـورَ، بل ومـاتنتظـرُ إلا أن تجمـعَ الذي يريدُ». فرجع الخبرُ / إلى زوجة داودَ بنتِ طالـوتَ أن أبـاكِ يريـدُ أن يقتلَ زوجَك داودَ. فلما اجتمتْ زوجةُ داودَ به، وهي حزينةٌ باكيةٌ قالت له: «إنـكَ مقتولُ الليلةَ». قال: «ومَن يقتلُني؟» قالت: «أبي». قال: «وهل أجرمتُ ٤٨

له جُرمـاً؟». قالت[1]: «حـدَّثني مَن لايكـذبُ: لاتـذهبْ هذه الليلةَ حتى تنظرَ مصـداقَ ذلــك». قال: «إنْ أرادَ أبـوكِ قتـلي فما أستطيـعُ خروجـاً، ولكن ائتيني بزقٍّ من الشـراب، فضعيهِ على السرير. فإن كان أرادَ ذلك بي فسوفَ يظهرُ حالُهُ».

قال: ودخـلَ أبـوهـا قبـلَ العشـاء فقـال: «أينَ بعلُكِ؟». فقـالت له: «نـائمٌ على السرير». فدخل إليه فضربَه بالسيف. فلما وجدَ ريحَ الشراب قال: «ياداودُ لقد طبتَ حياً وميْتاً»[2]. وخرج داودُ حتى لحق بأمِّه، ودخل طالوتُ في الغد ليجهزَه ويخبرَ الناسَ بموته وأن داودَ قُتـل. فلما رأى طالـوتُ أنـه لم يَصنـع شيئاً ولم يبلغْ قصده مِن قتلِ داودَ قال: «إن رجلاً طلبتُ منـه ماطلبتُ، وإني لخائفٌ أن لايـدَعَني حتى يُدركَ مني ثأرَه» فقـال: [لـرجـالـهِ][3] وحـراسـهِ: «أغلقـوا الأبوابَ، وإياكم أن يدخلَ عليَّ أحدٌ». قال: ففعلوا ذلك. فجاء داودُ ليلاً وقد هدأتِ العيونُ وأعمى الله عنه الحجابَ. فدخلَ وهو نائمٌ في فراشهِ فوضع سهماً عند رجليهِ وذهبَ. فلما أصبح ورأى مافعلَ داودُ به استبدلَ بالحجابِ غيرَهُم وقال: «لو أرادَ هذا أن يضعَ السهم في حلقي لفعلَ، وما أنا بالذي تطيبُ أن أعطيَه الذي سألني، وما أنا بالذي أؤمِّنه». فلما كانتِ الليلةُ الثانية دخل ثانياً، وأعمى الله عنه الحراسَ والحجابَ، ووضع إلى جانبهِ سَيفاً. فلما أصبح / ورأى ذلك سلَّط الله على داودَ العيونَ وطلبَه أشدَّ الطلبِ. فأتى ذو العينين فأخبرهُ أنه مع المتعبِّدين في الجبل الفلانيِّ، فانطلق طالوتُ يطلبُه، فتوارى داودُ. فقال طالوتُ للمتعبدين: «أخرجوا إليَّ داودَ، إيتوني به وإلا أهْلكتُكم» فقالوا: «لاندري أين هو؟ فاقتلْ أو دعْ». فقتلَهم جميعاً[4] حتى بقي شابٌّ، فلم يقتلْه وأنس به واتَّخذه لنفسهِ صديقاً.

٤٨/ب

فلما كان بعضُ الليـل قال للفتى: «هـل صاحَ الـديكُ؟». قال له: «وماتريدُ بصياح

---

١ ـ في الأصل: قال.

٢ ـ ابن الأثير: «يرحم الله داود ماكان أكثر شربه الخمرة!» (الكامل: ١/ ٢٢١).

٣ ـ فراغ في الأصل، ولعلها كما ذكرنا أو: لحجابه.

٤ ـ يذكر ابن كثير أن طالوت قتل العلماء لأنهم نصحوه بكف محاولته قتل داود حسداً منه (قصص الأنبياء: ٤٨٣).

الـديـك؟». قال له: «أريـدُ [أن](1) أعلمَ ماذهبَ من الليـل». قال: «وهلْ تركتَ ديكاً إلا قتلتَـه؟ إنـما كان يعـرفُ معـالمَ الليـل قومٌ قتلتَهم، فلم يبقَ مَن يعـرفُ معـالمَ الليل». فبكى طالوتُ ثم قال: «هل عندكَ لي توبةٌ؟» قال: «إنْ أعطيتَني عهداً وأماناً لنفسي أطلعْك على مَن يدلُّك على ماتريد». قال له: «لكَ ذلك». فانطلق به الشابُّ إلى عجوزٍ مذكورةٍ في بني إسـرائيـل بالعلم والصـلاح. وكانت تعرفُ الاسمَ الأعظمَ وتدعو الله تعالى به، فيستجابُ لها. فطـرقَهـا ليـلاً، فقـالـت: «مَن ذا؟». فقـال: «أنـا فلانٌ». قالت: «كيفَ نجـوتَ من طالـوتَ؟ أمعـك آخـرُ؟». قال: «نعم». قالت: «ومن معكَ؟». قال: «طالوتُ». قالت: «إنه قتلَ إخواني في الله تعالى وجئتَ به ليقتلَني؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون». قال: «ياأماهُ إنه جاءكِ ليطلبَ التوبةَ والمخرجَ مما جَنى». قالت: «ماعندي ذلك، ولكن انظرْ إلى بعض مَن في القبـور حتى أدعـوَ لكَ». فانطلقتْ بنـا إلى قبر شَمـوئيـلَ، فصلَّتْ ودعتِ الله تعالى ثم نادتْ: «يـاصـاحبَ هذا القبرِ». فانشقَّ القبرُ فقام وهو ينفضُ الترابَ عن وجهِهِ ورأسِهِ ثم قال: «أنت / طالوتُ؟». قال: «نعم». قال: «مافعلتَ بَعدي؟». قال: «لم أدعْ من الشرِّ شيئاً إلا فعلتُه، وجئتُ أطلبُ التوبةَ». قال: «كم لكَ من الولدِ؟». قال: «عشرةُ رجالٍ». قال: «إنـه لاتـوبـةَ لك مالم تَتجهَّـز بكـلِّ ولدٍ لكَ في سبيل الله، ثم تُقدِّم أولادَك واحداً بعدَ واحدٍ حتى يُقتلوا بين يدَيْك، ثم تكونُ أنت آخرَهم قتلاً». ٤٩

ثم رجـع أشمـوئيلُ إلى القبر، ورجع طالوتُ إلى بيتِهِ، فجمع أولادهُ وقال لهم: «لو رَأيتمـوني أُدفـعُ إلى النـار أكنتم تَفْـدونني؟». قالوا: «نعم». قال: «فافعلوا ماأقولُ لكم». قالوا: «فاعرضْ علينا ماتُريد». قال: «إني عملتُ ماتعملون وأنا أسألُ الله التوبةَ من ذلك فقيـل لي: إنَّ توبتَـكَ أن تتجهـزَ بكلِّ ولدك ومالِك في سبيل الله، ثم تقدِّمَ بَنيكَ حتى يُقتلوا بين يديك، فتحتَسِبهم عند الله تعالى، ثم تكونَ آخرَهُم». قالوا: «وإنكَ لمقتولٌ؟». قال: «نعم». قالوا: «فلا خيرَ لنا في الحياةِ بعدَكَ، وقد طابتْ أنفسُنا بالذي سألتَ».

فتجهَّـزَ بمالـهِ وولـدِه وقـدَّم أولادَه رجـلاً رجـلاً في الجهـادِ حتى قُتلوا جميعـاً، ثم قُتل آخرهُم، فجاء قاتلُه داودَ ليبشرَه وقال له: «قد قتلتُ عدوَّك». فقال له داودُ: «ما أنتَ بالذي

---

١ ـ إضافة المحقق.

تحيا بعدَه». فضرب داودُ عنقَه، ومكَّن الله لداودَ في الأرض، وأعطاهُ مملكةَ بني إسرائيل، فذلك قولُه تعالى: «وآتاهُ الله المُلكَ والحكمةَ»[1] أي الذي كان لطالوتَ من المملكةِ على بني

إسرائيل، فذلك قولُه تعالى: «وآتاهُ الله المُلكَ والحكمةَ»[1] أي الذي كان لطالوتَ من المملكةِ على بني إسرائيلَ. والحكمةُ: النبوة. وجُمع له كلاهُما، وكان قبلَه الملكُ في سبطٍ والنبوةُ في سبطٍ آخر، وقيلَ: الحكمةُ: الزَّبورُ. «علَّمه ممَّا يشاء»[2]. قال الحسنُ: هو العِلمُ في الدِّين. وقيل: هو علمُ صنعةِ الدُّروع، كما قال تعالى: «وعلَّمناهُ صنعةَ لَبوسٍ لكم»[3]. وقال: «وألَنَّا له الحديدَ، أنِ اعملْ سابغاتٍ»[4].

فالمقصودُ / بإيرادِنا هذه القصةَ العجيبةَ ليُعلمَ منها أنَّ ماوقعَ لداودَ عليه السلام مع الملك طالوتَ من حظوظِ الأنفُسِ حتى إنَّ طالوتَ طلبَ قتلَ داودَ عليه السلام حسداً منه على مملكتهِ، وكان سببُ ذلك أنه كان وعدَ داودَ إنْ قتلَ عدوَّه جالوتَ أزوجه ابنتَه وأشركهُ في مملكته. ففعلَ داودُ ما أمره به طالوتُ من قتلِ جالوتَ، ولم يوفِّ له طالوتُ بالذي شَرطَه على نفسه، فكان ذلك سبباً في قتل طالوتَ وقتلِ أولادهِ العشرةِ وفي قتل العبادِ الذين قتلهم طالوتُ، ولم يبقَ منهم غيرُ ذلك الشابِّ. ٤٩/ب

وقد تقدَّمَ أنَّ داودَ لما أن قتل جالوتَ وجاء إلى طالوتَ الملكِ وطلبَ منه الوفاء بالشرطِ الذي شرطه على نفسهِ، فأبى طالوتُ وقال له: «إنَّ بناتِ الملوك لابدَّ لهم[5] من الصَّداق، وأنتَ رجلٌ شجاعٌ إلا أنك فقيرٌ وأنا أُعيرَّ بذلك». ولم يُردْ أن يزوِّجَه ابنتَه وقصدَ قتلَه. وهذه روايةُ مُقاتلِ بنِ سُليمانَ، وهي أشهرُ من رواية عِكرمةَ مَولى ابن عباس. وهذا كلُّه مذكورٌ في تفسيرِ الإمام أبي حفصٍ الكبيرِ النَّسفيِّ رحمه الله تعالى[6].

---

١ - الآية: ٢٥١/ البقرة: ٢.
٢ - تابع الآية: ٢٥١.
٣ - الآية: ٨٠/ الأنبياء: ٢١.
٤ - الآية: ١٠/ سبأ: ٣٤.
٥ - كذا.
٦ - وفي الكامل: ١/ ٢٢١.

قصّة طالوت

ومن ذلك ما وقع لطالوتَ المذكورِ، أنه كان له ابنةٌ، وكانت أحسنَ الناس في زمانها، وكان في زمانهِ عابدٌ صالحٌ يسمى ثَوبانَ العابدَ، وكان أحسنَ أهلِ زمانهِ في الصلاح والعبادة. فمرَّ ثوبانُ العابدُ يوماً على باب الملك طالوتَ: فلما رأته ابنةُ طالوتَ أحبَّته حباً شديداً وامتُحنتْ به فقالت لأبيها طالوتَ: «ياأبتِ أرسلني إلى جبلِ كذا، فإني أحبُّ أن أعبدَ الله هناك شهراً، أَختلي بنفسي وأعبدُ الله حقَّ عبادتِه». فأذن لها في ذلك. فقال: «ابعثْ معي عابداً من عُبَّادِ بني إسرائيل / لعلِّي أقتبسُ منه عِلماً، ويعلِّمني أمرَ ديني، فأزدادُ في عبادةِ ربي». فقال: «لا أعرفُ فتىً أفضلَ ولا أصلحَ من ثوبانَ العابدِ، ولا أعبَدَ منه». فقالت: «يا أبتِ ابعثْ له يأتيكَ وأرسِلني معه». فأرسل طالوتُ الملك. فلما وقفَ العابدُ بين يديهِ قال له الملك: «إني أريدُ منك أن تساعدَ هذه البنتَ على العبادة، وتعلِّمها ما تحتاجُ إليه من أمرِ دينها». فقال له العابدُ: «ابعثْ معها غيري أيُّها الملكُ، فلا حاجةَ لي في ذلك». فقال له الملكُ: «لا بدَّ لك من الخروج معها، ولا آمنُ عليها غيرك». قال: «فأخرِّ الأمرَ قليلاً حتى أُصلحَ شأني». فعاد العابدُ إلى منزله، فقطعَ مذاكيرَه وكوى موضعَ القطع، وانسدَّ العروقُ، ووضع ذلك في حُقٍّ[1] وختم الحقَّ بخاتمٍ يعرفُه، ثم جاء العابدُ بذلك الحقِّ إلى الملك طالوتَ، فقال له: «أيُّها الملك، تريدُ أن تبعثَ معي ابنتَك، فخذْ هذا الحقَّ وأمرْ خازنَك أن لا يُطلعَ عليه أحداً، ودعْه عندك إلى أن أحتاجَ إليه». ٥٠/آ

ثم سارَ هو وابنةُ الملك إلى الجبلِ المذكور، فأقاما يعبدان الله تعالى هناك برهةً من الزمان. فبينَما ثَوبانُ العابدُ في معبدِه إذ دخلت عليه ابنةُ الملك وقالت: «يا هذا، إني فعلتُ

---

١ ـ الحق: الوعاء.

هذا كلَّه حيلةً حتى أصيرَ أنا وأنت في مكانٍ واحد، وإني أحبك حباً شديداً، وإن لم تسمعْ مني وتُواصلني، وإلا تندمَ فإني أرسلُ إلى أبي أقولُ له إنك راوَدْتَني عن نفسي». فلما سمعَ ذلك منها زَجرَها، ووعظَها، وهي مشغولةٌ في حبه. فنزلتْ ذاتَ يوم من مَعبدِها إلى أسفلِ الجبل، فوجدتْ راعياً، فلم تمنعْه من نفسها حتى زَنى بها، فحملتْ منه.

فلما مضى عليها ثلاثةُ أشهر أتى إليها أبوها وأمُّها ليزوراها، فما أَمْهلتْ أن يجلسَ / عندَها أبوها حتى قالت له: «ياأبتِ، أرسَلْتني مع رجلٍ زانٍ فاسقٍ، وقد راوَدَني عن نفسي مراراً، وأنا أمتنعُ منه إلى ليلةٍ من الليالي أتاني على غِرَّة وأنا في مَعبدي، فوقعَ عليَّ وتفاضاني». /٥٠

فلما سمع الملكُ ذلك منها غضبَ غضباً شديداً، ورجعَ إلى منزله وهو في غايةِ الخَذلانِ، وأمر بإحضار سائرِ العباد. فحضروا بين يدَيه فجمعهم وأخبرهُم بالقصة، وما وقعَ من ثوبانَ بأنه قد زَنى بابنتي، وحمَّلني العارَ بين الملوك وأكابرِ الناس. فلا بدَّ من عقابهِ. فقالوا: «أيُّها الملكُ، لا تفعلْ ما بدا لك حتى تَتثبَّتَ في القضية؛ فإن ثَوبانَ من أشرافنا وأفضلنا علماً وعملاً وعقلاً، وحاشاهُ أن يفعلَ شيئاً من ذلك، فأرسلْ إلى ابنتك أيُّها الملكُ نسوةً ينظرْن[1] حالها وما تقولُ». فأرسل الملكُ إلى ابنته فأبصرْنَها وكشفْنَ عن حالها، فإذا هي حاملٌ. فأتَين إلى الملكِ وأخبرْنه بذلك. فأمرَ الملكُ بإحضارِ ثوبانَ في أسوإ حالٍ، والعُبَّادُ حاضرون بين يديْهِ. فلما حضر قال له الملكُ: «أينَ صلاحُك يا ثوبانُ، وأنتَ تَزني ببناتِ الملوك؟ وإني أريدُ أن أقيمَ عليك الحدودَ». فأطرقَ العُبَّادُ رؤوسَهم خجلاً. فقال له ثوبانُ: «لا تفعلْ أيُّها الملكُ شيئاً حتى تُحضرَ لي بالحُقِّ الذي أُودعْتُك إياهُ قبلَ أن أذهبَ بابنتك إلى الجبل لعبادتها».

فأمر الملكُ الخازنَ أن يُحضرَ الحقَّ بين يديْهِ، فلما أحضره الخازنُ نظر[2] إليه ثوبانُ فإذا هو على حالهِ مختومٌ بخُتمهِ. ففتَحه بمجلسِ العُبَّاد، فإذا فيه مذاكيرُه مقطوعةً. ثم كشفَ

---

١ ـ في الأصل: ينظرون.
٢ ـ في الأصل: فنظر.

عن نفسهِ لهم فإذا هو مَجبوبٌ[1]، فتحيرَّ الملكُ والحاضرون من ذلك في أمر ابنته/ .

وفـرح العبـادُ بذلـك فرحـاً شديـداً، وتعجَّبوا من ذلك غايةَ التعجب. فدخل الملكُ ٥١/آ على ابنتـه، وهـدَّدهـا وقال لها: «إنَّ الله فضحكِ لما كذبتِ على وليٍّ الله تعالى. فاصدُقيني الآن وإلا صَلبْتُك». فأخبرتْه بخبر الراعي، فأحضرَ الملكُ الراعي، فأقرَّ بذلك، فأقامَ عليه الحدَّ، وأزْوجَه إياها، ونفاهما.

فانظرْ يا أخي ما يقع من كيد النساء، أعاذَنا الله من كيدهنَّ «إن كيدهنَّ عظيم».

١ ـ جب: قطع.

قصّة خيانة جاريَة

وعن وَهب بن مُنبِّهٍ رضي الله عنه أنه قال: كان لسليمانَ بنِ داودَ عليهما السلام قاضٍ في زمانهِ يحكم بالعدل، وكان صالحاً، يُسمى «ذَهبانَ». وكان له امرأةٌ تزعم أنها صالحةٌ، وكانت تقومُ على رأس زوجها إجلالاً وتعظيماً له. وكانت كلَّما قدَّمتِ المائدةَ تقول: «اللهمَّ اهتكْ سترَ امرأةٍ تخونُ زوجَها». فبينما هي ذاتَ يومٍ وقد قدَّمتْ بين يديهِ سمكةً مَشويَّةً يأكلُ منها قالت[1] على عادتها: «اللهمَّ اهتكْ سترَ امرأةٍ تخونُ زوجَها». وإذا بالسمكةِ قد تحركت حركةً شديدةً، وهمزتْ من الإناء، فسقطتْ على الأرض، فردَّها القاضي إلى الإناء، وقال لزوجتهِ: «قولي ما فعلتِ». فأعادتْ قولها ثانياً وثالثاً، والسمكةُ تهتزُّ من الإناء. فمضى إلى عابدٍ من عُبَّاد بني إسرائيلَ وأوردَ عليه القصةَ. فقال له العابدُ: «يا هذا، هل عندكَ في بيتك مَن تتَّهمه بزنىً؟». قال: «لا، ما في داري إلا جاريةٌ للخدمةِ، اشتريتُها بمالي، وهي وسيدتُها فقط». فقال له: «ارجعْ وافتقدِ الجاريةَ». فكشفَها فإذا هي رجلٌ قد لبس زيَّ النساء. فجعل هذه الحيلةَ لزوجةِ القاضي ليمكثَ معها دَهرَها/.

قال: فطلَّق القاضي زوجتَه، وآلى على نفسهِ أن لا يتزوجَ أبداً. ٥١/ب

---

١ ـ في الأصل: فقالت.

قصّة صاحب الأخدود

ومن ذلـك ما رواه النَّسفي في تفسـيره في سورةِ «والسـماء ذاتِ الـبروج»[1] عن النبيِّ صلى الله عليـه وسلم أنـه سُئـل عن المجـوسِ عُبَّـادِ النار لعنَهم الله تعالى كانوا أهلَ كتاب يَقرؤونه ويعملون به[2] كالإنجيل للنصارى والتوراةِ لليهود. وكان لليهود رجلٌ جبارٌ، فسكر ذاتَ ليلةٍ. فلما غلبَ عليـه السكـرُ قام إلى أختـهِ فواقَعَها وأصابَ منها ما يصيبُ الرجلُ من امـرأتـهِ. فلما صَحـا من سُكـره ندمَ وقال: «كيف المخرجُ مما وقعتُ فيه؟ وكيف الحيلةُ؟ وما يكونُ عَملي وقد جامعتُ أُختي، وهي عليَّ حرامٌ؟». وكأنه خشيَ من كلام الناس ومَعْيَرَتِهم في حقِّه، وخاف أن يلوموه على صُنعهِ، ويَخرجوا عن طاعته بسبب هذا الفعل القبيح. فلما رأتْ أختـهُ ذلـك قالت: «لا بأسَ عليـك ولا تخشَ مما فعلتَ. فأنا أعلِّمك شيئاً تفعلُه، فإن فعلتَـه سَلمتَ من المـلامـة». قال لها: «ومـا هوَ؟». قالت: «تجمـعُ النـاسَ وتخطبُهم خطبةً وتقول فيها: أيها الناسُ، اعلموا أن الله تعالى أحلَّ لكم الأخواتِ. فإذا قلتَ لهم ذلك فلا يَلومونَك إذا علموا بك».

قال: فأطاعَها. فجمع الناسَ وخطبَهم وأَعلمهم أن الله تعالى أحلَّ لهم الأخواتِ. فمن النـاسِ مَن أطـاعَـه في ذلـك، ومنهم مَن عصى أمـرَه. فحفَّـر لمن عصـاهُ أُخدوداً في الأرض، أي شُقوقاً، وملأَها ناراً، فمن تابعَه على نكاح أختهِ تركَه، ومن خالفَه ألقاهُ في النار.

فانظر يا أخي في حيلةِ النساء وكذِبهنَّ على الله تعالى في حِلِّ ما حرَّمَه الله لأجلِ شهواتهم.

---

١ ـ يقصد سورة البروج رقمها ٨٥ والآية: ١.

٢ ـ وكتابهم هو «الأوستا» ونبيهم «زردشت».

ورُوي عن وَهب بن منبِّه/ أنه شقَّ سبعةَ أخاديدَ، طولُ كلِّ أخدودٍ أربعون ذراعاً، ٥٢/
وعرضُه اثنا عشر ذراعاً. ثم طرح فيه النِّفطَ والحطَبَ. ثم عرضَهم عليها. فمن خالفَه قذفَه في النـار، ومن أطـاعَـه خلَّى سبيلَه. فالمجـوسُ لعنَهم الله تعـالى إلى الآن يُبيحـون نكـاحَ الأخـواتِ. فانظـروا رحمكم الله تعـالى عِظَمَ شُؤمِ هذه المـرأةِ وعظَمَ كيـدِهـا وفسادَ رأيها، وكيف أضلَّت ذلك الملكَ وأطْغتْه وغرَّتْه حتى أطاعها في ما أمرتْه به، حتى أمرَ رعيتَه بذلك الفعـلِ الخبيثِ، وخـوَّفَهم بالنـار. وانظـرْ ما يلحقُ هذه المـرأةَ من الـوعيـد الشديد والإثمِ العظيم حتى إن كلَّ مَن وطىء أختَـه من المجـوس لحقَهـا ما يلحقُه إلى يومِ القيامة. فنعوذُ بالله مِن كيدهنَّ، «إن كيدهنَّ عظيم». وعليها ما تستحقُّ من العذابِ الشديد.

قصّة رأس يحيى

ومن ذلك ما وقعَ لسيدِنا يحيى بنِ زكريا عليهما السلام مع ملكٍ من ملوك زمانهِ. وكان ذلك الملكُ جباراً عَنيداً حتى قَتل سيدَنا يحيى عليه السلام. وكان سببُ قتلهِ ابنةَ أختهِ، وذلك أن الله تعالى لما أرسلَ نبيَّه يحيى عليه السلام إلى قومهِ يدعوهم إلى التَّوحيدِ ويأمرُهم بالمعروف، وينهاهُم عن المنكر، فكانَ في ما يَنْهاهم عنه نكاحُ ابنةِ الأختِ وبناتِ الأخ. وكان لملكِهم ابنةُ أختٍ[1] تحبُّه ويحبُّها كثيراً، فأرسل ذلك الجبارُ خلفَ يحيى عليه السلام واستفتاهُ في ذلك، وأرادَ أن يتزوَّجها. فأفتاهُ يحيى أنه حرامٌ عليها، ولا يجوزُ له أن يتزوجَ بها.

٥٢/ب وقال الإمام أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى /في كتابه «درياق القلوب»: إنَّها كان لها على الملكِ كلَّ يوم حاجةٌ مقضيَّةٌ. فلما بلغ الخبرُ إلى أمها «يَعني لا تحلُّ لك» قالت لها: «إذا دخلتِ على الملكِ وقال لكِ: ماحاجتُكِ في هذا اليوم؟ فقولي له: حاجتي عندك أن تذبحَ يحيى». فلما دخلتْ على الملك قال لها: «ما حاجتُكِ في هذا اليوم؟». قالت حاجتي أن تذبحَ يحيى». فقال لها: «سليني غير هذا». فقالت: «ما أسألُكَ غيرَه». فقال لها: «قد قضيتُ حاجَتَك»[2].

قال: فرجعتْ إلى أمها وهي مستبشرةٌ بذلك، وأخبرتْها بأن الملكَ قد أجابَ سؤالَها

---

١ ـ تذكر كتب التاريخ والتفاسير أنها كانت ابنة أخيه. والملك هو هيرودوس حاكم فلسطين، وابنة أخيه التي هويها هي هيروديا (الكامل: ١/ ٣٠٢).

٢ ـ هناك روايات أخرى في سبب مقتل النبي يحيى. انظر قصص الأنبياء: ٥٥٦ نقلاً عن «المستقصى في فضائل الأقصى» لابن عساكر.

ووعدَها بذَبح يحيى. قال: فعند ذلك عمدتْ أمُّها إلى أحسنِ الثيابِ وأفخرِ الزينةِ فألبسَتْها وزيَّنتْهـا وطيَّبتْهـا وأرسلتْهـا إلى الملك. وكـان الملكُ قد أرسـلَ خلفَ يحيى عليـه السـلام، وأجلسَـه بحضـرتـهِ. فلما حضرتْ ابنةُ أختهِ ودخلتْ عليه، ورآها في تلك الحالةِ، مالَ إليها بكليَّتهِ وضمَّها إلى صدرهِ والتفتَ إلى يحيى وقال لهُ: «ما تقولُ، هذه ابنةُ أختي، هل يحلُّ لي أن أتزوجَ بها أم لا؟» فقال له: «لا تحلُّ لكَ أبداً». فقال: «والله إني لا أطيعُك أبداً». ثم صاحَ على أعـوانـه أنْ أمسكـوهُ. فمسكـوهُ وأوثقوه. ثم أُمر بذبحهِ، فذُبح في المجلس. فلما أُصفيَ دمُه أخذَ رأسَه ووضَعها في طبقٍ وأقعدَها فيه. ثم عمدَ الملكُ إلى ابنةِ أختهِ فَواقَعها. وفعلَ بها كما يفعلُ الرجلُ بامرأتهِ وهو مقابلٌ لرأسِ يحيى عليه السلامُ.

وجعـل الملكُ يقـولُ: «من يقول إنَّ ابنةَ الأختِ لا تحلُّ؟» فنطقتْ رأسُ يحيى وهي في الطبَّق، وقالتْ بلسانٍ فصيحٍ: «قلتُ لكَ: لا تحلُّ لك». فلما رأى الملكُ ذلك الأمرَ العظيمَ مِن نُطق الرأسِ / تخبَّلَ في نفسهِ وتحيرَّ في أمرهِ وندمَ على ما فَعل، ولم ينفعْه الندمُ، وانعكسَ عليهِ الحالُ، وأذاقَه الله عظيمَ الوبال. وسلَّطَ الله عليه البَختَ نَصَّر[1]. وكان جباراً عنيداً، فغزاهُ في ثلاثِ مئةِ ألفِ مقاتلٍ من بلاده[2]، حتى جاء إلى بيتِ المقدسِ، فدخلَ المدينةَ في عسـاكـرهِ وجنـودهِ، حتى دخلَ المسجدَ الأقصى وأحرقَ التوراةَ، وخرَّب المسجدَ وألقى فيه الجيفَ والقُـمامـاتِ، وانتقمَ الله منه وقتلَ منهم مئةَ ألفٍ وثمانينَ ألفاً؛ ذَبحهم على دمِ يحيى ابن زكريا[3].

٥٣/آ

وكـان دمُ يحيى يفـورُ فَوراً من حينَ ذبحَـه الملكُ إلى حينَ ذبـحَ عليـه هذا العـددَ، فسكن. فلما سكنَ دمُ يحيى، وأخـذَ الله بثأرهِ سَبى البُختُ نصـرُ من بيتِ المقـدسِ سبعين

---

١ ـ بختنصـر (أو منفصلتـان): ملك حكم البـابلين، أغـار على مصـر وأحرق أورشليم وأجلى اليهود إلى بابل. عاش بين ٦٠٤ ـ ٥٦١ ق.م.

٢ ـ في الأصل: من بلاد.

٣ ـ يروى أن دم يحيى فار وغلى، وظـل يغـلي حتى قيض الله لبختنصـر أن يغـزوهم. فألقى الله في قلبـه أن يقتـل منهم على ذلـك الـدم حتى يسكن، فقتـل منهم سبعـين ألفاً فسكن الدم (الكامل: ١/٣٠٢). لذا نرجح أن واو العطف بين العددين في الأصل هي «أو».

ألفاً، وذهبَ بهم إلى بلادهِ. فكانوا بها سبعينَ سنةً، ثم أنقذَهم الله على يدِ أنطانوس[1]، ثم عادَ أهـلُ بيتِ المقـدس إلى الفسـادِ أيضـاً. فغـزاهُـم البختُ نصـرُ مرةً أخـرى، وخربَ المسجـدَ، وقتـلَ العلماء، وأحـرقَ التوراةَ، وألقى الجيفَ في المسجدِ. وصارتِ المدينةُ خراباً إلى زمنِ سيدِنا عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، فعمَّرَها المسلمون.

قال الله تعـالى في سورة الإسـراء: «وقَضَينـا إلى بني إسرائيلَ في الكتاب لَتُفسدُنَّ في الأرض مرَّتـينِ، ولَتَعلُنَّ عُلوَّاً كبـيراً، فإذا جاء وعـدُ أُولاهُما بَعثنـا عليكم عِباداً لنا أُلي بأسٍ شديدٍ فجاسُوا خلالَ الديارِ وكان وعداً مَفعولاً، ثم رَدَدْنا لكم الكرَّةَ عليهم»[2].

فقـولُـه تعـالى: «وقضينـا إلى بني اسـرائيـل في الكتـاب» أي أَعلَمْناهُـم في التوراة. والإفسـادُ: هو العصيـانُ وهـو ارتكـابُ المحظـورِ أي الممنـوعُ منَ الدِّماء/ والأموالِ. وقولُه تعـالى: «مـرتـينِ» أي دفعتـينِ في زمـانَـينِ مُختلفين. وقولُه: «ولتعلُنَّ عُلواً كبيراً» أي إفراطاً مُجاوزاً للقدرِ عظيماً في الذكر. «فإذا جاء وعد أولاهما، أي الوقتُ المعلومُ المعهودُ لأُلي المرتينِ في الإفسادِ والعلاء، وما أوعدَ عليه من العذابِ. وقوله: «بعثنا عليكم» أي سَلَّطنا عليكم. «عباداً لنا» خلقاً يَجري لنا عليهم سلطانُ العبوديةِ، ولا يمكِّنون بتمكينِنا. وقوله: «أُلي بأس شديـد» أي علماء بالقتـلِ، صابـرينَ عليـهِ. والبأسُ: الحـربُ والقتـال. وقولُه: «فجاسُوا خلالَ الـديـار» أي أَفسَـدوا. وقيل: تَخلَّلوا. وقيل: طافُوا. وقيلَ: هو الاستقصاء في طلبِ الشيء، ومعنــاهُ يستــولــون عليكُم. وإذا انهــزمْتُهم اتَّبعـوكم ودَخلوا بلادَكم بالسيـوف ويَـدخلون البيـوتَ فَيقتلون مَن يَجدون، ويأخـذون مايأخـذون، وهـو أشـدُّ ما يكـونُ منِ استيـلاء الأعـداء. «وكـان وعداً مفعولاً» أي كان ذلك موعوداً من الله، كائناً لوقتٍ معلومٍ عنـدَ الله تعـالى، يفعـلُ فيـه. «ثم رَدَدْنـا لكم الكـرَّةَ عليهم وأَمْددناكم بأموالٍ وبنينَ» أي زِدْنـاكم أمـوالاً، وأعطينـاكُم أولاداً، وجعلنـاكم «أكثرَ نفيراً»[3]أي أعواناً وأنصاراً مِن أهلِ

٥٣/ب

---

١ ـ وهم من المؤلف، ذلك أن الذي أعادهم هو كورش الفارسي عام ٥٣٨ ق. م، أي بعد خمسين سنة من غزوة بختنصر. أما من فضل البقاء في العراق فدعوا «يهود الشتات».

٢ ـ الآيات: ٤ ـ ٦/ الإسراء: ١٧.

٣ ـ تتمة الآية السادسة.

زَمانكم، تَنفرون إلى قتال عدوكم.

فظهر لنا من هذه الآياتِ الكريمةِ أن البُختنصرَ دخلَ بيتَ المقدسِ مرتينِ، وأخذَ بثأرِ سيِّدنا يحيى عليهِ السلامُ، وذُبح على دمهِ مئةُ ألف وثمانين ألفاً قبلَ أن يسكنَ الدمُ عن الغليان.

وتقدَّم أن سببَ قتلِ يحيى تلك المرأةَ التي علَّمتْ ابنتَها أن تَتمنَّى على الملك قتلَ يحيى حتى يتزوجَ بها، وهي ابنةُ أختـه. فطاوعَها الملكُ في ذلك، وكان الملكُ خالها، وذَبح يحيى عليه السلام. /واستسنَّ الناسُ من أهلِ مملكتهِ بُسنَّته، وصاروا يتزوجون بناتِ الإخوة، وصار ذلك حتى سلَّط الله عليهم البختنصر، فقَتل مَن قَتل منهم، وسَبى مَن سَبى، وخرَّب البلادَ، وأهلَكَ العبادَ، ونَهبَ الأموالَ، وذلك بسببِ تَدبيرِ تلك المرأةِ وعِظَم كيدِها[1]. فنعوذُ بالله من كيدِ النساء، «إن كيدَهنَّ عظيم».

٥٤/آ

١ ـ يذكر ابن الأثير أن المرأة حين رأت رأس يحيى في الطست قالت: اليوم قرَّت عيني. فصعدت إلى سطح قصرها، فسقطت منه إلى الأرض، ولها كلاب ضارية تحته، فوثبت الكلاب عليها فأكلتها (الكامل: ١/٣٠٢).

قصّة مقتل علي «رضي الله عنه»

ومن هذا القَبيلِ المرأةُ التي كانت سبباً في قتلِ الإمامِ عليٍّ رضي الله عنه، وذلك أن امرأةً كانت من الكوفة ذاتَ حسنٍ وجمال وبهاء، وقدٍّ واعتدال. وكان الإمامُ علي قَتل أباها وأخاها في وقعةِ «النّهروان»[1]. فخطبَها رجلٌ يقالُ له عبدُ الرحمن بنُ مُلجم، بضم الميم هكذا ضبطه الإمامُ النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات»[2]. فقالت لهُ: «لا أتزوجُ بكَ حتى أشترطَ عليك شَرطاً»[3]. فقال لها: «وما شَرطُكِ؟» قالت: «ثلاثةُ آلافِ درهمٍ فضةً. وعبدٌ ووصيفةٌ، وقتلُ عليٍّ ابنِ أبي طالب، وهو شجاعُ زمانِهِ». قالت: «تهجمُ عليهِ هجمةً، فإن قتلتَه وسَلمتَ ارتاحتِ الناسُ منه ومن شرِّه. وإن أُصبتَ خرجتَ إلى الجنةِ ونعيمٍ لا يزولُ». فأنعمَ لها بقتلِ الإمامِ عليٍّ رضي الله عنه، وتهيأَ لقتلِهِ[4]، وأخذَ سيفَه وذهبَ إلى الإمام، ووقَفَ عند بابِ دارِهِ ينتظرُ خروجَه لصلاةِ الفجر. فصاحَ الإوزُّ في وجهِهِ حين تخيَّلَ به. فصاحتْ عليه الجوارُ، فطردَتْهنَّ. فقال الإمامُ: «دَعوهنَّ فإنهنَّ نوائحُ». ثم قصدَ إلى بابِ الدارِ وفتحهُ وظهرَ منه. فاستقبلَهُ الملعونُ عبدُ الرحمن بنُ مُلجم وضربَه بالسيفِ على جَبهتِهِ، فغاصَ فيها. فصاحَ الإمامُ وقال: «قربَ وربِّ الكعبة، شأنكم بالرجل». فحملَ ابنُ ملجم على الناسِ بسيفِهِ وهاج فيهم. فأفرجُوا له، وتلقاه المغيرةُ بنُ

---

١ - كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي. والواقعة كانت مع الخوارج (معجم البلدان).

٢ - انظر الكتاب: ١/ ٣٠٢. وكان أحد ثلاثة من الخوارج اتفقوا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، والثلاثة هم: ابن ملجم لعلي، والبرك بن عبد الله لمعاوية، وعمرو بن بكير لعمرو.

٣ - اسم المرأة قطام بنت سخبة، وكان علي قتل أباها وأخاها في النهروان.

٤ - شاركه في جريمته شبيب بن بجرة الأشجعي، وضربا علياً جميعاً.

الله في الصلاة فإنها عمدُ دينكم، والله الله في بيتِ ربِّكم فلا تَتركوا ما استعطتُم، والله الله في صَوم رمضانَ فإنَّ صيامَه جنةٌ من النار، والله الله في الجهاد في سبيلِ الله عزَّ وجل بأموالكم وأنفسكم، والله الله في الزكاة فإنها تُطفىء غضبَ الربِّ، والله الله في ذُريةِ نبيِّكُم، فإنه ﷺ، أوصَى بأهلِ بيتهِ وأصحابهِ، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهُم في مَعايشكم وأطعموهم مِن طعامِكم، واكسُوهُم من كُسوتكم، والله الله في ما مَلكتْ أيمانُكم فإنه آخرُ ما تكلَّم بهِ ﷺ أنه قالَ: أوصيكُم بالصلاةِ وما ملكتْ أيمانُكم، ولا تخافوا[1] في الله لومةَ لائمٍ يكفكم[2] شرَّ مَن أرادَكم وبغَى عليكم، وقولوا للناسِ حَسناً كما أمركم الله عزَّ وجل، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر، فإن تركتم يتولَّ[3]/ الأمرَ شِرارُكم، ثم يتولَّ الله خيارَكم، فلا يُستجابُ لكم. وعليكم بالتواصُلِ بينكم، وإياكُم والتدابُرَ والتقاطعَ، وتَعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تَعاونوا على الإثم والعدوان، واتَّقوا الله إن الله شديدُ العقاب. استودعتُكم الله ورسولَه، وأقرأُ عليكم السلامَ ورحمةَ الله وبركاتهِ». ٥٦/آ

ثم لم ينطقْ بعد ذلك إلا بـ «لا إلهَ إلا الله محمدٌ رسولُ الله» حتى قُبض رضيَ الله عنه وأرضاه.

وقيل: آخرُ ما تكلمَ به: «فَمن يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يرَه، ومَن يَعملْ مثقالَ ذرةٍ شرّاً يره». وغسَّله رضي الله عنه ابناهُ الحسنُ والحسينُ وابنُ أخيه عبدُ الله بنُ جعفر رضيَ الله عنهم، وصلى عليه ابنُه الحسينُ، وكان عنده شيء من حَنوطِ[4] رسولِ الله ﷺ، فحنَّطوه به وكفَّنوه في ثلاثةِ أثوابٍ بيضٍ، ودُفن رضي الله عنه بالكوفةِ ليلاً، ليلةَ الأحد التاسعِ والعشرينَ[5] من شهر رمضانَ سنةَ أربعينَ من الهجرة، وهو ابنُ ثلاثٍ وستينَ سنةً. وقد اكثر الأئمةُ والشعراء رضيَ الله عنهم فيه من المراثي. فمن ذلك ما قيلَ فيه:

---

١ - في الأصل: ولا تخافون.

٢ - في الأصل: يكفيكم.

٣ - في الأصل: يتولى.

٤ - الحنوط والحِناط: كل طيب يمنع الفساد تُحشى به جثة الميت بعد تجويفه فتحفظه من البلى طويلاً.

٥ - في الأصل: والعشرون.

ألا يا عينُ وَيحكِ فاسْعِفينا[1] ألا فابكي[2] أميرَ المؤمنينا

ألا أبلغْ معاويةَ بنَ حربٍ[3] فلا قرَّتْ عيونُ الشَّامتينا

أفي شهرِ الصيامِ فَجعْتُمونا بخيرِ الناسِ طُرَّاً أجمعينا

لقد علمتْ قُريشٌ حيثُ كانتْ بأنَّك خيرُها حَسَباً ودِينا

فانظرْ رحمك الله إلى كيد هذهِ المرأة الخبيثة التي فَتنتْ عبدَ الرحمنِ بنَ مُلجم بحسنِها وجَمالها، لما علمتْ أن محبَّتَها تمكَّنتْ من قلبهِ، شَرطت عليهِ/ في مَهرِها قتلَ الإمامِ عليٍّ. ٥٦/ب رضي الله عنه، ابنِ أبي طالب. فأجابَها إلى ذلك، وحملَه ذلك على قتلهِ، ليتزوجَ بها. فأحرمَه الله منها، بل خسرَ الدُّنيا والآخرةَ، أعاذَنا الله من كيدِهن، «إن كيدَهنَّ عظيم».

---

١ ـ في أسد الغابة: أسعدينا. وفيه القصيدة طويلة.

٢ ـ أسقطنا «على» من الأصل.

٣ ـ الصدر في أسد الغابة: ألا قل للخوارج حيث كانوا.

قصّة المرأة وحكم علي

ومن ذلَك ماوقعَ في زمنِ سيدِنا عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه وهو ماذكرَه الإمامُ أبو الفرج بنُ الجوزيِّ في كتابهِ «ذَمِّ الهوى» عن الشعبيِّ، عن عاصمِ بن ضَمرةَ[1] قال: سمعتُ بمدينـةِ رسولِ الله ﷺ غُلاماً ينادي: «ياأحكَمَ الحاكمينَ، احكُمْ بيني وبينَ أُمي بالحقِّ». قال: فأحضرَه الإمامُ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه بين يديه وقال له: «ياغلامُ، بِمَ تدَّعي على أمِّك؟». قال: «ياأميرَ المؤمنين، إنها حَملتْني في بَطنِها تسعةَ أشهرٍ حتى أَوْضعَتْني، ثم أَرْضعَتْني حَولينِ حتى فَطمتْني. فلما تَرعرعتُ وكبرتُ وعرفتُ الخيرَ والشرَّ ويميني من شِمالي طردَتْني وجَحـدَتْني». فقـال عمـر: «ومَن تكـونُ أُمُّكَ؟». قال: «في سقيفةٍ من بني فُلان». فأمرَ عمرُ بإحضارِها بين يديْهِ. فحضرتْ ومعهَا أربعةُ إخوةٍ، وأربعونَ شاهداً يشهدون أنها لم تعرفْ هذا الغلامَ، وأنه يدَّعي أنَّها أمُّه باطلاً. ويريدُ أن يفضَحَها بين عَشيرتها، وأنها من قريشٍ من خيـارِ القبـائـل، ولم تتـزوَّجْ قطُّ، وأنهـا بِكرٌ. فقال عمر: «ياغلامُ، ماتقولُ؟». قال: «والله إنها أمي، ومافتحتُ عَيني في صِغري إلا وجدْتُني في حِجرها». وأعادَ عليه قولَه ثانيـاً وثـالثـاً. وهـو يقول: «والله إنها أمي». فقال عمرُ: «ياهذهِ، اسمعي مايقولُ ولدُك». فقـالت: «والـذي احتجبَ بالنـورِ، فلا عينٌ تراهُ، وحقِّ المُصطفَى ﷺ ماأعرفُه وما أعرفُ / مِن أيِّ الناسِ هوَ؟ وإنه يريدُ فضيحتي بينَ عشيرتي. وإني امرأةٌ بكرٌ لم أتزوجْ قط». فقال عمرُ: «خُذوا هذا الغلامَ وامضوا به إلى السجن». فأخذوه ومَضَوا به. فبينَما هُم في الطريق إذ لقيَهُم عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فصاحَ به الغلامُ: «يابن عمِّ رسولِ الله ﷺ، إني والله مظلومٌ. وقد أمرَ عمرُ بحبسي». فقال علي رضيَ الله عنه: «رُدُّوه إليه». فلما وصل

٥٧/آ

---

١ ـ كوفي تابعي سمع علياً.

عليٌّ رضي الله عنه إلى أميرِ المؤمنين أمر بإحضـار الغلامِ وإحضارِ أمِّه وقال له: «ياغلامُ، ماتقولُ؟». فأعاد كلامَه الأولَ. فقال عليٌّ رضيَ الله عنه للمرأةِ: «ألكِ شهودٌ؟». قالت: «نعم». فتقـدَّم الأربعـون يشهـدونَ بالشهـادة الأولى. فقالَ علي رضي الله عنه، «لأقضينَّ بينكُـما اليـومَ بقضيـةٍ تُرضي الله مِن فوقِ عرشـهِ، عَلَّمنيها رسولُ الله ﷺ». ثم قال للمرأةِ: «ألَـكِ وليٌّ؟». قالت: «هؤلاء إخـوتي». قال: «فأمـري فيـكِ وفيهم جائـزٌ؟». قالت: «نعم». وقالوا: «نعم يابنَ عمِّ رسولِ الله ﷺ، ونحن راضون بالحكم لنا وعلينا».

فالتفتَ عليٌّ إلى عمـرَ وقـال: «أتأذنُ لي أن أحكمَ بينَهُـما ياأميـرَ المؤمنـين؟». قال: «نعم». فقـال علي: «وأنـا أشهـدُ الله ورسولَه ومَن حضر من المسلمين أني زَوَّجتُ هذهِ المرأةَ بهذا الغلامِ بأربعينَ درهماً، والنقدُ مِن مالي». ثم قالَ: «ياقنبرُ. عليَّ بالدراهم». فأتاه قنبرٌ بالـدراهم، فصبَّهـا في حجـرِ الغـلام وقـال: «خُـذْها واجعلها في حجرِ زَوجتِكَ، وقُم أنتَ وهيَ، ولاتعـدْ إلينـا إلا وبـكَ أثرُ العُرس». فقام الغلامُ بأمرِ الإمام وصبَّ الدراهمَ في حجرِ المرأة، ثم أخذَ / بيدِها وقال لها: «قومي». فصاحتِ المرأةُ وقالتْ: «الأمانَ الأمانَ يابنَ عمِّ رسـولِ الله ﷺ، أتـزوجُني بِولَـدي؟ وهوَوالله ولدي، إلا أنَّ إخوتي زَوَّجوني، وولَدتُ هذا الغـلامَ، فلما كبر معي وتـرعـرعَ أمـروني بالانتفاء منه، ففعلتُ ذلك بمراضاتِهم، وهوَوالله ولدي، ولايَلقى أشفقَ مني عليهِ».

٥٧/ب

ثم أخذتْ بيد الغلامِ وانطلقتْ به إلى مَنزلها. فقال عمرُ عند ذلك: «الله أكبرُ، لولا عليٌّ لهلكَ عمرُ».

قلتُ: وهذه الحكايةُ، وإن لم يكنْ في بعضها ميناسبُ ماالتزمناه في هذا الكتابِ من ذكـرِ مكـائـدِ النسـاء ففي بعضهـا ماينـاسقُ ذلـك. فإنهـا لما أطاعَتْ إخوتَها ووافقتْهُم على مَقـاصـدهم الخبيثـةِ فقـد أعانَتْهم على مُرادِهم، وشاركَتْهم في إثْمهم ووزْرِهم، ورضيْت ذلك. فإن قيل: ماتقدَّمَ في هذه الحكايةِ أنَّ هذهِ المرأةَ ادَّعتْ أنَّ إخوتَها أمروها بالانتفاء عن ولـدِهـا قلتُ: ليسَ كلُّ ماادَّعتْـه المرأةُ حقاً، فإنَّ المشهورَ عن أكثر النساء الكذبُ، والايمانُ الخبيثةُ، والدعاوي الباطلةُ. وإن كانَ مِن الذي ادَّعتْه حقاً فلا حُجةَ لها في ذلك أيضاً فإنها كانتْ في زمن سيـدِنـا عمـرَ بن الخطاب رضي الله عنه. وكان قد عمَّر الأرضَ بعدلهِ. حتى

رُوي أن الأرَضَ تَزلـزَلَت يومـاً في خلافته، فضربَها بالدرَّةِ، وقال لها: «اسكُني». فسكَنَتْ. ثم قال لها: «أتَتَـزَلْـزلـين[1]، وعلى ظهـركِ عمـرُ بن الخطاب؟، إنما الزلزالُ منَ الظالم، فإذا ماتَ عمـرُ فتَـزلْـزَلي». فلم تتزلزلْ بعدَ ذلك حتى ماتَ عمرُ رضي الله عنه، فتزلزلتْ في يوم موتهِ رضي الله عنه.

١٥٨/أ فكان يمكنُ أنَّ هذهِ المرأةَ تُظهرُ أمرَها إلى الإمام عمرَ رضي الله عنه/ مع ظهورِ عدلهِ وعدمِ جَورهِ، حتى يمنعَها منهم بقوةِ سُلطانِه، وشدَّةِ بأسهِ، وعظيمِ هَيبتِه. فحينئذٍ لا عُذرَ لها في مافَعلتْ. وإنـما حَملهـا على ذلك قلةُ دينِها، وعظمُ كيدِها. فلما وافَقتْهم على مُرادهم كانت هي الباغيةَ الجانيةَ المفتريةَ المُعينةَ لهم على مَقاصدِهم الخبيثة.

ولولا أن النبيَّ ﷺ كان أخبرَ علياً بهذا الأمر قبلَ وقوعهِ، وعلَّمه كيفَ الحكمُ في هذه الـواقعـةِ لهلكتْ هذهِ المـرأةُ وأهلكتْ إخوتَها، وخَسرتْ دُنياها وآخرتها. فهذا كلُّه من أماراتِ كيدِ النساء، وقلَّةِ دينهِنَّ، فنعوذُ بالله من كيدِهن، «إن كيدَهنَّ عظيم».

---

١ - في الأصل: أتتزلزلي.

قصة قبر الأخوين[1]

ومن هذا القبيل ما أوردهُ «القُرطبيُّ» في كتابه المعروف «بالزهر الزاهر» في الجزء الأول منهُ في بابِ الكذبِ عن المفتيِّ رحمهُ الله قال: سمعتُ أبي يحدثُ عن أُناسٍ من أهلِ الشامِ أَن أخوينِ كان أحدُهما يَغيبُ ويترِكُ أخاهُ عندَ أهلهِ، فغَوِيَتْه امرأةُ الغائبِ، فراودتْهُ عن نفسهِ فامتنعَ منها. فلما قدمَ أخوهُ سألها عن حالِها في غَيبتهِ فقالتْ: «ما حالُ امرأةٍ لم يزلْ أخوكَ يُراودُها عن نفسها كلَّ يومٍ وهي تمتنعُ منه؟». فقال لها: «هو أخي وابنُ أمي، فلا أمنعُه بكلامي لهُ في هذا الشأن، ولكن لله عليَّ عهدٌ أني لا أكلمهُ أبداً».

ثم إن الأخَ الذي كان غائباً حجَّ من عامِه ذلك، وحجَّ أخوه المتهومُ المكذوبِ عليه وماتَ. فدفَنوه هناكَ ومضَوا. فلما قَضَوا حجَّهم ورَجعوا إلى منازلهم، مرُّوا[2] على ذلك الوادي المدفونِ فيه الأخُ المتهومُ ليلاً، فسمعوا هاتفاً يقول: /

تمرُّ بوادي الدَّومِ[3] حقاً ولم ترَ	عليك لأهلِ الدوم أن تَتَكلما
وبالدوم ثاوٍ لو ثَويتَ مَكانَه	لمرَّ بوادي الدَّومِ حُباً وسَلَّما

٥٨/ب

قال: فظنت المرأة أن النداء منَ السماء حين سمعتِ الشعرَ، فقالت لزوجها: «هذا مقامُ أَخيك العابدِ، والله ما كان مِن أخيك شيء ممَّا قلتهُ عليهِ، وإني والله كاذبةٌ عليه. وأنا

---

١ ـ القصة وردت في (عيون الأخبار: ٤/ ١٢١) مع اختلاف في العرض. وانظر فيه خلاف الشعر.

٢ ـ في الأصل: فمروا.

٣ ـ وادي الدوم: واد معترض من شمالي خيبر إلى قبليها، يفصل بين خيبر والعُوارض.

الـذي كنتُ راودتُـه عن نفسـهِ ، فأبى وامتنَعَ » . فقال لها زوجُها : «والله ثمَّ والله لو حلَّ قتلُكِ لقتلتُكِ» . ثم طلَّقَها ورجعَ إلى قبرِ أخيهِ ، وضربَ عليهِ خَيمةً وقعدَ فيها يبكي وينوحُ ويُنشدُ هذه الأبياتَ :

هَجـرتُـك أيـامَ الحـيـاةِ وأَبْـتـغـي	كلامَـكَ لمَّا صِرتَ رَسـماً وأَعْظُـما
ذكـرتُ ذُنـوبـاً منـك كنتُ اخْتـبرتُهـا[1]	أنـا منـكَ فيهـا كنتُ أَسـوا[2] وأظلما

قال : ولم يزلِ الأخُ مقيـاً على قبر أخيـهِ يبكي وينـوحُ حتى ماتَ ، ودُفن إلى جانبِ قبرَ أخيهِ رحمهما الله تعالى ، والقبرانِ بوادِي الدَّومِ ، يُعرفانِ بقبر الأخوين .

---

١ ـ في عيون الأخبار : اجترمتها ، وهو الصواب .
٢ ـ تخفف للوزن .

قصّة قبر الصّديقين

وحُكي أن رجلاً من الأنصار يُعرف بعَمرو بن الصَّلتِ من أهلِ مدينةِ الرسولِ ﷺ صادفَ رجلاً من أهلِ العراقِ يُعرف بمحمدِ بنِ الحكم الثّقفيّ، وكان في غايةٍ منَ الأدبِ والفضل. وكان العِراقيُّ يُقيمُ عندَ صديقهِ المدنيِّ حَولاً ويَرْتحلانِ. فيُقيمُ المدنيُّ عندَ صديقهِ العراقيِّ حَولاً حتّى اشْتُهر العراقيُّ بمحبَّةِ المدنيِّ. وأَسرَ المدنيُّ بمحبَّةِ العراقيِّ. قال: فشقَّ ذلك على امرأةِ المدنيِّ لِما تَلقاهُ من غَيبةِ زَوجِها عنها. وسألتْه أنْ يُصاحبَ / العراقيَّ ويلاطفَه ويتحبَّبَ إليه. وجَعلتْ تَبعثُ إلى أخيها بالظَّرفِ والإِحسانِ فيدفعُه إلى العراقيِّ. ٥٩/آ

فلما طالتْ تلكَ الصُّحبةُ وأَغمرهُ بإحسانهِ قال له العراقيُّ: «يا أخي، هلْ لكَ من حاجةٍ عندي فأفوزَ بقَضائها؟». قال: «إيْ واللهِ، إنَّ لي عندكَ حاجةً مِن أعظمِ الحوائج. ولقد كتَمتُها حتى خشيتُ على نَفسي التَّلفَ، وأَنا عاشقٌ لامرأةٍ من أهلِ المدينةِ، وإني أحبُّ أَن تقولَ لي فيها أبياتاً حسنَةً مع كلامٍ لطيفٍ تَعطفُها بها عليَّ، وتقولُ: إنَّ طولَ إقامتي بالمدينةِ من أَجلها، فلعلِّي أنتفعُ بذلك». وهذا مكرٌ مِن امرأةِ المدنيِّ. فقال له العراقيُّ: «واللهِ قد سَأَلْتَني عن أمرٍ عظيمٍ، ولكني مُجيبُك إليهِ مع ما أخافُه من الإِثمِ». فقال لهُ:

إلى اللهِ أَشكو لا إلى غيرِه الذي	أعالجُ من كربٍ تضمَّنَه الصَّدرُ
صَبرتُ على كتمانِهِ واحْتمالِه	زَماناً، فلا طالَ بيَ ذهبَ الصبرُ
ولمَّا خشيتُ الموتَ أَفشأتُ سِرَّها	وسمَّيتُها في الشعرِ إذ غُلب الأَمرُ
وأرسلتُ سِراً في الخلاء تَلطُّفاً	إليها رسولاً، والرسولُ لهُ خُبرُ
لِيُعلمَها حالي وطولَ صَبابَتي	ويُنشِدَها شِعري، وقَلَّ لها الشِّعرُ
أقمتُ بها حَولينِ والعقلُ والهٌ	وفي القلبِ والأحشاء مِن حُبِّها جَمرُ

ثم كتبَ مع هذه الأبياتِ كلاماً لطيفاً رقيقاً يُخبرُها فيه أن ما ابْتُلي به مِن حبِّها وأنَّ طولَ مُقامهِ بالمدينة مِن أجلها. ثم دفعَ الكتابَ إلى أخيها، فانطلقَ بهِ إلى أُختهِ فدفعَه إليها، وهو لا يَعلمُ أنّه أخوها. فلما دخلَ عليها زوجُها بكتْ في وجههِ وأظهرتْ له /حُزناً شديداً فقال: «ما يُبكيكِ؟ وما الحزنُ؟». فأَبتْ أن تُخبرَهُ. وأقامتْ على ذلك أياماً، وهي في حالٍ منَ الهمِّ والتفجُّع. فلما رأى المدنيُّ حالَ امرأتهِ وكتمانَها حلفَ لها بالأيمانِ المغلَّظَةِ أن يَتزوَّجَ عليها ما لم تُعلمْه بأمرِها. فقالتْ: «واللهِ إنْ أخبرتُك بحالي إنَّها لبليَّةٌ عُظمى. وإن كتمتُها فهي أعظمُ البَلايا». ثم ألقتْ إليه الكتابَ وقالت له: «أتعرفُ مَن كتب هذا؟».

٥٩/ب

فلما نظرَ إلى الخطِّ عرفَه. وقرأَ الكتابَ، فلم يَدخُلْه شكٌّ في أنَّه خطُّ العراقيِّ وشِعرُه. فعظُم ذلك عليهِ وأسرَّ إلى امرأتهِ أن يقتلَهُ. فقالت: «لستُ أرى ذلك، لأنَّك إن فعلتَ ذلك هَتكْتَني وفضَحتَ نفسَك، ولكنْ أظهرْ له الجفوةَ، فإنَّه سيرحَلُ عنك إنْ شاهدَ منكَ ذلك». ففعلَ ذلك وذكرَ للعراقيِّ الكتابَ والشعرَ، فعلمَ أنَّ ذلك من مكرِ امرأةِ المدنيِّ. وخاضَ الناسُ في تغيرِ ما كانَ بَيْنَهُما من الملاطَفةِ والمحبَّةِ والصَّداقة.

وأقامَ العراقيُّ أياماً وهو في ضيقٍ، ثم ارتحلَ وأنشدَ يقولُ:

مَكرتْ بي حَليلةُ المرء عَمرو ... إذ رَأتْني أَخلصتُ وُدِّيَ عَمراً
إنَّ مكرَ النساء يا عَمرُو قدْ أَظْـ ... ـهرَ عُذري وما أرى لكَ عُذرا
وأتاني أخو حَليلةِ عَمرٍو ... في خلاء تَلطُّفاً منهُ سَتْرا
فَشكا ما بهِ إليَّ منَ الوَجْـ ... ـدِ خِداعاً، وقالَ: قُل ليَ شِعرا
واكتبْ في[1] الكتابِ طولَ مُقامي ... والذي بي وكانَ ذلك مَكرا

قال: فلما فرغَ من هذه الأبياتِ كتبَها وبعثَها إلى المدنيِّ. فلما / قرأَها دخلَ بها على امرأتهِ فقال لَها: «إني أعطي اللهَ عَهداً لَئن كتمتِني شَيئاً ممَّا أسألُك عنهُ إني أدفنُكِ حيَّةً».

٦٠/آ

---

١ ـ التفعيلة الأولى مضطربة.

فعلمتْ ما أرادَ فقالتْ له: «أعطني أماناً وأنا أصدُقُك الخبرَ». فأَعطاها الأَمانَ منَ القَتل. فأخبرتْه بالذي كانَ مِن مَكرِها بالعراقيِّ. فطلَّقَها وخرجَ في طلبِ أخيهِ، فجعلَ كلَّما مرَّ بمَنْهل ومحلٍّ يسألُ عنهُ، فيقالُ: «أمامَك، وقد مرَّ بنا منذُ أيام».

قال: وأصابَ العراقيَّ في سَفرهِ مَعلَّةٌ مِن قَهرهِ وكَمدةٌ في باطنهِ. فلمَّا انْتَهى إلى مِنىً لبني أسدٍ ماتَ فدُفن هناكَ، رحمةُ الله عليه. وأَقبلَ المدنيُّ حتى نزلَ بذلك المكانِ، فسألَ عنه، فأُخبر أنه ماتَ ودُفن. فقالَ: «دُلُّوني على قبرهِ». فدلُّوهُ على قبرهِ. فضَرب عليه خيمةً، ولم يزلْ يَبكيهِ ويَرثيهِ حتى مات، ودُفن إلى جانبهِ. وهما يُعرفانِ بقبرِ الصَّديقينِ الأَخوينِ. أعاذَنا الله وإياكُم من كيد النساء «إنَّ كيدهُنَّ عظيم».

قصّة جريج الراهب

ومن هذا القَبيـل حديثُ جُريـجٍ الراهبِ، وهو في الصحيحِ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «كانَ في بني إسرائيلَ عابدٌ يقالُ له جُريج، فبنى صومعةً وتعبَّد فيها وأقامَ زمانَه يعبدُ الله عزَّ وجـل حتى تعجَّبَ بنـو إسـرائيـلَ من كثـرةِ عبادتهِ. وشاع ذكرُه بينَ الناسِ بالعبادةِ والزُّهدِ والصَّـلاح. وكـان فيهم امـرأةٌ جميلةٌ ذاتُ حسنٍ وجمـالٍ رائقٍ. وكانتْ تفتنُ الناسَ بحسنِها وجَمـالهـا. فقـالت لبني إسـرائيلَ: «إن شئتُم فَتنتُه لكُم». قالوا: «قد شِئنا، إن قَدَرتِ على فتنتِـهِ». قالت: «فأتت له، فتعـرَّضتْ له بجـمالهـا، فلم يلتفتْ إليهـا. فجعلتْ تُراودُه عن نفسهـا، وهـو يمتنـعُ منها. فلما انقطعَ رجاؤُها منه وعلمتْ / أنَّه لا يريدُها نزلتْ من عندهِ، وذهبتْ إلى بعضِ الرعاةِ، فأمكنتْهُ من نفسِها، فواقَعها فحملتْ منهُ. ٦٠/ب

وكان ذلك الراعي يَأوي إلى صومعةِ جُريجٍ بغنمهِ فقال[1] لها بنو إسرائيلَ: «ممَّن هذا الحمـلُ؟». فقـالتْ: «من جُريـجٍ العـابـدِ». قال: فاجتمعـوا إليـهِ واسْتَنزلوهُ من صَومعتهِ وهـدَمـوهـا وشَتَمـوه وضَربوه. فقال: «ما شأنكم يا ذُرِّيتي؟». قالوا «أنتَ زنيتَ بهذهِ المرأةِ، ولستَ عابـداً صالحـاً». قال: وكـانتْ وُلدتْ غُلاماً. قال: «وأينَ هو؟». قال: «هوَ هذا». قال: «دَعوني أصلِّ». قال: فقامَ وصلَّى، ودعا الله عزَّ وجل. ثم قام وانصرفَ بالغلام إلى وطنهِ، وأشارَ إليه بإصبعهِ وقال لهُ: «باللهِ يا غلامُ مَن أبوكَ؟». قال: «فلانٌ الراعي»[2] قال:

---

١ ـ في الأصل: فقالوا.

٢ ـ عن ابن عباس: تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة امرأة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم (الكامل: ١/ ١٤٣).

فأقبلوا إلى المرأةِ ، وأقاموا عليها الحدَّ ، ثم رجعوا إلى جُريجٍ يعتذرون إليه ويَستغفرون الله له ، ويُقبِّلون يديهِ ورجليهِ ويتبركون به ، وقالوا له : «نَبني لك صومعَتَكَ من ذهبٍ . واجعلْنا في حِلٍّ مما وقع منا في حقِّك» . فقال : «اللهمَّ لا حاجةَ لي في ذلك ، ولكنِ ابْنوها من طينٍ وحجرٍ كما كانت ، وأنتم في حِلٍّ ممَّا وقعَ منكم في حقِّي» .

قصّة زوجة التاجر

ومن ذلك ما حكاهُ الشيخُ عبدُ الرحمن الدمشقيُّ في كتابه «كشف الأسرار»[1] أن بعضَ التجار بمدينةِ مصرَ خرجَ مسافراً إلى الشام. فلما ودَّع زوجتَه وخرجَ من منزلِهِ لقيَهُ بعضُ أصحابِهِ وحلفَ عليه أن يسيرَ إلى منزلِهِ، ويأكلَ من ضيافتهِ. فأجابَه إلى ذلك، وسارَ معَه إلى منزلِهِ. فلما دخلَ إلى منزلِهِ وجدَ عندَه جماعةً من التجارِ مجتمعينَ على شرابِ المُدام، وإلى جانبِ كلٍّ منهُم امرأةٌ معشوقةٌ له. فلما دخلَ ذلك / الرجلُ قاموا إليه إكراماً لهُ، وأجلسوه بينَهم. فلما استقرَّ بهِ المجلسُ ورأى أصحابَه كلُّ واحدٍ إلى جانبهِ امرأةٌ يمازحُها وتمازحُه، وينادمُها وتنادمُه طلبَ[2] من صاحبِ المنزلِ أن يخرجَ ويأتِيَهُ بامرأةٍ من الطريقِ تمازحُه وتجلسُ معَه، حتى يصيرَ أُسوةً بأصحابِهِ. فخرجَ صاحبُ المنزل مُسرعاً، وغابَ ساعةً وأتى ومعهُ امرأةٌ، وعليها ثيابٌ جميلةٌ ورائحةٌ زكيةٌ. فلما دخلتْ ورأتْ تلك الجماعةَ جالسينَ في محلِّ لهوِهِم ولعِبهم حلفَ عليها صاحبُ المجلسِ أن تجلسَ إلى جانبِ ذلك الرجلِ. فلما قرُبتْ منهُ وجدَها زوجتَهُ التي ودَّعها في منزلِهِ وخرجَ لسفرِهِ. فقال لها: «هكذا فِعلُكِ في غَيبتي يا فلانةُ؟ في يومٍ واحدٍ خُنتِ مَودَّتي وصُحبتي ونَسيتِني، كأنكِ لم تَعرِفيني!!».

61/آ

ثم قامَ إليها مُسرعاً ليبطشَ بها من شِدَّةِ غَيرتِهِ. فلما عَلمتْ مِن نَفسها أنها صارتْ

---

١ ـ لم نعثر على «كشف الأسرار» في كشف الظنون باسم المؤلف المذكور، مع وجود عدد من الكتب تحمل الاسم.

٢ ـ في الأصل: فطلب.

مغلوبةٌ وأنها إنْ سَكتتْ افْتُضحتْ قامتْ[1] مسرعةً إليه ورَفعتْ صَوتَها عليه. وأسرعتْ نحوَه وقَبضتْ على أطـرافـهِ وخَنقتْـه حتى وقعَ على الأرض وهي تقولُ: «يافاسقُ، يا مَلعونُ، يا فاعـلُ، ياتارِكُ. وصـلَ خبرُكَ لي وأنـا في مَنـزلي، وقـالوا لي: «إنَّ زوجَكِ في المكانِ الفُلانيِّ يشـربُ الخمـرَ ويُغني معَ الـرجـالِ والنسـاء وهم يضحكـونَ عليه. فقلتُ للقائلِ: والله لا أصدِّقُك حتى أرى بعيني. ثم مسكتُ الرجلَ بيدي وقلتُ: والله لا أُطلقُك حتى تَسيرَ معي إلى المكـانِ الـذي فيـه زَوجي، حتى أعرفَه وأعرفَ كلامَك إن كانَ حقاً أوباطلاً. وقد جاء إلى هذه الـدارِ وأنـا معَـه، فخلَّيتُ سبيلَهُ ودخلتُ فرأيتُـك وأنتَ مُعتكفٌ على مَعاصي الله تعالى. والله لا أُطلقُك إلا بينَ يَدي صاحبِ الحجابِ / وأُفضحُكَ بين الأهلِ والأَصحاب». ٦١/ب

فصارَ كلُّ مَن في المجلسِ يَستعطفُ بخاطرِها عليه، ويُلينُ لها الكلامَ، ويقولون لها: «سألناكِ بالله إلا ما عَفوتِ عنه، ووهبتِ لنا هذا الذَّنبَ، وسَترتِ عليه، ولا تَفْضحيهِ بينَ الناسِ، فتَفْضَحينا معه». وجعلوا يُخادِعونها ويَخضعون لها، وهي لا تزدادُ معَ ذلك إلا غِلظةً وفجـوراً، حتى جعلتْ نفسَهـا غالبـةً وقـاهـرةً، فصارَ معها مَغلوباً مقهوراً. فلما علمتْ أنَّها ظفـرتْ بهِ وقَهـرتْـه وغلبتْه وانتصرتْ عليهِ رجعتْ عنه وأُطلقتْه، ورجعتْ إلى منزلها، وتركتْهُ حقـيراً ذَليلاً خائفاً. فقالَ لهُ أصحابُه: «يا فلانُ، قُم هذهِ الساعةَ وسافِرْ ليلاً لئلا ينعكسَ عليـكَ الأمـرُ، وتَضرِبَك وتَشْتكيكَ فتُفتَضَح وتَفضَحَنا معك». فقامَ مُسرعاً من وقتهِ وخَرج مسافراً من ساعتهِ، ولم يقدرْ أن يرجعَ إلى منزلِه، فنعوذُ بالله من كيدِهنَّ «إن كيدهنَّ عظيم».

١ ـ في الأصل: فقامت.

قصْة صاحبة البرقع

وفي «جَمع الأحباب» مُختصرِ «حِليةِ الأولياء»[1] للإمام أبي عبدِ الله محمدِ بنِ الحُسينِ الواسطيِّ، من الجزء الثالثِ في ترجمةِ سُليمانَ بنِ يسارٍ[2] رضي الله عنه أنه كان أحسنَ الناسِ وجهاً، فخرجَ حاجاً إلى بيتِ الله الحرام ومعَه رفيقٌ له، حتى نَزلوا بالأبواب، فقامَ رفيقُه فأخذَ السُّفرةَ وانطلقَ ليبتاعَ لهُ شَيئاً من الطعامِ. وقعدَ سُليمانُ في الخيمةِ، وكانَ مِن أروعِ الناسِ. فبصُرتْ بهِ أعرابيةٌ من قُلَّة الجبل وهيَ في خَيمتها. فلما رأتْ حسنَه وجمالَهُ انحدرتْ إليهِ وعَليها البرقُعُ والقُفَّازان[3] بين يديْهِ، وأسفرتْ عن وَجهها كأنَّه القمرُ المنيرُ، وقالتْ: «ياسيدي، هَنِّئني». فظنَّ / أنها تُريدُ الطعامَ، فقامَ إلى فَضلِ السُّفرةِ ليُطعمها، فقالتْ له: «ليس أريدُ هذا، إنَّما أريدُ ما يكونُ منَ الرجلِ إلى أهلِهِ». فقالَ لها: «جَهَّزَكِ لِي إبليسُ». ثم وضعَ رأسَه بين كتفيهِ وصارَ يَبكي حتى انتحبَ. فلما رأتْ ذلك منهُ أرخَتْ بُرقُعَها على وجهِها ورجعتْ إلى خيمتها.

٦٢/آ

فلولا أن الله عصَمهُ منها كما عصَم سيدَنا يوسُفَ عليه السلام لأفسدتْ عليهِ دينَه.

قال: فجازَ رفيقُه فرآهُ قدِ انْتحبتْ عيناهُ منَ البكاء فقالَ: «ما يُبكيكَ؟». فقال لهُ: «خَيرٌ». ثم أخبرَهُ بشأنِ الأعرابية، فجعلَ رفيقُه يبكي بكاءً شَديداً. فقال لهُ الشيخُ: «فأنتَ ما

---

١ - ذكر حاجي خليفة اسم الكتاب «حلية الأولياء في الحديث»، وأسماه رياضي زاده «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» وهو الصواب، تأليف أبي نعيم أحمد بن عبد الله الإصفهاني، أما «جمع الأحباب» للواسطي المذكور فلم تذكره كتب الكتب.

٢ - تابعي وأحد الفقهاء السبعة، وهو أخو عطاء مولى ميمونة أم المؤمنين، وكان سليمان مكاتباً لها.

٣ - في الأصل: القفازين.

يُبكيـك؟». قال: «أنـا أحقُّ بالبكـاء منـك؛ فإني أخشَى لو كنتُ مكانَكَ لما صَبرتُ عنها».
فمازالا يبكيانِ لِما عَلِما من فتنةِ النساء وعِظَم كيدِهنَّ.

فلما انتهى سليمانُ بنُ يسارٍ إلى مكةَ، فبينما هو نائمٌ في الحرم إذ رأى في منامهِ رجلاً ذا هيئـةٍ حسنـةٍ ورائحـةٍ طيبـةٍ. فقـال له الشيـخُ: «مَن أنتَ يرحمكُ الله؟». قال: «أنا يوسُفُ الصـدِّيقُ». قال: «إني في شَأنِـك وشأنِ زُليخـاء لَعجِبٌ». فقـال له يوسفُ عليـه السلامُ: «وإني في شَأنك وشأنِ الأعرابيةِ صاحبةِ البرقعِ لَعجِبٌ.

قصّة فخاخ إبليس

ومن هذا القَبيـل ما وقـعَ في بَني إسـرائيـلَ أنَّ عابـداً من بَني إسـرائيـلَ عبدَ الله زَماناً طويـلاً. فأرادَ إبليسُ، لعنَـه الله، أن يخدعَـه، فجاءهُ يوماً وفي وَسَطِهِ هِميانٌ[1]، وفي الهميانِ فخـاخٌ مُعلَّقـةٌ. فقـال لهُ العـابِـدُ: «مَن أنتَ؟». قال: «أنـا رجـلٌ سائحٌ». قال: «فما هذهِ الفخـاخُ المعلَّقـةُ في هذا الهميـانِ؟». قال: «أنا رجلٌ ليسَ لي طعامٌ ولا كسبٌ، وإذا جُعتُ نَصبتُ هذه الفخـاخَ أو فَخـاً منهـا[2]، فأصيـدُ الطـائـرَ فآكلُه/، فتلكَ مَعيشتي». فقـالَ لهُ العابدُ: «فأنا أحوجُ الناسِ إلى هذا، فإني منقطعٌ في هذه الصَّومعةِ، لاأجدُ أحداً يَقُوتُني». قال: «فـإني أعمـلُ لك فخـاً جيـداً». ثم تركَـه إبليسُ ومضَى قليـلاً[3]، ثم دخلَ العابدُ في المـدينـةِ لقضـاء حاجتـهِ. فمـرَّ ببعضِ الأزقَّة، فرأى امرأةً قائمةً على بابِ دارِها، فقالت: «يـاعبـدَ الله، هل تُحسنُ أن تقرأَ؟ فإني أَتاني كتابٌ مِن عندِ زَوجي». قال: «نعم». قالت: «فـادخـلِ الـدِّهليـزَ». فلما دخـلَ الدهليزَ أغلقتِ البابَ وراوَدتْهُ عن نفسهِ، فأنشدَها الله، فأبَتْ عليه. فتجانَنَ وتخبَّطَ. فلما رأتْ جنونَه بادَرتْ وفتحتِ البابَ وخرجَ من عندِها، فلقيَهُ إبليسُ، فقـال لهُ العـابـد: «فأينَ الفخُّ الذي وعدْتَني به؟». قال: «قد عملتُه لك، وجوَّدتُه ولكن جنونَك منعَك أن تقعَ فيه». فعرف العابدُ أنه إبليسُ لعنَه الله.

٦٢/ب

ففهِمْنـا من هذهِ الحكـايـةِ العجيبـةِ أن نسـاء السـوء هنَّ فخاخُ إبليسَ التي يَصيد بها

---

١ - في الأصل (وكذا ما بعدها) هيهان. والهميان: كيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط. وترد بمعنى التكة (فارسية).

٢ - في الأصل: منهم.

٣ - في الأصل: قليل.

عقــولَ الــرِّجــال. فعليهنَّ منَ الله ما يستحقُّــون. «أولئـكَ حزبُ الشيطـانِ، ألا إنَّ حزبَ الشيطانِ هُم الخاسرون»[1]. فلا تغترَّ أيُّها الإنسانُ بواحدةٍ من النساء، ولا تركُنْ إليهن ولو أظهرت لكَ المحبةَ بلسانِها. وكُن حذِراً من مَكرِها، وتحفَّظْ من شرِّها، ولوكانتْ خيِّرةً. فقامَ الإمامُ علي رضي الله عنه وكرم وجهه خطيباً، فأمرَ بالحذرِ مِن خيارِهن، فكيفَ مِن شِرارِهن؟

وقد قال الإمامُ إبراهيمُ بن الأَدهم[2]: «مَن تعوَّدَ أفخاذَ النساء لم يُفلح». قلت: هذا الكـلامُ استفـادَهُ الشيـخُ، فإنَّ المـريـدَ إذا تزوَّجَ واعتـادَ مخالطةَ النساء وذاقَ طعمَ الشهوةِ، وتمادَى على ذلك واشتغلَ به فإنه لا يُفلحُ، أي لا يفوزُ بطريقِ القَومِ، ولا يَشمُّ لها/ رائحةً. ٦٣/آ ولهـذا قالَ بعضُ الصـوفيـة: «مـا تزوَّجَ أحـدٌ مِن أصحابِنا وثبتَ على مرتبتِهِ الأولى» اللهمَّ احفظْنـا وإيـاكُم من كيـدِهنَّ، واعصِمنا وإياكُم من الميلِ إليهنَّ، ولا تَشْغلنا بغيرك عنك، ولا تقطعْ رجاءنا عنك، يا غياثَ المستغيثين.

اللهمَّ لا سالمَ إلا مَن سَلَّمتَ، ولا هالكَ إلا من أَهلكتَ، ولا ناجٍ إلا مَن أَنْجيتَ، ولا ضالَّ إلا من أَضْللتَ، ولا هادٍ إلا مَن هَديتَ، ولا سعيدَ إلا مَن أَسعدتَ، ولا بعيدَ إلا مَن أَبعدْتَ، ولا قريبَ إلا مَن قرَّبتَ. وكان مِن دعاء سيِّدي الأستاذِ الكبيرِ: «اللهمَّ املأني بك وفرِّغني مِن غيرِك».

وفي الجـزء الـرابـع من «حِلية الأولياء» لأبي نُعيمٍ الأصفهانيِّ، رحمه الله، أن السيدةَ مَريمَ عليها السلام كانتْ تقولُ في دعائها: «اللهمَّ املأ قَلبي بحبِّك، وغَشِّ وجهيَ منك بالحياء».

---

١ ـ الآية: ١٩/ المجادلة: ٥٨.

٢ ـ إبـراهيم بن أدهم: تميمي بلخي وزاهـد مشهـور. كان أبـوه من أهـل الغنى، فهجر أموال أبيه وساح يطلب العلم والجهاد. وفي أخباره اضطراب والراجح أنه توفي في احدى حصون الروم سنة ١٦١.

قصة العابد

استرجاع. ومن ذلك أن بعضَ الأولياء كانت له زوجةٌ جميلة، وكان يحبُّها محبةً عظيمةً، حتى اشتغلَ قلبُه بها. فدخلَ يوماً في صلاتهِ وقرأ الفاتحةَ. فلما بلغَ إلى قولهِ تعالى: «اياكَ نعبدُ» سمعَ هاتفاً يقول: «كذبتَ» إنما تعبدُ زوجتَك». فانصرفَ من صلاتهِ ورجعَ إلى منزلهِ، فطلَّق زوجتَه ووفَّاها مهرَها. ثم رجعَ إلى صلاتهِ، فلما قرأ الفاتحة، وبلغَ إلى قوله تعالى: «إياكَ نعبدُ» سمع هاتفاً يقول: «كذبتَ، إنما تعبدُ ثيابَكَ». فقطع صلاتَه ورجعَ إلى بيته. وكان له ثيابٌ خَلقةٌ فلبسَها وقلعَ الثيابَ الثمينةَ، فباعَها وتصدَّقَ بثمنها. فلما رجعَ إلى محرابهِ[1] دخلَ في صلاتهِ وقرأ الفاتحةَ. فلما بلغ إلى قوله تعالى: «إياك نعبدُ» سمع هاتفاً يقول: «كذبتَ، /إنما تعبدُ فُرُشَك». فقطعَ صلاتَه ورجعَ إلى منزلهِ وأخذَ فُرُشَه ٦٣/ب وطلع بها إلى السوقِ فباعَها، وأخذَ ببعضِ ثمنها حمارةً ورجعَ إلى محرابهِ، ودخلَ صلاتَه. فلما بلغ إلى قوله تعالى: «إياك نعبدُ» سمع هاتفاً يقول: «الآنَ عبدتَ الله تعالى».

وهذا كلُّه غَيرةٌ منَ الله تعالى على قلبِ ذلك الوَليِّ رضي الله عنه ونَفَعنا به، ويدلُّ على ذلك ما وردَ عن إبراهيمَ عليه السلام أن الله تعالى أوحَى إليه: «يا إبراهيمُ، لا يَغرنَّك أنك خَليلي، فوَعزَّتي وجَلالي لئن اطَّلعتُ على قلبك فوجدتُه مَشغولاً بحبِّ غيري لأسلُبنَّك ثوبَ النبوَّة». وهذا الكلامُ في هذا المعنى يطولُ، ولا يحملهُ هذا المختصرُ.

استرجاع. ومن ذلك ما أوردَه الإمامُ أبو الفرج بنُ الجوزيِّ في كتابهِ «ذمِّ الهوى» عن مُصعب بن عُثمانَ قال: كان سليمانُ بنُ يسارٍ من أحسنِ الناس وجهاً. فدخلتْ عليه امرأةٌ

---

١ ـ في الأصل: ودخل.

تسألُـه َنفسَــه فامتنــعَ منهـا فقـالت له : فادْنُ مني . فخـرجَ هاربـاً عن منزلهِ وتركها فيه . قال سليـمانُ بنُ يســار : «فـرأيتُ بعـدَ ذلك في المنام يوسفَ عليه السلام ، وكأني أقولُ له : «أنت يوسفُ؟» . قال : «نعم ، أنا يوسفُ الذي هَممتُ ، وأنت سليمانُ الذي لم تَهمَّ» .

قصّة العجوزتين

ومن ذلـك حكـايـةُ العجوزتين اللتين كانَتا في بني إسرائيلَ. رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كلُّ الأعاجيبِ كانتْ في بني إسرائيلَ، فحدِّثوا عنهم ولا حَرجَ. ولو حدَّثتكم حديثَ العجوزتين». قالوا: «يارسولَ الله حدِّثنا».

قال: «كـان في بني إسـرائيـلَ رجـلٌ له امرأةٌ يحبُّها، وله أمٌّ عجوزٌ كبيرةٌ، وكانت امرأة / صـدقٍ. ولا مرأتـهِ أمٌّ عجـوزٌ كبـيرةٌ، وكـانت امـرأةَ سَوء، وكـانتْ تُقـوِّي ابنتَها على أمِّ زوجها. وكان زوجُها يسمعُ منها كلَّ ما تقولُه، وكان يحبُّها. فقالت لزوجها: لاأرضى عنـك أبـداً حتى تخرجَ عني أمَّـك إلى محلٍّ لا تأنسُ فيـهِ أبـداً. وتـانِـكَ العجـوزتـان[1] قد ذهبَ بصـرُهُما، فلم تزلْ به امـرأتُـه حتى أخـرجَ أمَّه إلى فلاةِ الأرض ليس معَها طعامٌ ولا شرابٌ لتأكلَهـا السِّبـاعُ. فوضَعهـا في تلك الأرض وانصـرفَ عنهـا وتـركهـا. فلما أمستْ غَشِيتْهـا السبـاعُ، فجـاءهـا ملكٌ من المـلائكـة فقال لها: «ما هذه الأصواتُ التي أسمعُ حَولكِ؟». قالت: «خـيرٌ، هذه أصـواتُ إبـلٍ وبقـرٍ وغَنم». فقـال المَلَكُ: «خـيرٌ، فليكنْ ذلـكَ كما تقولين». ثم انصرفَ عنها وتركَها. فلما أَصبحتْ أَصبح الوادي الذي هيَ فيهِ مملوء إبلاً وبقراً وغنماً.

٦٤/آ

فقال ابنُها: لو ذهبتُ إلى أمي فنظرتُ كيفَ حالُها. فجاء ابنُها، فإذا الوادي مملوء إبلاً وبقراً وغنماً. فقال: «يا أماهُ، ما هذهِ الأنعامُ التي حَولكِ؟» فقالت: «يابنيَّ، هذه رزقُ الله تعالى وعطاؤُه إذ عقَقْتَني[2] وأطعتَ امرأتَك». قال: فساقَ ذلك وحملَ أمَّه ومعها ما أَعطاها

---

١ - في الأصل: تلك العجوزتين.

٢ - في الأصل: عقيتني.

الله تعالى من الإبل والبقر والغنم إلى داره. فقالتِ امرأتُه حسداً منها: «لاأرضى عنك أبداً حتى تذهبَ بأمِّي، فتضَعهَا حيثُ وضعتَ أمَّك، فيصيبُها ما أصابَ أمَّك». قال: فانطلقَ بالعجوزِ أمِّ امرأتِهِ، فوضعَها حيثُ وضَع أمَّه. ثم انصرفَ عنها. فلما أمست أحاطتْ بها السِّباعُ، فجاءها الملكُ الذي أرسلَه الله تعالى إلى العجوزِ الأولى. فقال لها «أيتُها العجوز/ ما هذه الأصواتُ التي أسمعُ حولكِ؟» قالت: «شرٌّ وعَربدةٌ وسباعٌ تُردنَ أن تأكلَني». فقال الملكُ: «فليكن كذلكَ كما تَقولينَ». ثم انصرف عنها. فجاءها سبعٌ فأكلَها. ٦٤/ب

فلما أصبحَ الرجلُ قالتْ له امرأتُه: اذهب فانظرْ ما حصلَ لأمي. فذهب الرجلُ لينظرَ حالَها، فلم يجدْ منها إلا ما فضلَه السبعُ من عظامها، فرجعَ إلى امرأتِهِ فأخبرها، فحزنتْ على أمِّها حزناً شديداً. وحَمل عظامَها في كسائِها حتى وضعَها بين يدَيْها. فماتتْ كمداً».

قصّة سم الحسن

وفي «التمهيد»[1] لابنِ عبد البرِّ رحمه الله تعالى أن الحسنَ بنَ علي رضي الله عنه كان سببُ موتـهِ من السمِّ الـذي سمَّتـه به امرأتُه بنتُ الأشعثِ بن قيس الكندي[2]. وكان أبوها ضَريراً. فلما مرضَ به أي الحسنُ دخلَ عليه أخوه الحسينُ فقال له: «إني سُقيتُ السمَّ ثلاثَ مراتٍ، فلم أرَ تألُّماً مثلَ هذه المرةِ، فإني أحسُّ بكبدي قد تَقطعتْ»[3]. فقال له: فَمَن سقاكَ السمَّ يا أخي؟». قال: «ومـا تريـدُ بهِ؟ أتـريدُ أن تقتلَهُ؟». قال: «نعم». قال: «فما يكونُ لك أن تقتلَ امرأ بسببي؟».

وقيل: إن يزيدَ بنَ معاويةَ دسَّ إليها في ذلك وبذلَ لها مالاً في السرِّ حتى سمَّتْه»[4].

---

١ ـ التمهيد: لابن عبد البر القرطبي، وأصل العنوان «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد». وهو في الفقه والحديث. قال عنه ابن حزم: ولا أعلم نظيره. كما اختصره وسماه «الاستذكار».

٢ ـ هي جعدة، وأبوها هو الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي. وفد على النبي سنة عشر وأسلم مع وفد كندة، ثم ارتد بعد وفاته، لكنه عاد إلى إسلامه وتزوج أخت أبي بكر.

٣ ـ في الأصل: تقطع.

٤ ـ يذكر السيوطي أن يزيد وعد جعدة إذا سمته أن يتزوج بها ففعلت. فلما مات الحسن بعثت إلى يزيد تسأله الوفاء فقال: إننا لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا؟ وكانت وفاته سنة ٤٩ أو ٥١ (تاريخ الخلفاء: ١٧٩).

قصّة خطبة يزيد

ومن جملة الأسبابِ التي حملتْ يزيدَ بنَ معاويةَ على قتلِ الحسينِ رضي الله عنهما ما ذكرهُ القُرطبيُّ في الجزء الثاني من كتابهِ المسمَّى بالزاهر. وهو أن معاويةَ كتب إلى مروانَ بنِ الحكم أن يخطبَ ابنةَ عبدِ الله بنِ جعفرٍ[1] لابنه يزيدَ، وكان اسمُها أمَّ كُلثوم بنتِ زينبَ بنتِ عليٍّ بن أبي طالب، وأن يجعلَ / صَدَاقَها مثلَ صَداقِ أمِّها بالغاً ما بلغَ بعدَ قضاء دين أبيها، ٦٥/آ وبعد أن يُعطيَهُ عشرةَ آلافِ دينارٍ ويَصدقَها أربعَ مئةِ دينارٍ، ويُكرمَها بعشرةِ آلاف دينارٍ أُخَرَ، فيكونُ ذلك بينَ الحسنِ وبني هاشمٍ وبني أميةَ. فكتبَ مروانُ إلى عبدِ الله بن جعفر، وكان بالمدينة، فأخبرَهُ بكتابِ معاويةَ إليهِ. فقالَ له عبدُ الله: «إنَّ أمرَها ليس إلَيَّ، وإنما أمرُها إلى خالها سيدِنا الحسينِ بنِ علي. وكنتُ أولى بها منهُ؛ فإنه الخالُ، والخالُ بمنزلةِ الوالد، وكان الحسينُ بضيعتهِ، فماذا قالَ أو فعلَ رضيتُه».

فلما كان بعد خمسةِ أيامٍ قدمَ الحسينُ، فأخبرَهُ عبدُ الله بنُ جعفر، وعرَّفَه ما كانَ مِن الحديث، وقال لهُ: «أنتَ خالُها ووالدُها، وليسَ لي معك أمرٌ». فأشهدَ عليه الحسينُ بذلك جماعةً، ثم خرجَ فدخلَ على أمِّ كلثوم فقال لها: «يا بُنيةُ، قد ولاَّني أبوكِ أمرَكِ، وإني أرجو أحسنُ النظرَ إن شاء الله تعالى، وآمرُكِ ببرِّه». قالت: «نعم يا خالُ، بأبي أنتَ وأمي». فقال الحسينُ: فإني أستخيرُ الله تعالى. اللهمَّ إني لم أُردْ إلا خيراً، فقيِّض لهذه الجاريةِ رضاكَ مِن بني هاشم، ثم آلِ نبيِّك محمدٍ ﷺ». ثم خرجَ فمرَّ بدار محمدِ بن جعفر بن أبي طالب، فإذا هوَ بالقاسمِ بنِ محمدٍ وهو شابٌّ فجرى إليه وقبَّل يديْهِ، فقال له: «يابنَ أخي، أترى أَن أزوِّجَك مَن شِئتَ؟». فقال له: «الله الله يا عمُّ، ماليَ مالٌ فأُعطي منهُ المهرَ». فقال

---

١ ـ صحابي، أول من ولد من المسلمين في الحبشة. كان كريماً ويدعى بحر الجود. توفي سنة ٨٠.

له الحسينُ: «لكني أُعطي المهرَ عنك». فقال: «اصنعْ ما شئتَ ياعمُّ». قال: «فإذا كان مِن الغدِ فامضِ معي إلى مجلسِ / بني هاشمٍ». قال: فلما أصبحَ مضى معَه كما قالَ، وأشرافُ ٦٥/ب
الناسِ مجتمعون في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، وأقبلَ مروانُ، وقيلَ معاويةُ، حتى جلسَ إلى جانب الحسينِ. فتكلَّم مروانُ وحمدَ الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «إنَّ أميرَ المؤمنين معاويةَ ابنَ أبي سفيانَ كتب إليَّ[1]أن ائتِ عبدَ الله بنَ جعفر، فاخطبْ إليه ابنتَه أمَّ كلثوم على ولده يزيدَ. وقد عرفتُم فضلَه. والعجبُ ليزيدَ كيفَ يَستمهرُ وهو كفء مَن لا كفء لهُ؟ وبوجههِ يُستقى الغمامُ، والذي يَغبطُنا به[2] أكثرَ مِن الذي يغبطُه بنا، وقد جعلَ ذلك أبوها إليكَ، وقد أمرني أميرُ المؤمنينَ أن أجعلَ صَداقَها حكمَ صَداقِ أمِّها بالغاً ما بلغَ بعدَ قضاء دَين أبيها، ثم ما في ذلك من الصُّلح بينَ هذين الحيَّين من بني هاشمٍ، وليسَ عندَ أبي عبدِ الله الحسينِ [مانعٌ][3] إن شاء الله تعالى».

فتكلم الحسينُ فحمدَ الله وأثنى عليه وصلى على جدِّه رسولِ الله ﷺ، فقال: «إنَّ الله تعالى لا ينفعُ عندَه إلا الحقُّ، ولا يقبلُ من خَلقهِ إلا التَّقوى وإنَّ الله تعالى رفعَ بالإسلام الخسيسَةَ والنَّقيصةَ وأذهبَ الملامَةَ، فلا لومَ على امرىء مُسلمٍ إلا في مَأثمٍ، ألا وإنَّ القَرابةَ التي أمرَ الله تعالى بصلتِها والمحافظةِ عليها، وعظَّمَ حقَّها وجعلَ كتابةَ الأجرِ فيها، فإنها قرابَتُنا أهلَ البيت الذي أُوجبَ الله حقَّنا على كلِّ مسلم». ثم قال: «يا مروانُ، قد قلتَ فسمعتُ. أما قولُك في المهرِ: حكمُ مهرِ أمِّها بالغاً ما بلغ، فلعَمري لو أردْنا ذلك ما رَغبنا عن سُنَّة/ رسولِ الله ﷺ، ولا عدَوْنا مهرَ بناتِهِ اثنتي عشرةَ أوقيةً من فضةٍ، تكون أربعَ ٦٦/آ
مئةٍ وثمانين[4] درهماً. وأما قولُك: في قضاء دَينهِ، فمتى كان النساء يقضينَ عنَّا ديونَنا؟ وأما قولُك: وصلحٌ بينَ هذينِ الحيين، فإنا قومٌ عادَيناكم في الله تعالى، فلم نكُن نصالحكم لحكمِ الدنيا. ولَعَمري لقد أغنانا النسبُ. وأما قولُك: العجبُ ليزيدَ كيفَ يَستمهرُ؟، فقد

١ ـ في الأصل: إليه.
٢ ـ في الأصل: يغبطانه، وكرر ذلك بعد صفحة.
٣ ـ فراغ في الأصل قدر كلمة، وأضفناها للمعنى.
٤ ـ في الأصل: وثمانون.

ستمهرَ مَن هو خيرٌ مِن يزيدَ ومن أبي يزيدَ ومن جدِّ يزيد. وأما قولُك: أما يزيدُ كفء مَن لا
كفء له، فمن كان له كفء قبلَ اليوم ولم تزدْه كفاءتُه في الكفاءةِ شيئاً. وأما قولُك: بوجههِ
ستسقى الغمامُ، فإنما كان ذلك وجهَ النبي ﷺ. وأما قولُك: الذي يَغبطنا بهِ أكثرَ ممَّن يغبطُه
نا، فإنما يغبطنا بهِ أهلُ الجهل ويغبطُه بنا أهلُ الفضل. ألا وإني قد زوَّجتُ هذه الجاريةَ مَن
هو أقربُ إليها نسباً وأوجبُ حقاً وألطفُ سَبباً، وهو هذا الغلامُ القاسمُ بنُ محمدِ بنِ جعفر،
إشهدوا جميعاً أني قد أنحلتُها ضَيْعتي «البقيعةَ» وخراجُها ثمانون ألفِ دينارٍ، ولم أكنْ لأعدلَ
بهذه الجاريةِ إلى غيرِ كفئِها، ولا أجعلَ في عِرضنا مَغمزاً لأحدٍ من قريش. أقولُ قَولي هذا
إستغفر[1] الله العظيم لي ولكم».

قال: فتغيَّرَ وجهُ مروانَ وأطالَ السكوتَ، ثم قال: «اغْدروا يا بَني هاشمٍ، تأبون إلا
عداوةَ». فقال الحسينُ: «رُويداً، أنتم الأَمُ وأغْدر». ثم قال الحسينُ: «أيُّها الملأ،
شهدكم الله تعالى، أَلستُم تعلمون أن الحسنَ بنَ عليٍّ خطبَ عائشةَ بنةَ عثمانَ[2] حتى إذا
نا بمثلِ هذا المشهدِ/ وقد جُعل الأمرُ إليك يا مروانَ بنَ مَخرمةَ، فقلتَ: قد بَدا لي أن ٦٦/ب
زوِّجَها من عبدِ الله بنِ الزُّبير، هل كان ذلك كذلك؟». قال: «اللهمَّ نعم». فقال
لحسينُ: «فإننا قد ابتُدِئنا الغدرَ».

ثم نَهضوا، وأقبلَ مروانُ على عبدِ الله بنِ جعفر وقال: «والله ما هذا جزاء أميرِ
ؤمنين منكَ». فقال له عبدُ الله: «قد أخبرتُك أني لا أقطعُ أمراً دونَه». قلت: وهذه
قصةُ من الأسبابِ التي حَملت يزيدَ بنَ معاويةَ على قتل الحسينِ بنِ علي رضي الله عنهما،
الله أعلم.

---

[1] - في الأصل: أستغفروا.

[2] - عائشة بنت عثمان، تزوجها الحارث بن الحكم بن أبي العاص. وكان مروان بن الحكم صهر عثمان
لك، وتحته أبان بنت عثمان.

قصّة فضلون العابد

وهـو ماوردَ عن ابنِ عبـاس رضي الله عنهـما أنـه قال: صلى بنا رسول ﷺ ذاتَ يومٍ صلاةَ الصبـح، ثم استنـدَ بظهرهِ الشريفِ إلى محرابهِ كأنه البدرُ في تمامهِ وكمالهِ، وجلس أبو بكـر عن يمينـهِ، وعمـرُ عن يسـارهِ، وعثـمانُ وعلي بينَ يديـهِ ﷺ. والمهـاجـرون والأنصارُ والصحـابـةُ الأخيـار مُحدقـون به، وهويدعووالصحابةُ يؤمِّنون[1] على دعائهِ، وإذا بالمطوَّقِ بالنـورِ جبر يـلَ عليـه السـلام قد نزلَ من عنـد ربٍّ لم يزلْ، وقال: «السلامُ عليك يا رسولَ الله». فقال له رسولُ الله ﷺ: «وعليك السلامُ يا أخي يا جبر يلُ». فقال «يا محمدُ، ربُّك يُقـرئـك السـلامَ ويخصُّـك بالتحية والإكرام، ويقولُ لك إنه سيقعُ لرجلٍ من أمتك يسمى «فَضلون العـابـد» وهـو عابـدُ المـدينة وزاهدُها مكيدةٌ عظيمةٌ بعد وفاتك في خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، ولا يكونُ خَلاصُه إلا على يدِ عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه».

قال ابنُ عباس/ رضي الله عنهما: وكانَ فضلونُ العابدُ من أجملِ الناس، وكان أعبدَ أهـلِ المـدينـة وأزهـدَهـم وأورعَهم وأذكـاهـم وأرضاهم. وكان مع ذلك مليحَ الصفات زائدَ الملاحة. قال: فلما سمعَ النبيُّ ﷺ كلامَ جبر يلَ أطرقَ إلى الأرض ساعةً، وقد عرجَ الأمينُ جبر يـلُ عليـه السـلام، فرفـعَ النبيُّ ﷺ رأسَـه إلى الصحابة وقال: «يا معشرَ الأصحابِ، رحمكم الله اعلمـوا أنَّ الله تعـالى خلقَ الحُسنَ والجـمالَ والبهـاء والكمالَ على أربعةِ أجزاء؛ فالأولُ منهم آدمُ عليـه السـلام، والثـاني يوسفُ عليه السلام، والثالثُ صاحبُكم الذي بين يديكم ﷺ، والـرابـعُ فضلونُ العـابـدُ». قال ابنُ عبـاس رضي الله عنهـما: فنادى فضلونَ العابدَ، وكان بينَ جماعةِ المسلمين في المسجدِ، وقال: «يا فضلونُ، لا تَشقَّ المدينةَ إلا وأنتَ

٦٧/آ

---

١ ـ أي يقولون: آمين.

مُتبرقعٌ، لئلا ينظرَ إليكَ النساء فيُفتنَّ بك ويغريهنَّ الشيطانُ عليك». قال فضلونُ: «السمعُ والطاعةُ لله ولك يا رسولَ الله».

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ثم إنَّ النبي ﷺ نادى علياً رضي الله عنه وقال له: «يا أخي وابنَ عمي، قد أخبرني جبريلُ عليه السلام عن ربِّ العالمين أنه سيقعُ لفضلونَ العابدِ عابدِ أهلِ المدينةِ وزاهدِها مكيدةٌ عظيمةٌ، وذلك في خلافةِ عمرَ رضي الله عنه». ثم إنَّ فضلونَ امتثلَ أمرَ النبيِّ ﷺ، وصارَ لا يمشي في المدينة إلا هو متبرقعٌ على وجههِ، كما أمرَه النبيُّ ﷺ.

قال ابنُ عباسٍ / رضي الله عنهما: ومرتِ الأيامُ والشهوُر، وتُوفي رسولُ الله ﷺ، ٦٧/ب وتخلَّفَ مِن بعدهِ أبو بكر رضي الله عنه، وتُوفي الصديقُ رضي الله عنه، وتخلَّفَ من بعده عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ودنا ما وعدَ الله عبدَه فضلونَ في أيام خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه.

وذلك أن فضلونَ العابدَ خرجَ يوماً من الأيام من دارِه لصلاةِ الصبح طالباً[1] المسجدَ كما جَرتْ به العادةُ ليصليَ الصبحَ خلفَ الإمام عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه. قال صاحبُ الحديث: فبينما يمشي إذ سمعَ صوتاً ينادي خلفَه: «يا فضلونُ يا فَضلونُ، قِفْ واسمعْ مني كلمةً واحدةً». فلما سمع فضلون ذلك الصوتَ التفتَ وقال: «أيها المنادي، عجِّلْ بكلامِكَ وقُل ما تريدُ». ثم نظر فضلونُ إلى المتكلم فإذا هيَ امرأةٌ جميلةٌ مُبدعةٌ في الحسن والجمال. فقالت له: «يافضلونُ، اعلمْ أني امرأةٌ من بناتِ المدينةِ وقد خَطبني الأكابرُ وأصحابُ الأموالِ من التجارِ وغيرِهم، فلم أرضَ بأحدٍ منهم ولم ألتفتْ إليهم لأنني بك مشغوفةٌ، وفيك عاشقةٌ، ولك رامِقةٌ».

ثم مدَّت يدَها إليه وجذبَتْه إليها وقالت: «آهٍ!». وأرادتْ أن تُدخلَه إلى بيتها، وكان على قارعةِ الطريق. فلما رأى فضلونُ ذلك منها قال لها: «استَحيي من الله تعالى وارجعي لما بَدا لكِ، وإن لم ترجعي شَكوتُكِ إلى الإمام عمر». قال: فخافتِ المرأةُ من قولهِ،

---

[1] - في الأصل: طالب.

فأرسلتْ ذيلَه، فمضى فضلونُ وقد أوقد النارَ في فؤادها. فأتى فضلونُ إلى المسجدِ /وصلى ٦٨/آ
الصبحَ خلفَ الإمام عمرَ ثم رجعَ إلى منزلهِ من غيرِ تلك الطريق.

قال صاحبُ الحديثِ: وأما الجاريةُ فإنها أرادتْ أن تصبرَ على محبتهِ فلم تَقدرْ على ذلك. وزادَ بها الهوى والغرامُ، وعلمتْ أنها إن عارضتْه ثانياً شَكاها إلى الإمام عمرَ رضيَ الله عنه، فقالتْ في نفسها: «ما لهذا إلا الحيلةُ عليهِ، وإلا فما أقدرُ عليه ولا أصلُ إليه». ثم إنها صبرتْ إلى وقت الظهرِ، وجاءتْ إلى دارٍ بجوارِ دارِ فضلونَ، فطرقتِ البابَ فخرجتْ إليها عجوزٌ من داخلِ الدار وقالت لها: «ما حاجتُكِ يا جاريةُ؟». فقالت: «يا خالةُ قد أدركتْني صلاةُ الظهر وأريدُ أن أصلِّيَها في هذا المنزل».

قال: فاستحسنتِ العجوزُ كلامَها، وفتحتْ لها البابَ فدخلتْ إلى المنزل فتوضَّأت وصلَّتْ صلاةَ الظهر. فلما فرغتْ من صَلاتها أخذتْ مع العجوزِ في الكلام. وذكرتْ فضلونَ العابدَ وقالت لها: «كيف تَرينَ فضلونَ العابدَ في عبادتهِ وزُهدهِ وصَلاتهِ؟». فقالت العجوزُ: «نِعمَ واللهِ الرجلُ فضلونُ العابدُ الصائمُ بالنهار، القائمُ بالليل. إذا جُنَّ عليه الليلُ لبسَ الثيابَ السودَ ومضى إلى المقابرِ يعبدُ اللهَ هناك إلى الصباح. ثم يأتي إلى منزلهِ». قال[1]: فجعلتِ الجاريةُ تحدثُ العجوزَ وتشاغلُها، ثم ودَّعتْها وانصرفتْ عنها إلى مَنزلها، ثم أخذتْ دواةً وقرطاساً وكتبتْ تقولُ: «بسم الله الرحمن الرحيم قال رسولُ الله ﷺ: كلكُم راعٍ وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيتهِ. ونحن نتوسَّلُ إليكَ في فضلونَ؛ فإنه إذا جنَّ عليه الليلُ لبسَ الثيابَ السودَ ومضى إلى القبورِ فينبشُها ويسلبُ الأكفانَ عن الموتى. وقد أعلمتُك والسلام».

ثم إنها طوتِ الكتابَ/ وجاءتْ إلى مسجدِ النبيِّ ﷺ وجعلتِ الكتابَ في المحراب، ٦٨/ب فأخذَه عمرُ وقرأَه وفَهم ما فيهِ وقال في نفسهِ: «أنا لا أصدقُ في فضلونَ، ولا أسمعُ شَيئاً مِن هذا القول إلا أن أَرى بعيني».

قال الراوي: ثم إن فضلونَ أتى إلى المسجدِ وصلَّى خلفَ الإمام عمرَ صلاةَ

---

١ ـ في الأصل: قالت.

لعصـــرِ، فلم يذكـرْ له شَيئـاً من ذلـك. ومضى فضلونُ إلى منـزلـهِ، ثم أتى فضلونُ إلى لمسجدِ وصلى خلفَ الإمام عمرَ صلاةَ المغرب، ولم يذكرْ له الإمامُ عمرُ شيئاً من ذلك. فلما تى وقتُ صلاةِ العِشاء ومضى فضلونُ إلى منزلِهِ ولم يَشعرْ بشيء من ذلك، وأخذَ في نفسهِ نيئـاً من فضلونَ، وقـد قرأه في الـورقةِ. فأرادَ أن يرى ذلك عِياناً من فضلونَ. فخرجَ عمرُ ضيَ الله عنـه بعـدَ العشـاء، ووقفَ في طريقِ فضلونَ في ناحيـةٍ عن الطـريقِ حتى إذا مرَّ لم يعـرفْـه. فلما كان بعـدَ ساعـةٍ جاء فضلونُ ومرَّ على عمرَ وقد قلعَ أثوابَهَ البيضَ ولبس أثوابَه لسُّودَ التي يتعبَّدُ فيها بالليل. فلما رآه عمرُ على تلك الحالةِ من التَّذلُّل والخُضوع قال: «لا **حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم، ولكن والله لا أصدقُ في فضلونَ أنه يسلبُ أكفانَ الموتى حتى أرى بعيني وأشاهدَ مايفعلُ»**.

ثم إن الإمامَ عمر قام وتتبَّعَ فضلونَ ولم يعلمْ بهِ حتى جاء إلى المقبرة ونبشَ إلى محلٍّ يهـا، وأخـرجَ جُرابـاً وجـاء إلى قبرٍ مَخوفٍ قد بَليَ صاحبُه، ولم يكن فيه إلا العِظامُ. فدخلَ يـه، وعمـرُ ينظـرُ. ثم تقـدَّمَ عمـرُ قليـلاً ينظـرُ إليـه ويسمعُ ما يقول، فرآه قد فكَّ الجرابَ أخـرجَ منـه سلسلةً وقيـداً، فوضـعَ القيـدَ في رجليـهِ والسلسلةَ في عُنقـهِ. ثم جعـل يبكي يعاتبُ نفسَه ويقولُ: «يا نفسُ اذكُري الوقوفَ بينَ/ يديِ الله عزَّ وجلَّ. يا نفسُ اذكري ٦٩/آ جهنمَ. يا نفسُ اذكُـري السـلاسـلَ والأغـلالَ والقيـودَ الثقالَ، يا نفسُ اذكري ظلمةَ القبرِ وحشتَه وليسَ معكِ أنيسٌ وتخلَّى عنك الصاحبُ والصديقُ، يا نفسُ اذكري مُنكراً ونَكيراً مَسألتَهـــا فماذا تُجيبـين؟ يا نفسُ اذكـري الصِّـراطَ ورقَّتـه فبأيِّ الأعـمالِ تَجوزينَ؟ يا نفسُ ذكري الميزانَ إذا نُصب للعدل بينَ الخلائقِ، يا نفسُ اذكُري شِدةَ الوقوفِ وحرِّهِ».

قال: ثم إنَّ فضلونَ قامَ وفرشَ سَجادةً معه ولم يزلْ راكعاً وساجداً حتى قرُبَ الصباحُ لاحَ الفجرُ. فلما رأى الإمامُ عمرُ منه ذلك قال: «والله لقد كذَبوا عليه فيما يقولون، لكنْ إنا ه وإنا إليه راجعون». ثم إن الإمامَ عمرَ توارَى عن فضلونَ حتى خرج من القبرِ وقلعَ القيدَ السلسلةَ ووضعَهـما في الجُـرابِ ودَفَنهـما في المكانِ الذي كانوا فيه، ورجعَ إلى منزلِهِ. ورجع إمام عمرُ إلى منزلِهِ وأتى المسجدَ، فلما كان وقتُ صلاةِ الصبح أتى فضلونُ يريدُ الصلاةَ ع الجـماعـةِ ولسـانُـه لايفـترُ عن ذكرِ الله تعالى. فلما صلَّى الإمامُ الصبحَ وفرغَ من الدعاء

أخـرج الـورقـةَ ودفَعها إلى فضلونَ وأمرَه بقراءتِها. فأخذها فضلونُ وقرأها وفهم معناها وما فيها، وقال: «والله ياأميرَ المؤمنين ما فعلتُ شيئاً من ذلك، ولكن حَسبي الله في ما يقولون عليّ». فقال عمرُ: «صدقتَ والله يا أخي، نعمَ العبدُ أنتَ، فلله دَرُّكَ. ولقد اطَّلعتُ على حالِـك وفعلك، ولـو علمتُ مَن كتب هذهِ الـورقَـةَ، وتكلمَ في حقِّـك بما فيها لبطشْتُ به، ولكنْ أرجـو منَ الله تعـالى أن يقـابلَ مَن كتبَها ويجازِيَه بفعلهِ. / فقال: «يا أميرَ المؤمنينَ عَفا الله عن كاتِبها ولا أؤاخذُه بما كتبَ عليَّ». ٦٩/ب

قال: وكان ذلكَ في أشهرِ الحجِّ، فأرادَ فضلونُ أن يحجَّ إلى بيتِ الله الحرامِ، وزيارةَ الرُّكنِ والمقام، والشربَ مِن ماء زمزمَ، وزيارةَ سيدِ الأنام. فقال للإمام عمرَ: «يا إمامُ، إني أريـدُ الحـجَّ وأريدُ منك الدعاء». فقال عمرُ: «بسم الله وعلى بركةِ الله، وأنا أساعدك بمئةِ دينـارٍ تُنفقهـا ونـاقـةٍ تركبُهـا وعبدٍ يخدمْك في الطريق». فقال له فضلونُ: «أما المئةُ دينارٍ فلا حاجةَ لي بها وبيتُ مالِ المسلمين أحقُّ بها مني. وأما العبدُ فإني أكرهُ أن يخدِمَني مخلوقٌ مثلي وأنـا مخلوقٌ مثلُه. وأمـا النـاقـةُ فلا أقبلُهـا ولا أركبُهـا وأرى أن المشيَ في الطـاعـةِ أولى من الـركـوب. ولكن يا أمـيرَ المؤمـنـين أريـدُ منك أن تملأ جُرابي سَويقاً لاغير»[1] فأمرَ له الإمامُ بِمَلء جُرابهِ سَويقاً، وقد تعجَّب منه ومن مقالتهِ وكيفـ ردَّ ما أنعمَ الله عليه. وخرجَ فضلونُ معَ الناس إلى ظاهرِ المدينةِ وصارَ مع الرَّكب إلى بيتِ الله الحرامِ. فلما سمعتِ الجاريةُ نُباتَةُ بأن فضلونَ العـابـدَ خرجَ قاصـدَ الحـجِّ لم يَقرَّ لها قرارٌ، بل قامتْ من وَقتها وساعَتِها وجهَّزت حالَها وسائرَ مصالحِ الحجِّ، وأدركتِ الركبَ وكانت صاحبةَ مالٍ كثيرٍ. قال الراوي: وسارَ فضلونُ مُسبِّحاً لله حامداً له وليس عندَه علمٌ بالجارية. فبينَما هوَ في الطريق إذ نظر إلى جانبهِ فرأى الجـاريـةَ بإذائـهِ تمشي، فظنَّ أنهـا سائـرةٌ إلى بيتِ الله الحـرام، قاصـدةٌ إلى أداء النُّسـك وعبادةِ الرحمن ولم يعلم أن سفرَها لأجلهِ. فقال لها فضلونُ حين رآها: «أفلحتِ/ أفلحتِ يا نُباتةُ إذ خرجتِ حاجَّةً إلى بيتِ الله الحرام». فقالت: «والله يا فضلونُ ما لهذا خرجتُ، إنما خرجتُ لأجلك ولا أطلبُ إلا أنتَ. آهٍ من جَورك فخذْ يا فضلونُ هذه الألفَ دينارٍ وافعلْ ما ٧٠/آ

---

١ ـ السويق: الناعم من دقيق الحنطة والشعير.

أقولُ لكَ ولا تُخالفْني». فقال لها: «وَيْلك يا نُباتةُ فيما تقولين، تأدَّبي فأنا والله لا أفعلُ شيئاً مِن ذلك، وذلك يُغضب الله عزَّ وجل». فقالت: «يا فضلونُ لا تُخالفْ قَولي وافعلْ ما أقولُ لك وما آمُركَ به. فإذا وَصَلنا إلى مكةَ تصدَّقْتَ عنِّي وعنكَ بألفِ دينارٍ على المساكينِ فتكونُ كفَّارةً لذَنْبنا والله غفور رحيم». فقال لها فضلونُ: «وَيلك تأدَّبي، فإن الزِّنى ليس له كفارةٌ إلا نارُ جهنم، وإني لا أفعلُ ذلك أبداً ولو قُطِّعت إرْباً إرْباً». فلما أيِستْ منه وانقطعَ رجاؤُها قالت في نفسِها: «والله لا بدَّ لي أن أرْميَهُ في بلاء لا تقبلُه أرضٌ ولا سماء».

ثم رجعتْ إلى مكانها حزينةً كئيبةً ودخلتْ خيمتَها ودعتْ جاريةً لها وقالت لها: «ما تَقولين[1] في مئةِ دينارٍ تأخذينَها[2] وعِتقِ رقبتِكِ من العُبودية؟». فقالت لها الجاريةُ وقد فرحتْ بقولها فرحاً شديداً: «ومَن يكرهُ ذلك يا سيدتي؟ وما تريدين أن أصنعَ لك في مُقابلة ذلك؟». قالت: «تمضينَ في هذه الساعةِ إلى فضلونَ وتَسْترصدينَه إلى أن ينامَ في محلِّه، فإذا نامَ تَأتينَني بجُرابِهِ». فقالت لها: «حُباً وكرامةً». ثم مضتِ الجاريةُ إلى مكانِ فضلونَ وفعلتْ ماأمرتْها به سيدتُها ثم أتَتْها بالجرابِ، لم يَعلمْ به فضلونُ، قال: فأخذتْ نُباتةُ الجرابَ من جاريتها فأفرغتْ ما كانَ فيه من السَّويق ووضعتْ فيه كيساً/ فيه ألفُ دينارٍ وعقدٌ لها يساوي ألفَ دينار، وقالت للجارية: «خذي هذا الجرابَ ورُدِّيه إلى مكانهِ من غير أن يشعرَ بكِ فضلونُ وعودي إليَّ حتى أُوفِّيَ لك ما وعدتُك به». ٧٠/ ب

قال: فأخذتْ ذلك الجرابَ ومضتْ به إلى عندِ فضلونَ وهو نائمٌ ووضعتْه تحتَ رأسهِ ورجعتِ الجاريةُ إلى سيدتها وأعْلمتْها بذلك. فأكرمتها وشكرتْها على ما فَعلتْ، ثم قامتْ وصَرختْ بأعلى صوتِها ولطمتْ على وجهها وشقَّتْ أثوابَها وحثَتِ الترابَ على وجهها ورأسِها، ونادتْ بأعلى صوتها: «يا أهلَ الرَّكب، أدرِكوني فقد سُرِق مالي وذَهب حالي». قال: فاجتمعَ إليها أهلُ الركب وقالوا لها: «ما الذي دهاكِ؟»[3] فقالت: «أنا امرأةٌ ضعيفةٌ وحيدةٌ وليسَ لي رجلٌ ولا أهلٌ وقد خرجتُ من داري مُهاجرةً إلى الله ورسوله ومعي نفقةٌ

---

١ ـ في الأصل: تقولي.
٢ ـ في الأصل: تأخذيها.
٣ ـ في الأصل: دهاكي.

أستعينُ بها على الطريق، وقد سُرقت مني، ولا أعلمُ مَن أخذها، ولم يَبقَ لي مالٌ غيرُها، ولا حيلةَ لي». قال: فقالوا لبعضِهم بَعضاً: «يا قومُ، ها نحن رَكْبٌ وما بَينَنا دَخيلٌ، فدوروا حولَ الرَّواحلِ والأَحمال وفتِّشوا بينَ النساء والرجال».

قال: وكان سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه في ذلك الركبِ يريدُ الحجَّ. فأمره القومُ أن يطوفَ على الناسِ جميعاً ويفتِّش رجالَهم، فطافَ على الجميع حتى لم يبقَ غيرُ فضلونَ فتركَه ولم يفتِّشه لأجلِ صَلاحِهِ واعتقادِهم أنه لا يفعلُ هذا. فقالتِ المرأةُ: «كيف أُظلم بينكم ويضيعُ مالي؟». فقالوا: «قد فتَّشنا الركبَ ولم يبقَ منا غيرُ فضلونَ، وحاشاهُ مِن ذلك فإنه لا يفعلُ من ذلك شيئاً». فقالت: «يا قومُ فتِّشوه، ولا تَتركوا/ قَلبي مَقْبوضاً، فإنْ لم تجدوه وإلا احتبسْتُه عند الله تعالى، وأفوِّضُ أمري إلى الله». فقال القومُ: «يا سَلمانُ فتِّشْ مَتاعَ فضلونَ، وما عليكَ عتبٌ ولا لَومٌ». فقال: «يا قومُ، إني أَستحي من الله تعالى أن أفتشَ رجلاً هو عابدُ المدينةِ وزاهدُها». فقالوا: «هو كما تقول، ولكن لا خوفَ عليك ولا بأسَ ولكن ليطمئنَّ خاطرُ المرأة». ٧١/آ

قال: فأتى سلمانُ إلى فضلونَ ووقفَ بين يديهِ ولم يقدرْ [أن][1] ينطقَ بذلك حياءً منه. فعلم فضلونُ مُرادَه فقال: «يا قومُ أنا ما معي منَ المتاع غيرُ هذا الجراب، خُذوه وفتشوه، وانظروا ما فيهِ، واعلمو[2] أنَّ ما فيهِ غيرَ السويق». فأخذ سلمانُ الجرابَ والناسُ ينظرون إليه، وفَتحهُ فإذا بالكيسِ والعقدِ كما قيلَ. فلما رأى[3] الناسُ ذلك ضجُّوا ولم يعلموا ما يقولون، إلا أنهم قالوا: «هذه حكومةٌ لا يفصلُها إلا أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب». فأخذتِ الجاريةُ مالَها ورجعتْ إلى خيمتِها وأيقنتْ إلى بلوغِ أملها ومَكيدتها.

ثم ساروا ونزلوا مرحلةً أخرى، فنزلتِ الجاريةُ إلى جانب فضلونَ وتخفَّتْ عنه، فلم يَعرفْها. لما جنَّ الليلُ جاءت إلى عبدٍ لها وقالت له: «قمْ فأَزِلْ بِكارتي وأنتَ حرٌّ لوجهِ الله تعالى». فقام العبدُ وفعلَ ما أمرتْه بهِ سيدتُه، وخرجتْ من عندهِ وأتَتْ إلى خيمتها،

---

١ - إضافتنا.

٢ - في الأصل: واعلم.

٣ - في الأصل: رأوا.

فوجدتْ جاريَتَها نائمةً فأخذتْ سكيناً وذَبحتها، ثم صرختْ صرخةً عظيمةً وصاحت: «يا أهلَ الركب أدرِكوني». فأولُ مَن أدركها فضلونُ، فلما قرُبَ إليها نهضتْ إليه وقبضتْ على طوقـهِ وجعلتْ تستغيثُ بالنـاس حتى أتـوْهـا فقـالـت لهم: «هـذا فضلونُ العـابدُ/ القليلُ الخـوفِ منَ الله تعـالى، وبـالأمسِ سرقَ مالي وعقـدي وأخرجتموه من جُرابهِ، والليلةَ نزلَ إلى جانبي وهَجم وأنا نائمةٌ، فذبح جارِيَتي وغَصَبني على الزِّنى فأزالَ بِكارتي وفَضَحني بين أبنـاء جنسي». قال: «فتعجَّبَ النـاسُ من ذلـك، وكـبرُ لديْهم ما سَمعـوه منهـا في حقِّ فضلونَ، ونظـروا إلى الجـاريـةِ فإذا هيَ مقتـولـةٌ، فتكلَّمـوا في فضلونَ بالـزائدِ والناقص، وقالوا: «هذا لا يحلُّ ولا يجوزُ ولا يَرضاه أحدٌ». ثم عمدوا إلى فضلونَ فقيَّدوهُ وأوثقوه وقالوا: «هذا أمرٌ شديدٌ، وإن تركناهُ يزيدُ، ولا يحلُّ لنا إهمالهُ، ولا يحكمُ فيه إلا أميرُ المؤمنينَ عمرُ ابنُ الخطاب رضي الله عنه».

ثم سارَ الناسُ إلى الحج ومالَهم حديثٌ إلا فضلونُ ونُباتَةُ، وهم يظنون أن ذلك ما وقـعَ من فضلونَ حقـاً. ولم يزالـوا سائـرين حتى دَخلوا مكةَ المشرفةَ، فطافوا وطافَ فضلونُ بالقيدِ حتى قضَى مناسكَه، وهو لا يجيبُ أحدًا بجوابٍ، ولا يَعلم بحالهِ إلا الملكُ الوهَّابُ إلا أنـه كان إذا جنَّ الليـلُ نادى: «ياحنَّـانُ يا منَّـانُ أنت أعلمُ بحـالي، ولا يَخفى عنـك سُؤالي. أنتَ كاشفُ ضُرِّي، أنت عالمُ سرِّي وجَهري. إلهي أسألُك الرضَى عني وأعوذُ بك من فعلِ شيء يُبعدُك عني. إلهي أنتَ الرجاء وإليك الملتجأ، إلهي أنتَ الأملُ وإليك المتَّكلُ».

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: وكان فضلونُ مع ذلك لا يكلمُ أحداً ولا يحدثُه، بل كان صابـراً بما قضى الله عليـه، راضيـاً بما أجـراهُ القدرُ وجرَّه إليه. ولم يزلْ على هذه الحالةِ حتى رجـع الـركبُ إلى المـدينـةِ الطيبةِ الأمينة. وخرج الناسُ يتلقَّون أهالِيَهم وأصحابَهم. هذا، والإمـامُ عمـرُ رضي الله عنـه يسألُ عن/ فضلونَ العـابـدِ؛ عابـدِ المـدينةِ وزاهدِها، صاحبِ الوقارِ والسكينة. فقال له الناسُ: «يا إمامُ، لا تقلْ هذا المقالَ في حقِّ مَن طُرد عن بابِ الملك المتعـالِ، ولا تظنَّ أنَّـه عابـدٌ ولا زاهـدٌ، ولكن قل: أينَ السـارقُ الـزَّاني القاتلُ النفسَ التي حرَّم الله قتلَها بغير الحقِّ؟ الفاعلُ المنكراتِ، الهاتِكُ للحُرماتِ؟ يا أميرَ المؤمنين

٧١/ب

٧٢/آ

إن فضلون زَنى وسرقَ وقتل النفسَ التي حرم الله قتلها بغير حق». وأخبروه بما رأوه وما عايَنُوه.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: فلما سمعَ ذلك الإمامُ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه تعجَّبَ وانتفَضَ وارتعدَ وقال: «ياقومُ أنتم تَشهدون بذلك؟». قالوا: «نعم يا أمير المؤمنين ونحنُ أربعُ مئةِ رجلٍ من المسلمين وقد حَججنا[1] إلى بيتِ الله الحرام وكلُّنا نَشهدُ على فضلونَ أنه سرقَ ألفَ دينارٍ وعقداً[2] يساوي في الثمنِ مثلَها. وما أَخرجَ ذلك من جرابِهِ إلا سلمانُ الفارسيُّ بحضرةِ جَميعِ الرَّكب. وفي الليلة الثانيةِ أتى إليها وهجم عليها وكشفَ عنها وافتضَّها وقتلَ جاريتَها، ورأيناهُما مُتَماسكين، ودمُ الجاريةِ سائلٌ».

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: فغابَ عمرُ عن الوجودِ لما سمعَ عليه هذا القولَ من الشهودِ وقال: «لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون». ثم إنه أمرَ المنادي أن ينادِيَ في أزقَّةِ المدينة وشوارِعها: «يا معشرَ المسلمين، مَن أرادَ أن يحضُرَ قضيَّةَ فضلونَ العابدِ فليسارعْ إلى ظاهرِ المدينة». قال: فنادَى المنادي في الأسواق كما أَمر الإمامُ عمرُ رضي الله عنه. وخرجَ الناسُ من العمرانِ وهُرعوا من كلِّ جانبٍ، وأمر الإمام عمرُ بقطعِ / يده[3] كما سَرق، وأن يُجلدَ كما زَنى، وأن يُقتل كما قَتل. ٧٢/ب

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: فجعلوا يسحبونَه في قيودِهِ وأغلالِهِ، وهو لا يُبدي جواباً حتى أُحضروه بينَ يدي الإمامِ عمر رضي الله عنه، فأمر بضربِهِ. فأخذ العبدُ الجلدةَ، يعني السَّوط، بيدِهِ وضربَه أولَ ضربة، فرمَقَ فضلونُ بطرْفِهِ إلى السماء وقال: «يامَن يرى ولا يُرى وهو بالنظر الأعلى». ثم ضربَه الثانية فقال: «يا رَجائي إذا انقطعَ الرجاء». فلما أرادَ أن يضربَه الثالثةَ وقفتْ يدُ العبدِ في الهواء، فوقع مِن يدِهِ السوطُ وانهزمَ. فأمر الإمامُ عمرُ بردِّه. فأُحضروه فقال له الإمام عمرُ: «ما منعَكَ أن تضربَ فضلونَ الحدَّ؟». قال: «يا إمامُ إنَّ قلبي يحدِّثني أنه مظلومٌ». قال: «وكيفَ عرفتَ أنه مظلومٌ؟».

---

١ ـ في الأصل: حجينا.

٢ ـ في الأصل: وعقد.

٣ ـ في الأصل: بيده.

قال: «كلما ضربتُـه ضربـةً سمعتـه[1] يقـول: ياهُـوياهُـو، فأسمعُ النداء مِن السماء: لبَّيك عَبدي». قال: فلما سمعَ الإمامُ عمرُ ذلك من الجلادِ تعجَّب وتعجبتِ الناسُ وازدحموا عليهِ ومالوا إليه وتَعطَّفوا وهم يبكون.

قال ابن عبـاس، رضي الله عنهما: وكان عمرُ رجلاً قوياً في دين الله، لا تأخذه في الله لَومةُ لائمٍ. فقال لرجلٍ غيرِ هذا العبد: «اضربْ أنتَ، فوالله لا أعطِّلُ حدًّا من حدودِ الله تعـالى». قال: فتقـدَّمَ ذلـك الرجلُ فضربَ فضلونَ حتى كمَّلَ الحدَّ الشرعيَّ، ثم أمر عمرُ بقطعِ يدهِ، فأَوْثَقوه بالحبال. فلما رأى فضلونُ ما نَزل به رمقَ بطرفهِ إلى السماء وبكى، فقال عمرُ: «يافضلونُ، اصبرْ على ما قدَّر الله عليك، فهذهِ ثمرةُ الذنوب». فقال فضلونُ: «يا أمـيرَ المؤمنـين، أريـدُ منكَ حاجةً واحدةً قبل هذا، وافعلْ ما أردتَ». / قال: فبكى الإمامُ عمـرُ وقـال: «قـلْ ما بدا لك». فقال فضلون: «يا إمامُ، لا تَعجبْ مِن هذا، وسوفَ يظهرُ لك الحقُّ، والحـدُّ ليس على الفَـور». قال: فأجـابَـه الإمـام عمـر إلى سؤالهِ، وأمر الناسَ بالرجوع إلى المدينةِ، وأنه يؤخَّرُ إلى غدٍ. فرجع الناسُ إلى منازلهم مُتعجبين بما جَرى لفضلونَ.

٧٣/آ

قال ابنُ عبـاس رضي الله عنهـما: وأَعـادوا فضلونَ إلى مكـانـهِ، ووَكَلوا به جماعـةً يحرسونَهُ. فلما أقبلَ الليلُ قام فضلونُ إلى الصلاةِ، ولم يزلْ راكعَاً وساجداً طوالَ الليل إلى أن أصبحَ الصبـاحُ، فبسـطَ يدَيْه بالدعاء ورفعَ طرفَه إلى السماء ونادى: «ذهبَ الصَّبرُ عني وبعُدَ الناصرُ فأَغِثْني بعليٍّ بنِ أبي طالب يا قويُّ يا غنيُّ، جلَّتْ قدْرتُك وتقدَّستْ أسماؤكَ يا عظيمَ العظـماء وإلـهَ الأرضِ والسـماء. إلهي قد أَثْقلتني الأغـلالُ وأَشغلتني عن عبادتك في الغدوِّ والآصال».

قال ابنُ عبـاس، رضي الله عنهـما: فما اسْتَتمَّ دعـاءهُ فضلونُ حتى أَلقى الله عليـه النَّومَ. فرأى الإمامَ عليّ رضي الله عنه في نَومهِ وهو يقول له: «يا فضلونُ من أَجلك أتيتُ، وإلى نحـوكَ سَعيتُ، ولكن عنـد الصبـاح إن شاء الله تعالى أُدركُك، فإذا أحاط بك البلاء

---

١ - في الأصل: أسمعه، وهو جواب «كلما».

وضاقَ بك الملأ فنادِني[1] باسمي أجيبُك مسرعاً بإذنِ مَن يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ». فاستيقظَ فضلونُ مِن منامِهِ، وقد فرح بما رأى، وجدَّد الوضوء، وأقبلَ على عبادةِ الله تعالى حتى أصبحَ الصباحُ. خرجَ الإمامُ عمرُ رضي الله عنه وطلبَ فضلونَ، واجتمع الناسُ من كلِّ مكانٍ، وامتلأتِ الرَّوابي والطُّرقاتُ، وقدَّموا فضلونَ في قيودِهِ وأغلالِهِ وأمروا بقتلِهِ في ذلك اليوم. فأمرَ الإمامُ/ عمرُ بقطعِ يدهِ لأجلِ السرقةِ، فبكتِ الخلائقُ عليه وتألَّموا مما وصلَ من الأذى إليه. فعند ذلك رمقَ فضلونُ بطرفِهِ إلى السماء استغاثَ بالملك الأعلى ونادى: «إلهي وَعْدَكَ وعدكَ، يا مَن لا تُخلفُ الميعادَ». ثم قال: «يا غياثَ المستغيثينَ أغِثْني بعليٍّ، ياربَّ الأوَّلينَ والآخرينَ أدرِكْني بعليٍّ». ثم رفع صوتَه ونادَى: «يا عليُّ أدرِكْني، يا عليُّ أغثْني، يا عليُّ خَلِّصني». قال: فتصارخَتِ الناسُ من سائرِ الأماكنِ والأقطارِ، وبكى عمرُ رضي الله عنه، وضجَّتْ ملائكةُ السماواتِ، وقالوا: «إلهنا انظرْ إلى عبدك فضلونَ». فقال: «كلَّ وقتٍ أراهُ بعيني». ثم أمرَ الله الريحَ أن تحملَ صوتَ فضلونَ، فتضعَهُ في أذنِ عليٍّ رضي الله عنه، وكانَ جالساً بجامعِ الكوفةِ وهو أميرُها، والمصحفُ في حُجرِهِ. فلما سمعَ ذلك الصوتَ طَوى المصحفَ وأدارَ وجهَه نحو المدينةِ وقال: «لبَّيكَ يا فضلونُ، أنا واصلُ إليك». قال عبدُه قَنْبرُ: فقلتُ له: «يا مولايَ لِمَن تُخاطبُ؟ ومَن تُجاوبُ؟» قال: «يا قنبرُ، إنَّ فضلونَ عابدَ المدينة وزاهدَها قد رُمِيَ بمكيدةٍ عظيمةٍ، ووقع في ضيقةٍ شديدةٍ، وقد وعدَني ابنُ عمي محمدٌ ﷺ أن أُخلِّصَه من شِدَّتِه، وأكونَ له مُعيناً عند نائبتِهِ بقدرةِ الله تعالى».

قال قنبرُ: «فقلتُ: يا مولايَ، وأينَ نحنُ من المدينةِ، وبينَنا وبينَها عشرون يوماً للراكبِ المُجدِّ». قال: فتبسَّم الإمامُ عليٌّ كرم الله وجهه وقال: «يا قنبرُ، قمْ فاتْبَعني، وكلما رفعتُ قدمي وضعتَ[2] قدمَك مَوضعَه فأنا عليٌّ وارثُ علمِ المصطفى النبيِّ المختار». قال: ثم إن الإمامَ علي شدَّ وسْطَه بِمِنطَقةٍ وأدارَ أذيالَه حولَ مِنطقتهِ وخرجَ من المسجد، /وتابعَه قنبرٌ. فصار ينظرُ إلى الأرض العالية تَتواطى والواطئةِ تَتعالى. وكانتِ الأرضُ تحتَ أقدامهم

٧٣/ب

٧٤/آ

---

١ - في الأصل: ناديني.

٢ - في الأصل: ضع.

كالموج إذا دخلَ تحتَ السفينة. قال قنبر: «لقد عددتُ سبعَ عشرةَ[1] خطوةً، فإذا نحن قد أشرفنا على نخيلِ الأرض». قال قنبر: «فقلتُ: لله دَرُّكَ يا إمامُ!». قال: «ياقنبرُ، والله لو لم تكنْ معي لأرفَعَنَّ قَدمي من الكوفة وأضعنَّ الأخرى في المدينة». فأسرعتُ المشيَ وتقدَّمتُ إلى فضلونَ، فرأيتُ الناسَ حولَه وقد أحدقوا به، وفضلونُ يُنادي بأعلى صوتِهِ: «يا عليُّ، آهٍ أدركني، يا عليُّ أغثني، يا عليُّ». فتقدَّمَ قنبرٌ إليهِ وقال له: «يا فضلونُ، أبشِرْ ولا تَخفْ، فلقد أتاكَ كاشفُ الكَرْباتِ، ومحلُّ المُشكلاتِ، الإمامُ العدْلُ الرضيُّ، وارثُ علمِ المصطفى ﷺ». ففرح فضلونُ بذلك غايةَ الفرح، وتقدَّمَ الإمامُ عليّ رضي الله عنه وقالَ: «يا فضلونُ، لا خوفَ عليك ولا بأسَ، أبشرْ بالخلاصِ بعدَ الإياس». فلما سمع الناسُ كلامَ الإمام عليّ رضي الله عنه أقبلوا إليه بالسلام، وقام إليه عمرُ، وضمَّه إلى صدرِهِ، وقبَّلَ ما بينَ عينيهِ. فقال له علي: «يا أميرَ المؤمنينَ، ما قَضيةُ فَضلونَ؟». قال: «إنه زَنى وسرقَ وقتلَ فشهدَ[2] عليه بذلك أربعُ مئةِ رجلٍ من حُجاجِ المسلمين». فقال له الإمامُ علي رضي الله عنه: «إني لا أسمعُ هذا القولَ في فضلونَ، ولا أصدقُ فيه». فقال له عمرُ: «وكيفَ ذلك؟». فقال عليٌّ: «سوف تَرى يا أميرَ المؤمنين، إني أحكمُ فيه حكومةً تتعجَّبُ منها الخلقُ حتى الملائكةُ في السماوات».

ثم إن الإمامَ علي كرم الله وجهه قال: «يا قنبرُ، امضِ إلى حديقةِ بني النَّجارِ وائْتِني بنُباتَةَ بنتِ كنانَةَ عاجلًا». قال: فمضَى قنبرُ حتى أتى إلى منزلها/ فطرقَ عليها البابَ 74/ب فقالت: «مَن بالبابِ؟». فقالَ: «قنبرُ غلامُ علي بن أبي طالب». فلما سمعتْ بذكرِ عليٍّ بن أبي طالب تغيرَّ لونُها وتلجلجَ لسانُها. ثم فَتحتِ البابَ وقالتْ: «ياقنبرُ خُذْ هذهِ المئةَ دينارٍ وقُل: ما وجدْتُها». وأرادتْ تَتوارى. قال قنبر: «وَيلكِ اخْرُجي، فهذا شيء لا يكونُ أبداً، وإن لم تَخرجي طَوعاً أخرجتكِ[3] كَرْهاً». قال: فلما أَيِستْ منه خرجتْ معه إلى أن وصلتْ معه إلى عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، ووقفتْ بينَ يديهِ ذليلةً صاغرةً. فقال لها: «يا

---

١ - في الأصل: سبعة عشر.

٢ - في الأصل: وشهدوا.

٣ - في الأصل: أخرجتكي.

جاريةُ، فِيما ذا تدَّعين[1] على فضلونَ عابدِ المدينةِ وزاهدِها؟». قالت: «سَرق لي مالاً وفَضَحني في نَفْسي، وما كفاهُ ذلك حتى قَتل جاريتي». فقال: «هَل لكِ شهودٌ عليه؟».
قالت: «شهدَ لي بذلك أربعُ مئةِ رجلٍ من حجاجِ المسلمين». فقال: «هل لكِ شهودٌ غيرُ هؤلاء؟». قالت: «وأيُّ شهادةٍ أعظمُ من هذه الشهادةِ، ولكن قد وهبتُ لفضلونَ ذنبَهُ وأبرأتُه مما فعلَ في حقِّي لأجلك لأنَّكَ تمنعُني حقِّي». قال عليٌّ وقد غضبَ: «وَيلكِ أَنَسبْتِني للظُّلم؟ ولكن كم لكِ مِن حينَ ظهرَ حَمْلُكِ منَ الأيام؟». قالت: «خمسةٌ وسبعون ليلةً، وأنا بينَ أحشائي أحسُّ به ثقيلاً». فقال: «أترضَين بهذا الجنينِ الذي ببطنِكِ يكونُ شاهداً لكِ وعليكِ؟». قالت: «نعمْ رضيتُ». قال: فأمَرَ علي رضي الله عنه بإحضارِ عُصبةٍ من النساء يحضرنه[2]. فأمر أن تجلسَ بَينهنَّ، وأمر قنبر أن يأتِيَهُ بالقَضيبِ الذي كان لرسولِ الله ﷺ، فأخذَه الإمامُ بيدِه ونهضَ قائماً، وتقدَّم إلى الجاريةِ، ووضعَ القضيبَ وقال: «أيُّها الجنينُ، انطقْ بقدرةِ الله تعالى الذي أَنطقَ كلَّ شيء وأَخبرْني: /مَن أبوكَ؟ ومَن سرق المالَ ووضعَه في الجراب؟ ومَن قَتلَ الجاريةَ؟». قال: فنطقَ الجنينُ وصاح في ظُلمةِ الأحشاء بصوتٍ وقال: «يا إمامُ أبي عبدُها رَيحانُ، وهو الذي فكَّ خَتْمها، وهي التي ذَبحتِ الجاريةَ، وهي التي وضعتِ المالَ في الجراب». ٧٥/آ

قال: فضجَّتِ الخلائقُ من ذلك وتَعجبتْ وتعجَّبَ عمرُ وفرحَ فرحاً شديداً. وأقبلَ الناسُ على فضلونَ وأَطلقوه من الأغلال والقيود، وجعلوا يُقبِّلون يديْهِ ورجليهِ. ونهضوا إلى الجاريةِ، وجَعلوها في قيودِهِ وأغلالِهِ. ثم أمرَ علي رضي الله عنه أن تُتركَ في التَّرسيم[3] حت تضعَ حَمْلَها وتُرضعَ ولدها. وبعد ذلك تُجلدُ حدَّ الزِّنا، وتُقتلُ بقتلها. ثم قامَ الإمامُ علي رضي الله عنه وتقدَّمَ إلى الإمام عمرَ رضي الله عنه، واستأذنَه في الرجوع إلى الكوفةِ. فأذِنَ له ثم ودَّعَ المسلمينَ ورجعَ إلى الكوفة.

قال: ثم إنَّ الإمامَ عمرَ أمهلَ الجاريةَ حتى وَضعتْ غُلاماً أسودَ، وماتَ لوقتِهِ.

---

١ ـ في الأصل: تدعي.
٢ ـ في الأصل: يحضرونها.
٣ ـ الترسيم: ختم الإناء، وهنا بمعنى الأسر والسَّجن.

فأمـرهم الإمـامُ عمـرُ بقتلهـا . فقُتلتْ . فأقـام فضلونُ يعبدُ الله تعالى إلى أن أَدركَه الأجلُ ولحقَ بربِّه عزَّ وجل . .

فانظرْ يا أخي إلى كيدِ هذهِ المرأةِ، وما حصلَ منها حتى إنها زَنتْ وقتلتْ النفسَ التي حرَّمَ الله قتلها فنعوذُ بالله من كيدِهن «إن كيدهنَّ عظيم» .

قصّة دهاء العجوز

ومن هذا القَبيل ما أوردَه الإمامُ أبو الفرج رحمه الله في بعض كتبهِ عن حَفص بنِ عبد الرحمن قال: بَلغني أنَّ فتىً من أهلِ المدينةِ كان يشهدُ الصلاةَ معَ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه. وكان عمرُ يفتقدهُ إذا غابَ عن الجماعةِ. قال: فهويَتْه امرأةٌ من المدينةِ/ فذَكرتْ ذلك لبعضِ نسائها لمَّا فاضَ الغرامُ بها. فقالتْ لها: «أنا أحتالُ لكِ في إدخالهِ عليكِ، ودونَك وَهوَ». قالت: «نِعمَ المرأةُ أنتِ». فعقدتْ له المرأةُ في الطريقِ، وهو في مُصلاَّهُ. فلما مرَّ عليها قالتْ له: «يا شابُّ أنا امرأةٌ كبيرةُ السنِّ، ولي شاةٌ في مَنزلي ولا أستطيعُ أن أحلبَها. فلو نَويتَ الثوابَ ودخلتَ حَلبتَها لي لأعطيتَ الثوابَ الجزيلَ». فحملَ كلامَها على الصِّدق، ودخلَ المنزلَ فلم يرَ الشاةَ. فقالت: «ادخُلْ داخلَ البيتِ حتى آتِيَكَ بها». فدخلَ من بابٍ فإذا امرأةٌ خلفَ البابِ، فأغلقتْ عليهِ البابَ. فلما رأى ذلك عمدَ إلى محرابٍ في البيتِ، فقعدَ فيهِ، فراوَدَتْه عن نفسهِ فأبى، وقال لها: اتقي[1] الله أيتُها المرأةُ». وهي لا تكفُّ عن المُراوَدةِ، ولا تَلتفتُ إلى قولهِ. فلما امتنعَ وأبى وأَيستْ منه صاحتْ فسمعَ الناسُ صوتَها. فجاؤوا ودَخلوا عليهِ فقالتْ لهم: «إن هذا الرجلَ دخلَ عليَّ يُراوِدُني عن نَفسي». فوثَبوا عليه وجَعلوا يضربونَه. ثم كتَّفوهُ وأَوثقوهُ. فلما صلى الإمامُ عمرُ صلاةَ الصبحِ تفقَّدَه فبَيْنَما هو كذلك إذ جاؤوا به في وثاقٍ، فلما رآهُ عمرُ موثوقاً قال: «اللهمَّ لا تخيِّبْ ظني فيه». ثم قالَ لهم: «ما الخبرُ؟». قالوا: «يا أميرَ المؤمنين، استغاثتِ امرأةٌ من الليل فجئنا فوجدْنا هذا الغلامَ عندَها، فأوجعناهُ ضَرباً وأَوْثَقناه كِتافاً». فقال له عمرُ: «اصدُقْني ما الخبرُ». فأخبرهُ بالقصةِ وما قالتْ له العجوزُ، فقال له عمرُ: «أتعرفُها؟» قال: «نعمْ إذا رأيتُها».

٧٥/ب

---

١ ـ في الأصل: اتق.

قال: فأرسلَ عمرُ إلى نساء جيرانِها وعجائزِهنَّ، فعُرِضْنَ عليه، فجعل لا يعرفُ أحداً منهنَّ حتى مرَّتْ عليهِ العجوزُ. فقال: «هذهِ يا أميرَ المؤمنين»/. فوقعَ عليها أميرُ المؤمنينَ بالدِّرَّةِ ٧٦/آ وقال لها: «اصدُقيني». فقصَّتْ عليهِ القصَّةَ كما قصَّ الفتى. فقال عمرُ: «الحمدُ لله الذي أوجدَ فينا مَن هوَ شَبيهٌ بيوسُفَ الصدِّيقِ عليه السلام.

فانظـرْ إلى كيـدِ هذهِ العجـوزِ كيفَ احتـالتْ على دُخولِ هذا الفتى على تلك المرأةِ لتُفسِـدَن عليـه دينَـهُ، وتُـوقعَ صاحبتَها في الزِّنى، ونَبذتِ التَّقوى وراء ظهرِها، ولم تَخفِ الله تعالى، ولم تذكرْ يومَ الحساب. وانظرْ فعلَ تلك المرأةِ كيف استعانتْ بهذه العجوزِ حتى تبلغَ مُرادَها مِن ذلك الشابِّ، وهذهِ عادتُهنَّ يستعنَّ ببعضِهنَّ على بلوغ مقاصدِهن. فعليهنَّ مِن الله ما يستحقُّون. ونعوذُ بالله من كيدِهن «إن كيدَهنَّ عظيم».

قصّة الشاب المسحور

وأوردْنا أيضاً عن الإمام أبي[1] الفرجِ عن جابر بنِ نوح قال: كنتُ بالمدينةِ المشرَّفةِ على صاحبها أفضلُ الصلاة والسلام. فجلستُ يوماً عندَ بعضِ أهلِ السوق، فمرَّ بنا شيخٌ كبيرٌ حسنُ الوجه حسنُ الثياب، يَبتاعُ شيئاً. فقامَ إليه البائعُ وسلَّم عليه وقال لهُ: «يا أبا محمدٍ اسأل الله العظيمَ أن يعظِّم أجرَكَ، وأن يَربطَ على قلبك بالصَّبر». فقال لهُ الشيخُ مُجيباً له بهذه الأبياتِ، يقول:

وكان يَميني في الوغاء وساعِدي ... فأصبحتُ قد خانتْ يميني ذِراعُها

وأصبحْتُ حَيرانـاً منَ الثُّكلِ حائراً ... أخا كَلفٍ ضاقتْ عليَّ رِباعُها

فقال له البائعُ: «اصبرْ يا أبا محمدٍ؛ فإنَّ الصبرَ مُعوَّلُ[2] لأمرِ المؤمن. وإني لأرجو أنْ لا يحرمَكَ الله الأجرَ على مُصيبتك». قال: فقلتُ للبائع: «هذا الشيخُ مَن هوَ؟». فقال: «رجلٌ من الأنصارِ والخزرجِ». قال: فقلتُ: «ما قصتُهُ؟». / قال: «أُصيبَ بموتِ ابنهِ». ٧٦/ب

فقلت: «وما كان السببُ في ذلك؟». قال: «أحبَّتْه امرأةٌ من الأنصارِ، فأرسلتْ إليه تَشتكي حبَّها لهُ، وتسألُه الزيارةَ وتَدعوهُ إلى نفسِها. وكانتْ ذاتَ بعلٍ، فأرسلَ إليها يقولُ هذه الأبياتَ:

---

١ - في الأصل: أبو.

٢ - في الأصل: معولاً.

إنَّ الحـرامَ سَبـيـلاً لستُ أسلكُـهُ ... ولا أمـرُّ بهِ ما عِشـتُ في الـنـاسِ
فالـقـي الـعـتـابَ فإني غيرُ مُتَّبـعٍ ... ما تشتـهي، فتكـوني[1]منـه في ياسِ
إني لأحـفـظُ فيكـمْ مَن يُصيبكـمُ ... فلا تكـوني أخـا جَهـلٍ ووسْـواسِ

فلما قرأتْ هذه الأبياتَ كتبتْ إليهِ تقولُ:

دعْ عنـكَ الـذي أصبحتَ تذكـرُهُ[2] ... وسِـرْ إلـى حاجَـتي يا أيُّهـا القـاسِي
ودعِ النُّسـكَ عنـك فإني غيرُ ناسكـةٍ ... ولـيسَ يدخـلُ ما أُبـديـتَ في راسِـي

قال: فأفشى ذلـك إلى صديقٍ لهُ فقـال لهُ: «هـلاَّ بعثتَ إليهـا بعضَ أهلِكَ يعظُهـا ويـزجـرُهـا، لعلَّهـا تكفُّ عنـك ما تُريـدُ؟». فقال: «واللهِ ما فعلتُ، وإلا صِرتُ في الدنيا حَديثاً. والعارُ في الدنيا خيرٌ من النارِ في الآخرة». ثم قال:

الـعـارُ في مدَّةِ الـدنـيـا وقـلَّتِـهـا ... يَفـنـى ويَبقى الـذي في النـارِ يُؤذيني
والـنـارُ ما تَنْـقـضـي ما دامَ بي رمـقٌ ... ولـسـتُ ذا سُنَّـةٍ فيـها فَتَـنْـتِـيـني
لكـنْ[3] سأصـبرُ صبرَ الحـرِّ مُحتسِبـاً ... لعـلَّ ربِّـي منَ الـفِـردوسِ يُدنِـيـني

قال: وأمسـكَ عنهـا وقطـعَ الـرسـائلَ. فأرسلتْ إليه تقولُ: «إمَّا أن تزورَني وإما أن أزورَكَ». فأرسـلَ إليهـا يقولُ: «ارجعي أيتُها المرأةُ ودَعي عنكِ هذا الأمرَ». فلما أَيستْ منه ذهبتْ إلى امرأةٍ ساحرةٍ، فجعلتْ لها جُعلاً في تَهييجه إليها. فعملتْ لها تَهييجاً. فبينَما هو ذاتَ ليلةٍ جالسٌ / مع أبيـهِ إذ خطـرَ ذكـرُهـا في قلبهِ فهاجَ بهِ منَ الشوقِ والمحبةِ شيء لم يكن ٧٧/آ

---

١ - في الأصل: فكوني، غيرناه للوزن.
٢ - الصدران مضطربا الوزن.
٣ - في الأصل: ولكن.

يعـرفُـه من نفسـهِ. واختلطَ عقلُه، فقامَ مِن بينِ يديهِ مُسرعاً إلى الصلاةِ، واستعاذَ باللهِ منَ الشيطـانِ الـرَّجيم، والأمـرُ يزدادُ به. فقال له أبوهُ: «يا بُنيَّ، ما أصابَكَ وما خَبرُكَ؟». فقال لهُ: «يا أبتِ. أدركْني فما أراني إلا قد غَلبتْ عليَّ امرأةٌ». فجعلَ أبوهُ يبكي ويقولُ: «يا بُنيَّ، حدِّثْني بالقصةِ، ومـا أنتَ فيـه». فحـدَّثَـه بقصتـهِ. فقـامَ إليـه وقيَّدَه وأدخلَهُ بَيتاً. فجعلَ يَضطربُ فيهِ ويخورُ كما يخورُ الثَّورُ إذا ذُبح، ثم هدأَ ساعةً فأشرفَ عليهِ أبوهُ عندَ هدوئهِ فإذا هوَ قد ماتَ، وإذا الدمُ يسيلُ من مَنخِريهِ، رحمةُ الله تعالى عليه.

فانظرْ إلى فعل هذهِ المرأةِ الخائنةِ، حَمانا الله منهنَّ وكيدِهن.

قصّة من رفضت الزواج

ومن هذا القبيل ماحكاهُ الأصمعيُّ أن بعضَ العُبَّادِ رأى امرأة من أهل البصرةِ، فأعجبتْه فتعلَّقَ قلبُه بها وبحبِّها. فأرسلَ إليها ليخطُبَها فأَبتْ وقالت له: «إنْ أردتَ مني غيرَ ذلك فعلتُ لكَ ورضيتُ». فأرسلَ إليها يقول: «ياسُبحانَ الله أيتُها المرأةُ! أَدعوكِ إلى الأمرِ الصَّحيحِ الحلالِ الذي لافيهِ عيبٌ ولا إثمٌ، وتَدعينني إلى مالايصلحُ لي ولك!». فأرسلتْ إليه تقولُ: «قد أخبرتُك بالذي عندي وماأَرتضيهِ. فإن أردتَ فتقدَّمْ، وإن كرهتَ فتأخَّرْ».
فأنشدَ عند ذلك يقولُ:

أأسألُها[1] الحلالَ وتدعُ[2] قَلبي ... إلى مالا يريدُ منَ الحرامِ
كداعي آلِ فرعونٍ إليهِ ... وهمْ يَدعوهُ[3] للفعلِ الحرامِ
فظلَّ مُنعَّماً في الخُلدِ يَسعَى ... وظلُّوا في الجحيمِ وفي اغْتمامِ /

قال: فلما علمتِ المحبوبةُ أنه امتنعَ منها وممَّا تدعوهُ من الفاحشةِ بها أرسلتْ إليه تقول: «قد رضيتُ لك فيما تقولُ، وأنا بينَ يديك على الذي تُحبُّ». فكتب إليها: «هيهاتَ هيهاتَ لاحاجةَ لي فيمن أَدعوه إلى الطاعة، وهو يدعوني إلى المعصية». وأنشد يقول: ٧٧/ب

لاخيرَ فيمَن لايراقبُ ربَّهُ ... عندَ الهوى، ويخافُه أحيانا

---

١ ـ في الأصل: أسألها.
٢ ـ صوابه: تدعو، لكنه اضطر للوزن.
٣ ـ اضطر للوزن، وصوابه: يدعونه.

إنَّ الـذي يَبـغـي الهـوى ويـريـدُهُ كمؤاخـيٍ شيطـانُـه شَيطـانـا
حجـبَ الهـوى بابَ الـتُّقى فأخـو التُّقى عَفُّ الخـلـيـقـةِ زائـداً إيـمانـا

فانظـرْ رحمـك الله إلى شؤم هذه المـرأة وسوء قَصدِها وكيفَ غلبَ هواها على عَقلـها ودينهـا حتى اختـارتِ المعصيـةَ على الطـاعةِ والحرامَ على الحلال. وانظرْ عفةَ ذلك الرجلِ الصالحِ حيث لم يُوافقها في فعلِ الهلاكِ آخراً، لعلمِه أنَّ الغالبَ عليها عدمُ الصلاحِ لأنَّ كلَّ امرأةٍ اعتادتْ على الزنى وذاقتْ الحرامَ قلَّما تتوبُ عنه، أو يُرجى خيرُها. فلم يتزوجْها وبَنى أمرَهـا على الغـالب من أحـوالهنَّ لأن الغـالبَ عليهن عدمُ الصَّلاح وقلةُ الخير وتركُ التَّـوبـة. فلهـذا قالَ ﷺ: «المـرأةُ الصـالحـةُ بينَ النسـاء كالغـراب الأعصم[1]». وفي روايةٍ أخـرى: «مَثَـلُ المـرأة المؤمنةِ كمثلِ غرابٍ أعصمَ بينَ مئةِ غرابٍ». وفي رواية: «بينَ غربانٍ سُودٍ». يعني أن الصالحةَ من النساء قليلٌ نادر.

فهذا الرجل الصالحُ لم يـرضَ لنفسهِ معاشرةَ هذه في الحلالِ بعدما ظَهر منها الميلُ إلى الفعـل الحـرامِ والإعـراضُ عن الفعـلِ الحـلالِ، وخـافَ إن تزوجَ أن لاترجعَ عن طَبعها وخُبثِهـا، واستعمـلَ / قولَ الشـارع ﷺ: «إيـاكُم وخضـراء الـدِّمن»[2]. قيل: وماخضراء الدِّمنِ؟. قال: «المرأةُ الحسناء في المنبتِ السُّوء». وأنشدني في ذلك المعنى يقولُ: ٧٨/آ

إنَّ الـنـسـاء هُم الخـيـولُ بِعَـيـنِـهـمْ فاخـتـرْ لنـفـسـكَ ماتحبُّ وتـعـشَـقـا
وخُـذِ الأصـيـلةَ إنْ بُليـتَ وكُـن بها بَطـلاً شجـاعـاً فارسـاً لاتُـلـتَـقَـى
واحـفـظْ زِمـامَ عِنـانِهـا مِن غَدرِهـا واحـذَرْ تُصـدِّقَ أنهـا لك تَعْـشَـقـا
واسـمـعْ كلامـي إنـني ذو خُلطـةٍ درْتُ الـبـلادَ فقـلما ذي تُلتـقَـى

---

١ ـ وفي رواية من غير «بين النساء». وقيل: يارسول الله، وماالغراب الأعصم؟ قال: «الذي إحدى رجليه بيضاء»، وهذا عزيز.

٢ ـ الدِّمن: الموضع الذي يلتبد فيه السرقين. وقد شبه الرسول (ص) المرأة بما ينبت في الدمن من الكلأ؛ يُرى له غضارة وهو وبيء المرعى مُنتن الأصل.

أقوال فيهن

وفي الحديث عن أسامةَ بن زيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قمتُ على بابِ الجنة فإذا عامَّـةُ مَن داخِلها المسـاكـينُ، وقمتُ على بابِ النـارِ فإذا عامَّـةُ مَن داخلهـا النساء». قال القـرطبي في «التـذكـرة»: «وإنـما كانتِ النسـاء أقلَّ ساكني الجنةِ لما يغلبُ عليهنَّ منَ الهوى والميلِ إلى عاجلِ زينةِ الدنيا لنقصانِ عُقولِهنَّ، وفي ذلك ضَعُفْن عن حملِ الآخرة والتأهُّبِ لها. ومـعَ ذلـك هنَّ أقـوى الأسبـابِ التي تَصـرِف الـرجالَ عن الآخرةِ لما فيهنَّ منَ الهَوى، فأكثرُهُنَّ مُعرِضاتٌ عن الآخرةِ بأنفُسهن، صارفاتٌ عنها بغُرورهنَّ، سريعاتُ الانخداعِ بِدَواعيهنَّ».

قال عليٌّ رضي الله عنـه: «أيُّهـا الناسُ لاتُطيعوا للنساء أمراً، ولاتَدعوهنَّ يُدبِّرْن أمراً عسيراً فإنهنَّ إنْ تُركن ومايُرِدْن أفسدْن المُلكَ، وعصينَ المالكَ. فإنا وجدناهُنَّ لادينَ لهنَّ في خَلَواتهن ولاوَرَعَ لهنَّ في شَهَـواتهنَّ. اللذةُ بهنَّ يَسـيرةٌ، والحـيرةُ بهنَّ كثيرةٌ. فأمَّا صَوالحهنَّ فَفَـاجـراتٌ، وأمـا طَوالحهنَّ فعـاهراتٌ. / والمعصوماتُ فيهنَّ من المعدوماتِ، فيهنَّ ثلاثُ خصالٍ من اليهود: يَتَظلَّمنَ وهنَّ ظالماتٌ، ويَحلِفْنَ وهنَّ كاذباتٌ، ويتمنَّعْنَ وهنَّ راغبات. فكونوا من خيارِهنَّ على حَذر». ٧٨/ ب

وفي الحـديثِ عن النبي ﷺ أنـه قال: «مـارأيتُ من ناقصـاتِ عقـلٍ ودينٍ أسلبَ للرجـلِ الحـازمِ منكنَّ يامعشـرَ النسـاء». وقـال الإمـامُ عمرُبنُ الخطاب رضيَ الله عنه في حقهن: «شاوِروهنَّ وخالِفوهنَّ». وقال أيضاً: «خالِفوهنَّ، فإن في خلافِهنَّ البركةَ».

فائـدة: ذكـر الإمـامُ العـلامـةُ المعروفُ بالجُرعيِّ في كتابه «شِرعة الإسلام»[1] في قوله

---

١ ـ ذكر حاجي خليفة أن «شرعة الإسلام» هو للإمام الواعظ المعروف بإمام زاده الحنفي (ت ٥٧٣). ولم يذكر أنه للجرعي.

تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: «وشاوِرهُم في الأمرِ»[1] أي وشاورْ عشرةً من أصحابك في الأمر. قال: فيَستحبُّ للإنسانِ إذا أرادَ أن يشرعَ في أمرٍ من الأمورِ أن يشاورَ عشرةً من العقلاء الأخصَّاء به. فإن لم يكُنْ له غيرُ خمسةِ أصدقاء يُشاورُ كلَّ واحدٍ مرتين. فإن لم يكنْ لهُ غيرُ صديقٍ واحدٍ فيشاوره عشرَ مراتٍ في عشرة[2] مجالسَ. فإن لم يجدْ أحداً يشاورُه فليرجعْ إلى زوجتهِ ويشاوِرْها، فمهما أشارتْ بهِ عليهِ يعملْ بخلافهِ، فإنه يَرشدُ في أمرهِ ويصيبُ. وهذا المعنى هو الذي حملَ الإمامَ عمرَ على قولهِ: «شاوِروهنَّ وخالفوهنَّ» كما تقدمَ من قبلُ.

---

١ ـ الآية: ١٥٩/ آل عمران: ٣.

٢ ـ في الأصل: عشر.

قصّة يزيد وحبّابة

وممَّا افتُتنَ بهنَّ، وبلغ به الأمرُ إلى ذَهابِ نفسهِ مع جلالةِ قدرهِ وعلوِّ شأنهِ يزيدُ بنُ عبدِ الملك أميرُ المؤمنينَ من الخلفاء الأموية[1]. وكان له جاريتان إحداهُما تُسمى «حَبَّابَةَ»[2] /والأخرى «سَلاَّمةَ»[3]. وكان حبُّه لحبابةَ أشدَّ، وكان قد اشتراها بمئةِ ألفِ درهمٍ فضةً، 79/آ
واشترى سلامةَ بعشرةِ آلافٍ. فلما اجتمعا عنده أنشدَ يقولُ:

وألقتْ عصاها واستقرَّ بها النَّوى[4] كما قرَّ عَيناً بالإيابِ المسافرُ

وكانَ يقيمُ الشهرَ والشهرينِ والثلاثةَ، عاكفاً عليهما خالياً بهما. قد أهدرَ أمرَ الرعيةِ، لايراهُ أحدُ من رعيتهِ ولاخواصِّه. فلما طالَ ذلك عليه دخلَ عليه أخوهُ «مَسلمةُ» فأكثرَ عليهِ اللومَ وعاتَبه وعنَّفَهُ عما كان عليه من الخَلوة والانقطاع، وقال لهُ: «ياأميرَ المؤمنينَ، يقفُ

---

١ ـ ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١. عاش بين ٧١ ـ ١٠٥، ومات بعد أيام من موت حبابة في إربد ودفن بدمشق، وكان الخليفة الوحيد الذي مات عشقاً. وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً.

٢ ـ اشترتها له زوجته سعدة بأربعة آلاف دينار لأنها علمت أنه يحبها، على أمل أن توطد ولاية العهد لابنها، وقيل غير ذلك. وانظر أخبارهما في الأغاني: ١٥ / ١٢١ ـ ١٤٥. وكان لها دور كبير في العزل والتولية. وقد أخذت الغناء عن جميلة ومعبد وابن سريج.

٣ ـ سلامة كانت جارية مصعب بن سهيل الزهري، وحبابة كان اسمها العالية جارية لابن رمانة، وقيل غير ذلك.

٤ ـ رواية الأغاني: واستقرت، وهو أصوب، والبيت لمعقر بن حمار البارقي يصف امرأة كانت لا تستقر على زوج، حتى تزوجها رجل فرضيت به وسكنت عنده. وانظره في عيون الأخبار: ٢/ ٢٥٩.

ببابِك وفودُ الناسِ وأشرافُ العرب فلا تأذَنُ لهم ولاتخرجُ إليهم، وأنتَ قريبٌ بعمرَ بنِ عبدِ العزيز، وقد علمتَ طيبَ ذكرهِ وجميلَ أثرهِ وحُسنَ سيرتهِ». فقال: «أرجو أن لاتُعاتِبَني على مثلِ هذا بعد يومِنا هذا».

فلما خرجَ من عندهِ استلقى يزيدُ على فراشهِ مُتفكِّراً في ماقالَه أخوهُ. فدخلتْ عليهِ حبَّابةُ فأعرضَ عنها، فقالت: «مابالُكَ ياأميرَ المؤمنين مُعرضاً عني؟». فأخبرها بما قالَه أخوهُ مَسلمةُ. فقالت لهُ: «مَتِّعْني منك بمجلسٍ واحدٍ لأبلغَ منك مُرادي وتَبلُغَ مُرادَكَ مني، واصنَعْ ماشئتَ». فقال لها: «صبيحةَ غدٍ لكِ ذلك إن شاء الله تعالى». فلما أصبحَ أمرَ بالطعامِ والشراب، فلما أخذ منها الشرابُ غنَّتْه حبابةُ هذه الأبياتَ تقولُ:

إذا كنتَ[1] لم تَعشَقْ ولم تدرِ مَاالهوى ... فكنْ حجراً من يابسِ الصَّخرِ جَلْمَدا

فأجابها يقول:

وإني لأهواها وأبغي لقاءها ... كما يَشْتهي الصَّادي الشرابَ المذَوَّبا/

وغنَّته سلامةُ هذه الأبياتَ:

٧٩/ب

كريمُ قريشٍ حين يُنسبُ والنَّدى[2] ... أقرَّ لهُ بالفضلِ كهلاً وأمْردا

أهانَ تلادَ المالِ بالجودِ إنَّه ... إذا ماهَدى يَجري على ماتَعوَّدا

فقال لها الخليفة: «ويحكِ ياسَلامةُ[3]، مَن كريمُ قريشٍ هذا؟». قالت: «أنتَ ياأميرَ المؤمنينَ». قال: «صدقتِ واللهِ. قاتلَ اللهُ مسلمةَ أخي، ولعنَ رأيَه». ثم نهضَ يرقصُ من الوجدِ ويدورُ في المجلسِ ويقولُ: «واطَرباً، والكريمُ طروبُ». واستخفَّه الشرابُ أشدَّ

---

١ ـ وفي رواية: إذا أنت. والبيت للأحوص وانظر البيت في محاضرات الأدباء: ٣/ ٤١.
٢ ـ وفي رواية الأغاني: والذي أقرت، ولعله أصوب، وانظر خلاف الرواية: ١٥/ ١٣٤.
٣ ـ لعل الصواب حبابة، وهي قائلة البيت السابق.

استخفافاً حتى وضعَ وسادةً على رأسهِ وصارَ يدورُ في المجلس ويرقصُ ويقول: «السمكُ الطَّريُّ أربعةُ أرطالٍ عندَ البقَّال»[1]. وهو يكرِّرُ ذلك ويرقصُ. وشقَّ حلَّةً كانت عليهِ. وكانتِ الحلةُ تساوي ألفَ دينارٍ، وأصبحَ خالياً بلذَّتهِ، مُقبلاً على لهوِهِ وسرورِهِ، وحبابةُ تغنِّيهِ، وهو يقول: «لا تُطلعوني على أمرٍ من الأمور، أنا في حُبِّي وعِشقي أدورُ».

ولم يزلْ كذلك وهو مع حبابةَ وسلامةَ طائشَ العقل إلى أن بلعتْ حبابةُ في مجلسهِ حبةَ رمانٍ فشرقَت بها فماتتْ. فجزعَ عليها جزعاً شديداً، وازدادَ عليه غرامُ الفراقِ، ومكثتْ ثلاثةَ أيامٍ ولا يدفنُها وهو مُعتكفٌ عليها يعضُّها ويقبِّلها ويصيحُ بجَنْبها كأنها لم تمتْ عندَهُ، حتى نَتَنتْ وجافَتْ[2]، وهو يضمُّها ويكلمُها. فكلَّمه جماعةٌ من أهلِهِ وقالوا له: «اتقِ الله في نفسِك يا أميرَ المؤمنين وادفُنْ هذه الجاريةَ، فإنها جيفةٌ، وإكرامُها دفنُها». فأذِنَ لهم في دفنها. فلما كان بعد خمسةِ أيامٍ غلبَ الهوى والغرامُ والشوقُ إليها والوحشةُ منها. / فأمر بنَبشها، فنُبشت وكُشف عنها الترابُ. فإذا هي تغيَّرتْ تغيُّراً قَبيحاً وتفسَّخت أعضاؤها، فعُوتبَ في ذلك فقال: «ما رأيتُها قطُّ أحسنَ منها الساعَةَ». فدخل عليهِ مَسلمةُ وقال: «والله لَئن بلغَ أهلَ الشام خبرُكَ وما أنتَ عليهِ ليقولونَ: قد خُولطتَ في عَقلك، وليخلعنَّكَ الناسُ من الخلافةِ، وأنتَ أعلمُ بما أقولُ لك». فأمَرَ بدفنِها وردِّ التراب عليها. ثم لازمَ فراشَه وهو لا يستطيعُ الكلامَ. ثم عاشَ بعدَها سبعَ عشرةَ ليلةً وماتَ ودُفن إلى جانبها، رحمةُ الله عليهما.

٨٠/آ

١ ـ وذكر أبو الفرج أنه كان يهذي بقوله: «الدخن بالنوى والسمك في بيطار جِنان».

٢ ـ جافت الجثة: إذا أنتنت.

العشق

ضرر الهوىٰ في الدنيا والدين

وفي كتابِ «ذمِّ الهوى» من الجزء الأول منه لابنِ الجَوزي رحمه الله تعالى أنَّ العشاقَ قد جاوزوا حدَّ البهائم في عدمِ مَلكةِ النفسِ في الانْقيادِ إلى الشَّهواتِ، لأنهم لم يَرضَوا أن يُصيبوا شهوةَ الوطْء، وهي أقبحُ الشهواتِ عندَ النفسِ الناطقةِ من أيِّ مَوضعٍ كان حتى أرادُوها من شخصٍ بعينهِ، فضمُّوا شهوةً إلى شهوةٍ، وذلُّ الهوى ذلٌّ على ذلٍّ. والبهيمةُ إنما تَقصدُ دفعَ الأذى عنها لاغيرُ. وهؤلاء استخدموا عقولَهم في تدبيرِ نَيلِ شَهواتهم. فالعشقُ بيِّنُ الضَّررِ في الدنيا والدين. أما في الدنيا فإنه يورثُ الهمَّ الدائمَ والذلَّ الكاملَ والفكرَ اللازمَ والوسواسَ والأرقَ وقلةَ المطعمِ وكثرةَ السَّهرِ. ثم يتسلَّطُ على الجوارحِ فينشأ عنهُ الصفرة في البدنِ، والرِّعدةُ في الأطراف، واللَّجلجةُ في اللسانِ، والنُّحولُ في الجسد. فالرأيُ منه عاطلٌ والقلبُ غائبٌ، مِن تدبيرِ مَصالحهِ / عواطلُ، والحسراتُ تتتابعُ، ٨٠/ ب والزَّوراتُ تتوالى، والأنفاسُ تمتدُّ، والأحشاء تضطربُ. فإذا صارَ على القلبِ غشاء تاماً آلَ إلى الجنون. وماأقربَهُ من التكلف! هذا وكم يَجني من جنايةٍ على العِرضِ ومن الجاهِ بينَ الخلقِ. وربَّما أوقع في عقوباتِ البدنِ وإقامةِ الحدِّ.

قال: وأنشدوا في المعنى حيثُ قالوا:

وماعاقلٌ في الناسِ يُحمدُ أمرُهُ ... ويُذكَرُ إلا وهْوَ في الحبِّ أحمقُ

وما مِن فَتىً ماذاقَ بؤسَ معيشةٍ ... منَ الناسِ إلا ذاقَها حينَ يَعشقُ

ولأبي الفرج بن الوردي حيث يقول:

سَبيلُ الهَوى وَعرُ — وحُلوُ الهوى مُرٌّ
ويردُ الهوى حَرٌّ — ويومُ الهوى دَهرُ
وسرُّ الهوى جَهرُ

وأما ضررُه في الدين فإن العشقَ يشغَلُ القلبَ عن الفكرِ فيما خُلقَ له من معرفةِ الإلهِ والخوفِ منه والقربِ إليه، ثم بقدرِ ماينالُ مِن موافقةِ المحرمِ يكون خسرانَ الآخرةِ وتعرُّضهِ لعقوبتهِ عند خالقهِ. فكلما قرب[1] بعد عن مولاهُ، ولايكادُ العشقُ في الحلال المقدورِ عليه، وإن وقعَ فيا سُرعةَ زوالهِ! وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن عشقَ وكتَمَ وعفَّ وماتَ ماتَ شهيداً». وفي رواية: «فهو شهيدٌ».

مجنون بني عامر:

وممن زادَ به الحبُّ حتى أخرجَه عن حيِّز العقل «مجنونُ بني عامرٍ»، وحكايتهُ مشهورةٌ، وهو مجنونُ ليلى. رُوي أنه ذاتَ يومٍ [كان نائماً][2] على ساحلِ البحر، فمرَّتْ به سفينةٌ، وأصحابُها يجرُّونها باللَّبان[3]، وهم يقولون في جَرِّها لها: «هِيلا، هِيلا». فاستيقظ / مفزوعاً مِن منامه وهو يقول: ٨١/آ

ألا أيُّها السَّفَّانُ أقلقْتَ نَومَنا — بذكركَ «هِيلا» والسَّفينُ غَريقُ
حسابيَ أنَّها ليلى، فهيَّجْتَ مابِنا — وأطلقْتَ في قلبِ المَشوقِ حَريقُ[4]

---

١ - في الأصل: يقرب.
٢ - إضافة المحقق.
٣ - اللبان: الصدر من ذي الحافر خاصة (اللسان). وفي الصحاح: ماجرى عليه اللبب من الصدر.
٤ - لم يذكرهما الديوان.

ابن أبي مالك:

وممن زادَ به الحبُّ أيضاً ابنُ أبي مالكٍ. وكان قبلَ ذلك من أعقلِ الناس حتى هَوي امرأةً فزادَ به الهوى حتى أخرجَه عن حيِّزِ العقل. قالَ عبدُ الله بن عبَّادٍ: خرجتُ يوماً أريدُ بعض الحوائجِ فإذا أنا بابنِ أبي مالكٍ وهو قاعدٌ في الصحراء بينَ الحيرةِ والكوفةِ. فقلتُ له: وماتصنعُ هاهُنا؟ قال: أصنعُ ماكان صاحبُنا يصنعُ. فقلتُ: ومَن[1] صاحبُكُم؟ قال: مجنونُ بني عامرٍ صاحبُ ليلى. وإلى جانبهِ حجرٌ[2] تناولهُ وعَدا خَلفي وضرَبني به. فتجاوَزَني الحجرُ. وعدتُ إليه فقعدتُ قريباً منه، فقال: والله ماأحسنَ ولا أجملَ مِن مجنونِ ليلى، حيث قالَ هذه الأبياتَ:

عشقتُكِ أنْ عَيني عليها غشاوةٌ   فلما انْجلتْ قطَّعتُ نَفسي ألومُها[3]

ثم قالَ مالم يُقلْ مثلُه. قلتُ أنا:

رَماني الهوَى منهُ بأعظمِ حَسرةٍ   وعَسكرَ حَولي الهَجرُ دونَ حَبيبي
فصبرٌ لعلَّ الدَّهرَ يجمعُ بيننا   بإلفِ حَبيبي أويموتَ رقيبي

ثم قال: مالنا لانقولُ أحسنَ مِن هذا؟: لا إلهَ إلا الله الواحدُ الأحدُ، علا فَقَدر، وحكمَ فعدَلَ.

قال عبدُ الله بنُ إدريسَ[4]: رأيتُ ابنَ أبي مالكٍ جالساً في موضعٍ قد كان فيهِ رمادٌ،

---

١ - في الأصل: وما.

٢ - في الأصل: حجراً.

٣ - غير مذكور في الديوان.

٤ - عبد الله بن إدريس الأودي الكوفي من أعلام حفاظ الحديث. فاضل ورع معاصر لهارون الرشيد. توفي سنة ١٩٢.

ومعَهُ قطعةُ جِصٍّ، أي جِبسٍ، يخطُّ بها، ويستبينُ الجصَّ في سوادِ الرَّمادِ. قال: فقلتُ له: / يابنَ أبي مالكٍ، ماتصنعُ؟ قال: أصنعُ ماكانَ صاحبُنا يصنعُ، يعني مجنونَ بني عامرٍ. ٨١/ب
قال: فقلتُ: وماكانَ يصنعُ؟ قال: أما سمعتَهُ يقولُ:

عشيَّةَ[1] مالي حيلةٌ غيرَ أنَّني ... بلقْطِ الحصَى والخطِّ في الدارِ مُولَعُ
أخُطُّ وأمحو كلَّ ماقد خطَطْتُهُ ... بدَمعيَ، والغربانُ في الدارِ وُقَّعُ

قلت: فما سمعتُه. قال: فتضاحكَ ثم قالَ: أما سمعتَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: «ألم ترَ إلى ربِّك كيفَ مدَّ الظلَّ، ولو شاء لجعلَهُ ساكناً؟»[2] أو مارأيتَ يابنَ إدريسَ؟ هكذا كلامُ العرب.

عشق طائفي

وعن محمدِ بن نصرٍ الأزديِّ قال: رأيتُ بالبصرةِ مَجنوناً كان قد ابتُلي بحبِّ امرأةٍ قاعداً على ظهرِ الطريق. فلما مرَّ ركْبٌ أنشدَ هذه الأبياتَ:

ألا أيُّها الركْبُ اليَماني[3] عَرِّجوا ... عَلينا فقد أضحى هَوانا يَمانيا
نسائلُكُم هل سالَ نعمانُ بعدَنا ... فحبٌّ إلينا بطنُ نعمانَ[4] وادِيا

---

١ ـ في الديوان: وعيشكِ، وعوضاً عن «الدار» ذكر «الأرض». البيت الثاني غير مذكور في الديوان: ١٨٧.
٢ ـ الآية: ٤٥/ الفرقان: ٢٥.
٣ ـ البيتان مذكوران في معجم البلدان، وفيه بيت ثالث. وفي المعجم: اليمانون.
٤ ـ نعمان: واد ينبته ويصب إلى ودان، وهو بين مكة والطائف.

قال: فسألتُ عنه فقيلَ لي: هذا رجلٌ من أهلِ الطائف. ... .[1] عليها فصار مجنوناً في حبِّها كما ترى.

عشق سواد

وعن محمدِ بنِ العدلِ قال: كانَ سوادُ بنُ عبدِ الله القاضي[2] قد خامَر عقله وقلبَه شيء من الوجدِ، فكان من كثرةِ وجدِهِ يقول هذه الأبيات:

سَلبْتُ عِظامي لحمَها فَتركتُها ... عواريَ في إجلائِها تتكسَّرُ
وأخْليْتُ منها مخَّها فكأنَّها ... قواريرُ في أجوافِها الريحَ تَصفِرُ
خُذي بِيدي ثمَّ اكشِفي الثَّوبَ وانْظُري ... ضَنَى جَسَدي لكنَّني أتَستَّرُ/

عشق سليمان بن أبي جعفر

٨٢/آ

ورُوي أن هارونَ الرشيدَ دخلَ على سليمانَ بنِ أبي جعفرٍ[3]، وكان عاملاً لهُ، فرأى عنده جاريةً له تُسمى «ضَعيفة»، وكانت في غايةِ الحسن والجمال. فوقع في قلبِ هارونَ الرشيدِ حبُّها. فقالَ لسليمانَ: هَبْها لي. فقال: هي لكَ ياأميرَ المؤمنينَ هبةً. فلما أخذَها هارونُ منه مرضَ سليمانُ من شدَّةِ محبتهِ لها، فأنشأ يقولُ هذه الأبياتَ:

---

١ ـ فراغ قدر ثلاث كلمات.

٢ ـ سوار بن عبد الله من بني العنبر. قاض له شعر رقيق وعلم بالفقه والحديث. ولد بالبصرة وسكن بغداد وتولى قضاء الرصافة. توفي ببغداد سنة ٢٤٥.

٣ ـ صواب اسمه «سليمان بن جعفر»، ولعل الناسخ أضاف كلمة «أبي». وهو سليمان بن جعفر بن سليمان العباسي الهاشمي، والي مكة في أيام الرشيد ثم والي البصرة، وهو خطيب فصيح. توفي بعد ٢٤٨.

أشكو إلى الله ما ألقاهُ مِن أمرِ الخليفَة
سمعَ البريَّةُ عَدلَهُ ويريدُ يظلمُ في ضَعيفَة
علقَ الفؤادُ بحبِّها كالحبرِ يعلقُ في الصَّحيفَة

قال: فبلغَ ذلك الرشيدَ، فردَّها عليه.

عشق يحيى البرمكي[1]

وعن عليِّ بن الجهم[2]، عن أبيهِ قال: أصبحتُ ذاتَ يومٍ وأنا على غايةٍ من الفاقةِ والضِّيقة، لاأملُك ديناراً ولا درهماً إلا دابةً عجفاء[3] وخادماً خَلقاً. فطلبتُه فلم أجدْه، ثم إنه جاء بعد ذلك فقلتُ له: أين كنت؟ قال: كنتُ أحتالُ في عَلفٍ لدابَّتك، فوالله ماقدرتُ عليه. فقلتُ: أسرجِ الدابَّةَ. فأسرجَها وركبتُ. فلما صرتُ في سوقِ يحيى بنِ خالد البرمكيِّ، فلما وقع نظرُه عليَّ سلمتُ عليه فقالَ لي: سِر. فسرنا قليلاً فحجزَ بَيني وبينَه غلامٌ يحملُ طبقاً، فوقفَ على بابٍ يصيح بجاريةٍ فوقفَ الفضلُ قليلاً ثم قالَ: سِرْ. فسرنا ثم قال: أتدري ماسببُ وقوفي؟ قلتُ: لا. قال: كانتْ لأختي جاريةٌ وكنتُ أحبُّها حباً شديداً، وأستحي من أختي أن أسألَها إياها، ففطنتْ أختي لذلك. فلما كان في هذا اليومِ ألبسَتها وزيَّنتها وبعثتْ بها إليَّ. فما كان من يومٍ أطيبَ مِن هذا اليوم...

فلما كان في هذا اليومِ جاءني رسولُ أميرِ المؤمنين / فأزعجني وقطع عليَّ لذَّتي. فلما صرتُ إلى هذا المكانِ دعا هذا الغلامُ صاحبُ هذا الطبقِ باسم تلك الجاريةِ فارتحتُ لندائهِ ٨٢/ب

---

١ ـ هو يحيى بن خالد بن برمك: مودب الرشيد ومعلمه، وقد رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل. وحين ولي الرشيد الخلافة دفع إليه خاتمه. سجنه الرشيد في الرقة إلى أن مات سنة ١٩٠.

٢ ـ شاعر رقيق الشعر من أهل بغداد، معاصر لأبي تمام. مدح المتوكل ثم غضب عليه فنفاه إلى خراسان. ثم انتقل إلى حلب. مات من جراح في حرب مع بني كلب سنة ٢٤٩.

٣ ـ عجفاء: ضعيفة.

ووقفتُ أسمعهُ. فقلت له: أصابَكَ ماأصابَ مجنونَ بني عامر حيثُ قال:

ودَاعٍ دَعا إذ نحنُ بالخَيفِ[1] من مِنى فهيَّجَ أحزانَ الفؤاد ومايَدْري
دَعا[2] باسمِ ليلى غيرَها فكأنَّما طارَ بليلي طائرٌ كان في صدري

فقال لي: اكتبْ هذينِ البيتينِ. فعدلتُ أطلبُ ورقةً أكتبُهما فيها لهُ، فلم أجدْ ثمنَها، فرهنتُ خاتَمي عند بقّالٍ وأخذتُ ورقةً فكتبتُهما فيها وأدركتُه بها فقال لي: ارجعْ إلى منزلك. فرجعتُ فقال لي الخادمُ: أعطِني خاتَمك أرهنْه على مانَقْتاتُ به. فقلتُ: هو مرهونٌ على ورقةٍ. فما أمسيتُ حتى بعثَ إليَّ الفضلُ بثلاثينَ ألفِ درهمٍ من الفضةِ جائزةً، وعشرةَ آلافٍ سَلفاً من رزقٍ أجراهُ لي. ولقد أحسنَ مَن قال:[3]

وقد زَعموا أنَّ المحبَّ إذا دَنا وأنَّ النأيَ[4] يَشفي من الوجدِ
بكلٍّ تَداوينا فلم يُشفَ[5] مابِنا على أنَّ قربَ الدارِ خيرٌ مِنَ البعدِ

---

١ ـ الخيف: ماانحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من منى.
٢ ـ في الأصل: دعي، ومانقلناه عن محاضرات الأدباء: ٣/ ٥٤. وانظر فيه خلاف الرواية.
٣ ـ الشاعر هو ابن الدمينة، وهو عبد الله بن عبيد الله، أبو السريّ. في حياته اضطراب وغموض. قتل في تبالة، في عصر بني أمية. ويعد من المتيمين وممن شهروا بالصبوة.
٤ ـ اضطرب العجز على رواية الكتاب بقوله: وإن نأى، وصوّبناه من الديوان.
٥ ـ وهم الناسخ إذ قال: فلم يكشف.

قصّة زوجة الأعرابي ومعاوية[1]

ورُوي أنَّ أميرَ المؤمنينَ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ جلسَ يوماً بمجلسٍ كان له بدمشقَ، وكان ذلك المجلسُ مُفتَّحَ الأبواب والجوانبِ، يدخلُ منه النَّسيم. فبينَما هو جالسٌ ينظر إلى بعضِ الجهاتِ، وكان يوماً شديدَ الحرِّ لا نسيمَ فيه، وكان وسَطَ النهار وقد نفخَ الهجيرُ إذ نَظر إلى رجلٍ يمشي نحوَهُ وهو يتلظّى من حرِّ التراب، ويحجلُ[2] في مشيهِ حافياً / راجلاً. ٨٣/آ فتأمَّله معاويةُ وقال لجلسائهِ: هل خلقَ الله أشقى ممَّن يحتاجُ إلى هذهِ الحركةِ في هذه الساعةِ؟ فقال بعضُهم: لعلَّه يقصدُ أميرَ المؤمنين. فقال: والله لئَن كان قاصداً سائلاً لأعطيتُه، أو مُستجيراً لأجَرتُه، أو مظلوماً لنصرتُه. يا غلامُ قفْ بالبابِ وانظرْ، فإن طلبني هذا الأعرابيُّ فلا تمنعْه من الدخولِ عليَّ. فخرجَ الغلامُ ووقفَ بالباب، فوافَى الأعرابيُّ فقال له: ما تريدُ؟ قال: أميرَ المؤمنين. قال له: ادخلْ. فدخل وسلم على معاويةَ. فقال له معاويةُ: ممَّن الرجلُ؟ فقال: مِن بني تميمٍ. قال: فما الذي جاء بك في هذا الوقتِ المتجمِّرِ؟ قال: جئتُك مُشتكياً. قال: ممَّن؟ قال: من مروانَ بنِ الحكم. وأنشدَ الأعرابيُّ هذه الأبياتَ، يقولُ:

مُعاويَ ياذا الجودِ والحلمِ والفضلِ ... ويـاذا النَّدى والعلمِ والرُّشدِ والأَصلِ
أتيتُكَ لما ضاقَ في الأرضِ مَذْهبي ... فيا غوثُ، لا تَقطعْ رَجائي منَ العَدلِ
وجُدْلي بإنصافٍ منَ الجائرِ الذي ... بَلاني بشيء كانَ أَيسَرَه قَتلي

---

١ ـ الحكاية مذكورة في أخبار النساء: ٣ مع شيء من الاطالة والتفصيل واختلاف رواية الأشعار.

٢ ـ في الأصل: يخجل. وحجل: رفع رجله ومشى متريثاً على الأخرى.

سَبــانيَ سُعــدى وانْــبرَى لخُصــومتي وجــارَ ولم يعــدِلْ وغــاصَــبَــني أهْــلي

قال: فلما سمعَه معاويةُ قال: مَرحباً، مَهلاً يا أخا العرب، اذكرْ لي قصتَكَ واكشفْ لي عن أمركَ. قال: يا أميرَ المؤمنينَ، كانتْ لي زوجةٌ وهي ابنةُ عمي، وكنتُ لها مُحباً وبها كئيباً، وكنتُ بها قريرَ العين، طيبَ العيشِ. وكان لي قطعةٌ من الإبل، وكنتُ أستعينُ بها على استرحالي وقيامِ أَوَدي[1] وعِيالي، فأصابَتْني سنةٌ ذاتُ حطمةٍ[2] شديدةٍ أذهبتْ ما كان عندي، وبقيتُ لا أمتلكُ شيئاً. فلما ضاقَ بيَ الأمرُ وقلَّ ما بيدي وذهب مالي / وفسدَ حالي بقيتُ مُهاناً ثَقيلاً على وجهِ الأرضِ، ليس أحدٌ يقبلُ مني قَولاً ولا فِعلاً. وقد أبعدني مَن كان يريدُ قُربي، وازورَّ عني مَن كان يرغبُ في زِيارتي. ٨٣/ب

فلما علم أبوها ما بي من سوءِ الحالِ وذهابِ المال أخذَها مِني وجَحدني وطَردني وأغلظَ عليَّ في المقالِ فأتيتُ إلى عامِلك مروانُ بنِ الحكم مُستصرخاً به راجياً لنصرتهِ، فأحضرَ أباها[3]، وسألَه عن حالي، فقال له: ما أعرفُه قبلَ اليومِ، وليس له مَعي نسبٌ ولا لهُ عليَّ لَومٌ. فقلتُ: أصلحَ الله الأميرَ إنْ رأى أنه يُحضرُها ويسألُها عن قولِ أبيها فليفعلْ. فبعثَ إليها مروانَ وأحضرها بمجلسهِ لينظُرَ ما تقولُ. فلما وقفتْ بين يديهِ حاسرةً عن الوجهِ وقعتْ[4] معه مواقعَ الإعجاب، وأخذتْ قلبَه وطاشَ لبُّه، فصار لي خَصماً وعليَّ مُنكراً. فانتهرَني وأظهرَ لي الغضبَ، وأمرَبي إلى السِّجن، فبقيتُ كأنما خَررتُ من السماء إلى[5] مكانٍ سحيق. ثم قال لأبيها: هل لكَ أن تزوجَها مني على ألفِ دينارٍ وعشرةِ آلافِ درهمٍ، وأنا ضامنٌ لكَ خلاصَها من الأعرابي؟ فرغبَ أبوها في المالِ، وأجابَه. فلما كان من الغدِ بعث إليَّ وأنا في السجن ذليلاً حيران[6] لا أعرفُ ما أقولُ، وقال لي: يا أعرابيُّ طلِّقْ

١ ـ الأود: الكد والتعب.

٢ ـ الحطمة: السنة الشديدة، لأنها تحطم كل شيء.

٣ ـ في الأصل: أبوها.

٤ ـ في الأصل: فوفعت، وهي جواب لما.

٥ ـ في الأصل: من، ولعل «إلى» أصوب.

٦ ـ في الأصل: حيراناً.

سُعـدَى. قلت: لا أفعلُ أبـداً. وقلت: أيُقلعُ قلبُ إنسـانٍ ويعيشُ بلا قلبٍ؟ فسلَّطَ عليَّ جماعةً من غلمانهِ فأخذوا يُعذبونني بأنواعِ العذاب، فلا أجدُ بُداً ولا مَفراً من ذلك، ففعلتُ وطلَّقتُهـا. فمكثَ إلى أن انقضتْ عدتُهـا وتـزوَّجهـا ودخـلَ بها. وقـد أتيتُـك راجياً، وبكَ مُستجيـراً، وإليـك مُلتجئـاً/ فتردُّ عليَّ لبِّي، ويـرجعُ إليَّ حِبيٍّ. وأنشدَ الأعرابيُّ يقولُ وهو يبكي وينتحبُ: ٨٤/آ

في القـلبِ منيَّ نارُ والنـارُ فيـهـا اسْتِعـارُ
والجسـمُ منيٍّ سَقيـم فيـه الطبيـبُ يَحارُ
وفي فؤادي جَمْرٌ والجمـرُ فيـهِ شرارُ[1]
والعـينُ تَهطـلُ دَمْعـاً فدمُعـهـا مِدْرارُ
ولـيسَ إلا بِرَبـي ثمَّ الأميـرُ انتصـارُ

ثم اضطربَ واصطكَّت أسنانُـه وصُعق وخـرَّ مَغشيـاً عليـه. وجعـلَ يتلوَّى كالحيـةِ المقتولةِ. فلما أفاقَ وسمعَ معاويةُ كلامهُ وإنشادَه قال: لاحولَ ولاقوةَ إلا باللهِ العلي العظيم، تعدَّى مروانُ بنُ الحكم وظلم في حدودِ الله واجترأ على حُرم المسلمين، فمالَنا من ناصِرين. ثم قال: ياأعرابيُّ لقد أتيتُ بحديثٍ لم أسمعْ مثله في الإسلام. ثم دَعا معاويةُ أميرُ المؤمنين بدواةٍ وقـرطـاسٍ وكتب إلى مروانَ بنِ الحكم يقـول له: قد بلغَني أنك تعدَّيتَ على رعيَّتك وانتهكتَ حُرمـةً مِن حُرمةِ المسلمـين. وتعدَّيتَ في حدود الدين. فينبغي لمن يكونُ والياً أن يغضَّ بصرَهُ عن شَهواتهِ، ويزجُرَ نفسه عن لذاتهِ. وأنشدَ أميرُ المؤمنين يقول:

وُلِّيـتَ ويْحـكَ أمـراً لسـتَ تُدركُـهُ فاستـغـفـرِ الله من أمـرِ امـرىءٍ زاني
وقـد أتـاني الـفَتـى المسكـينُ مُنتحبـاً يشـكـو إليَّ بِبـثٍّ ثمَّ[2] أحـزانِ

---

١ ـ البيت والبيت الأخير غير مذكورين في أخبار النساء: ٥.
٢ ـ في الأصل: أحزاني وهي معطوفة على «بث».

أعـطِ الإلـهَ يَمـيـنـاً لا أكـفـِّرُهـا نعـمْ وأبـرأ من دِيـني وإيـماني/

إنْ أنـتَ خالـفْـتَـني فيـما كتـبـتُ به لأجـعـلنَّـكَ لحماً بينَ عقـبـاني ٨٤/ب

طَلِّقْ سُعـادَ[1] وجَـهِّـزْهـا مُعـجَّـلةً معَ الـكُميتِ ومـعْ نصـرِ بن ذُبْيـاني

ثم طوى الكتابَ وطبعه بخاتَمِهِ واستدعى الكميتَ ونصرَ بنَ ذُبيانَ. وكان يستنهضُهما في جميعِ الحوائجِ لأمانَتِهما، فأخذاهُ وسارا حتى قدما المدينةَ المشرَّفةَ. فدخلا على مروانَ بنِ الحكم، وسلَّما إليـه الكتـابَ وأعلماهُ بصـورةِ الأمـر. فجعلَ مروانُ يقرؤه ويبكي، وقامَ إلى سُعدى وأخبرهـا الخبرَ وبما في كتابِ معاويةَ ولم تسعْه مخالفةُ أميرِ المؤمنين. فطلَّقَها بحضرةِ الكُميتِ ونصرِ بنِ ذُبيانَ. وجهَّـزَهـا مع الـرسولينِ المذكورين، وكتب مروانُ كتاباً يذكرُ فيه كلاماً يعتذرُ به عندَه، وهي هذه الأبيات:

لاتَـعـجـلنَّ أمـيرَ المؤمـنـينَ فقـدْ أوفي بنَـذركَ في رِقٍّ وإحـسـانِ

أعـذُرْ فإنَّـك لو أبـصـرتَهـا لجَرتْ منـكَ الأمـاقـي على تمثـالِ أعـيـاني

ومـاأتـيـتُ حَرامـاً حينَ أعـجـبـني فكـيـفَ أدعـى بذاكَ الخـائـنِ الـزَّاني؟

فسـوفَ يأتـيـكَ شمسٌ ليسَ يعـدِلُهـا بينَ الخـليـقـةِ مِن إنسٍ ولا جانِ

ثم ختمَ الكتابَ ودفعَه إلى الرسولينِ، وسلَّم إليهما الجاريةَ. فسارا حتى دَخلا على معـاويـةَ، وسلما إليـه الكتـابَ من عندِ مروانَ. فقرأه وقال: لقد أحسنَ في الطاعَة، وأطنبَ في ذكر محاسنِ الجاريةِ، ثم أمر بإحضارها إليه. فلما رآها رأى منها صورةً لم يرَ مثلَها في الحسنِ والجمالِ والبهـاء والكمالِ والقدِّ والاعتـدال. فاستنطقَهـا فوجـدَهـا أفصحَ كلاماً وأعذبَ مَنطقـاً. فقـال معـاويـةُ: عليَّ بالأعرابيِّ. فدخلَ عليه وهوفي غايةٍ من سوء / الحالِ. فقال معـاويـةُ: ياأعـرابيُّ هل لك عنهـا من سَلوةٍ وأعـوضُك عنها ثلاثاً من جواريَّ أبكاراً مع كلِّ جاريةٍ ألفُ دينارٍ، وأقسمُ لكَ من بيتِ مالِ المسلمين في كلِّ سنةٍ مايكفيك ويُعينُك على صُحبتهنَّ. ٨٥/آ

---

١ ـ يجوز اطلاق «سعاد» على «سعدى».

قال: فلما سمعَ الأعرابيُّ كلامَ معاويةَ شهقَ شهقةً، وصرخَ صرخةً فظنَّ معاويةُ أنه قد ماتَ. فقال له معاويةُ: مابالُكَ؟ قال: بأشرِّ مالٍ وأسوأ حالٍ، استجرتُ بعدْلِكَ من جَورِ مَروانَ، فبمن أستجيرُ من جَورِكَ؟ ثم أنشأ الأعرابيُّ يقول:

لاتَجعلنّي فَداكَ اللهُ مِن مَلكٍ	كالمستجيرِ من الرَّمضاءِ بالنارِ
أرْدُدْ سعادَ على حيرانَ مُكتئبٍ[1]	يُمسي ويُصبحُ في همٍّ وتَذْكارِ
أطلقْ وِثاقي ولاتَبخلْ عليَّ بها	فإنْ فعلتُ فإني غيرُ كَفَّارِ

ثم قال: واللهِ ياأميرَ المؤمنينَ، لو أعطيتَني ماحَوتْه الخلافةُ دونَ سُعدى ماقَبلتُه.

وجعلَ يقولُ:

أبَى القلبُ إلا حبَّ سُعدى وبُغِّضتْ[2]	إليَّ نساءٌ مالهنَّ ذُنوبُ

فقال معاويةُ: ياأعرابيُّ إنكَ مُقرٌّ بأنك طلَّقتَها ومروانُ تزوجَ بها، وأقرَّ مروانُ أنَّه طلَّقَها. ونحنُ نخيرُها، فإنِ اختارتْ سواكَ زوَّجناها بهِ، وإن اختارتْك رجَعْنا بها إليكَ. ثم قال لها: ما تَقولين ياسُعدى؟ أَحَبُّ إليكِ أميرُ المؤمنينَ في عفَّتهِ وشرفهِ وقصورهِ وماتصيرينَ إليهِ منهُ وعندَهُ، أومروانُ بنُ الحكمِ في عُسفهِ وجَورهِ، أوهذا الأعرابيُّ في فقرهِ وجُوعهِ وسوءِ حالهِ وماتَعهدين منه عندَه؟ فأنشدتْ تقول: /

هذا وإنْ كان في جُوعي وإقْتاري	أعزُّ عندي مِن قومي ومِن جارِي
وصاحبِ[3] التاجِ أومروانَ عاملهِ	وكلِّ ذي درهمٍ عندي وديناري

٨٥/ب

١ - في الأصل: مكتئباً.

٢ - في الأصل: ويغضب، وهو اضطراب.

٣ - في الأصل: ومن صاحب، فأسقطناها للوزن.

ثم قالت: ياأميرَ المؤمنين ماأنا بخاذلة[1] لحادثةِ الزمانِ ولا لغدراتِ الأيام، وإنَّ لي معَه صحبةٌ قديمةٌ لاتُنسى ومحبةٌ لاتَبلى. وأنا أحقُّ بمن صَبر معَه في الضراء كما تَنعَّمتُ معه في السراء. قال: فتعجبَ معاويةُ مِن عقلها ومُرادَدَتها، وأمَر لها بعشرةِ آلافِ درهمٍ من الفضةِ[2] وردَّها إلى الأعرابيِّ بعقدٍ جديدٍ صحيح.

فانظر رحمك الله إلى ماوقعَ في هذه القصةِ العجيبةِ لمثلِ معاويةَ بنِ أبي سُفيانَ، وكيف افتُتنَ بحبِّ المرأةِ حتى أرادَ أن يقتلعَها من زوجها حين خيرَّها بينه وبينَ مروانَ بنِ الحكم عاملِهِ وبينَ زوجها مع فقرِه وفاقتِه، وأرغَبها بالمال الكثير، وأرغبَ زوجَها بعشرةِ آلافِ درهمٍ، وكيف حسَّن العبارةَ لامرأةِ الأعرابيِّ حتى تَرغبَ عن زوجها لعلمهِ أن النفسَ تميلُ إلى المال. ولولا أن الله تعالى ثبَّتَ تلك المرأةَ وهَداها إلى الصوابِ حتى اختارتْ زوجها. وعلم معاويةُ من نفسهِ أنه إنْ غَصبها من زوجها وأكرهَه على أخذِها منه شاعَ ذلك عنه بينَ الناس. فلهذا امتنعَ عنها وتركَها لزوجها.

ولابدَّ له مع هذا من الوقوفِ بينَ يديِ الله تعالى ويسألُه عما أضمره في نفسهِ ومانَواه لذلك الأعرابيِّ، وإن كان كلامُه في الظاهر جميلاً[3] فإن الله تعالى مطَّلعٌ على الضَّمائر والسَّرائر. قال تعالى: «ليسألَ الصادقينَ عن صدقِهم»[4] فلهذا جلَّ جلالُه يسألُ الصادقينَ عن صدقِهم، / فكيف حالُ غيرِ الصادقين؟. ٨٦/آ

وأما ماكان من مروانَ بن الحكم عاملِ معاويةَ فيكفيهِ ماوردَ في حقِّه وحقِّ أبيه عن النبيِّ ﷺ. وقد نفى النبيُّ ﷺ أباهُ الحكَمَ من المدينة إلى الطائف، ومارَدَّه إلى المدينةِ إلا عثمانُ بنُ عفانَ لما صارتِ الخلافةُ إليه بعدَ خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه. ولولا أن السكوتَ عن مثلِ هذا أحسنُ لأبدَينا بعضَ ماوقعَ من الحكم أبي[5] مروانَ في حقِّ النبيِّ

---

١ في الأصل: بخاذلة.
٢ . قال ابن قيم الجوزية: «. . . وألحقها في صدقات بيوت المسلمين».
٣ في الأصل: جميل.
٤ الآية: ٨/ الأحزاب: ٢٣.
٥ - في الأصل: أبو.

ﷺ، ولـولا أن عثـمانَ شفـعَ فيـه عنـدَ النبيِّ ﷺ واستأذَنـه أن يردَّه. فقـال له: «إنْ صارتِ الخلافةُ إليكَ تردُّه إلى المدينة»[1].

فلما صارتِ الخلافةُ معَ عثمانَ ردَّه، ومع ذلك صارَ بعضُ الصحابة يقول: «كيفَ تردُّ طريـدَ رسـولِ الله ﷺ؟». فكـيفَ حالُ ابنـهِ مروانَ، وهـو كانَ من المتعصِّبـين على عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه رابعِ الخلفاء؟ ولولا أن مروانَ خافَ من معاويةَ لما أرسلَ إليه في بعثِ سُعادَ. ولولا أن معاويةَ هدَّده وأوعدَه العقوبةَ ماكان طلَّقَ سعادَ. والإمساكُ عن هذا أولى، ومن أرادَ زيـادةً على هذا فعليـهِ بكتـابِ «الاستيعـابِ» لابنِ عبدِ البرِّ رحمه الله. قال: وإنما حمل مروانَ بنَ الحكم ومعـاويـةَ على محبـةِ امـرأةِ الأعرابي، وسبَّبَ المحبةَ النظرُ إليها وسماعُ كلامِها. فكان السمعُ والبصرُ من أسبابِ المحبَّة.

---

1 الحكم عم عثمان بن عفان. كان طريد النبي ﷺ نفاه من المدينة إلى الطائف وخرج معه ابنه مروان. وانظر في أسد الغابة: ٢/ ٣٤ سبب نفيه.

آراء في العشق

وذكر صاحبُ «الرُّشد اللبيب»[1] أن المحبةَ على قسمين: محبةٍ عَرَضيةٍ، فهيَ لايجبُ الاشتراكُ فيها، كما تكونُ بين الرجلِ وامرأتهِ / لأن لكلٍّ منهما غرضاً[2] عند صاحبهِ. ٨٦/ب
والقسمِ الثاني محبةٍ روحانيةٍ، ففيها المشاكلةُ والاتفاقُ بينَ الزَّوجين، فهذا لايكونُ إلا مِن الجانبين.

قال بعضُ الحكماء: إنَّ الله تعالى جعلَ القلبَ أميرَ الجسد وملكَ الأعضاء. فجميعُ الجوارحِ تنقادُ إليهِ، وكلُّ الحواسِ تُطيعُه. وهو مدبِّرُها ووزيرُه العقلُ، وعاضدُه ورائدُه العينانِ، وطليعتهُ الأذنان. قال: وقيلَ لأفلاطونَ الحكيمِ: «أيُّهما أشدُّ ضرراً: السمعُ أو البصرُ؟». فقال: «هُما للقلبِ كالجناحينِ للطائرِ، فلا ينهضُ إلا بهما، ولايَستعلي إلا بِقواهما. وربما قُصَّ أحدهُما فيتحاملُ بالآخَر[3] على تعبٍ ومشَقَّةٍ». قيلَ له: «فما بالُ الأعمى يحبُّ وما سمعَ؟». فقال: «إنَّ الطائرَ ينهضُ بأحدِ جناحيهِ، فإذا اجتمعا كملَ ذهابُه، وكان طيرانُه أقوى». وقال: «الحبُّ أوَّلُه السماعُ، ثم النظرُ. كما أنَّ أولَ الحريقِ الدخانُ ثم الشَّرارُ».

قال ابنُ طاهر: قلت لأبي تمامٍ: أخذتَ هذا المعنى عن أحدٍ؟ قال: نعم أخذتُه من قولِ الشاعر:

---

١ ـ صواب العنوان «رشد إلى معاشرة الحبيب» للشيخ ابن قليته أبي العباس أحمد بن محمد اليمني الكاتب المتوفى سنة ٢٣١

٢ ـ في الأصل: غرض.

٣ ـ في الأصل: بالأخرى.

ياقــومُ أُذْني لبــعضِ الحــيِّ عاشقــةٌ[1] والأذنُ تَعشـقُ قبـلَ الـعـينِ أحيـانـا
قالــوا: بِمـن لاتــرى تهذي فقـلتُ لهم: [الأذُنِ][2] كالعــينِ تُوفي القلبَ ماكــانـا

وقال غيره:

وإني امــرؤٌ أحــبــبْــتُــكــم لمكــارمٍ سمــعــتُ، والأذنُ كالــعــينِ تَعشـقُ[3]

وحُكي أن رجـلاً عشقَ أثـرَ كفٍّ رآهُ في حائـطٍ، وتـواجَـدَ منـه. فلما أيِسَ أهلُه من صلاحِهِ تركوهُ وماتَ. ومنه من يحبُّ شكلاً يراهُ في النوم لايعرفُه فيَهيم فيه، كما قيلَ: /

ياليـتَ شِعـريَ من كانـتْ وكـيفَ سرَتْ أطـلعــةَ الشمسِ هِي كانتْ أمِ القمــرِ؟ ٨٧/آ
أظــلمنــا الـعـقــلُ إذ. . . .[4] مدبــرةً أو صورةُ الــروحِ أبــدَتْهـا إلى الفكَــرِ؟

ومنهم من يعشقُ باللمسِ وهو رأس الشهوة. ومنهم من يعشق بالشم، كما قيل في ذلك:

والعينُ تعشقُ ماتهوى وتُبصرُهُ

ومنهم مَن يعشقُ جنِّيةً رآها في النوم ووصَفتْ نفسَها لهُ، وجاءتْه غيرَ مرةٍ على زعمهِ. كما حكى أبو الفرج الأمويُّ أن جعفرَ بنَ [أبي][5] جعفرٍ المنصورِ كان يعشقُ امرأةً من الحيِّ حتى كثـر ولهُـهُ ووجْـدُه. فصارَ يصرخُ في اليوم مراتٍ حتى ماتَ مِن ذلك. فحزنَ عليه أبوهُ [أبو] جعفرٍ حزناً شديداً. وكان جعفرُ خَليعاً نَهى المنصورُ مُطيعَ بنَ إياسٍ[6] في صُحبتهِ ابنَ

---

١ في الأصل: لنقض الحجر عاشقة، وهو وهم. والشاعر هو بشار.
٢ ـ ساقط من الأصل: والصدر مروي خطأً: قالوا: لمن لايرى هذا فقلت لهم.
٣ ـ العجز مضطرب الوزن.
٤ ـ فراغ كلمة في الأصل.
٥ . إضافة المحقق.
٦ ـ مطيع بن إياس الكناني، من شعراء مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. وهو ماجن ظريف متهم بالزندقة وكان منقطعاً لأبي جعفر إلى أن مات سنة ١٦٦.

جعفر. قال: وأيُّ مصلحةٍ فيه وأيُّ غايةٍ لم يبلغْها منَ الفساد؟ قال: ويلكَ، وأيُّ شيء هذا؟ قال: يزعُم أنه يعشقُ امرأةً من الجنِّ، وهو مجتهدٌ في خُطبتها. ورابَه أصحابُ الغرامِ عليها وهُم يَعدونَه ويمنعونَه. فوالله مافيهِ فضلٌ بغيرِ ذلك من جدٍّ ولاهزلٍ ولا كفرٍ ولا إيمان.

حكاية تتعلق بمن عشق على السماع من المغفلين

وهـو ماحكـاهُ الحـافظُ، قال: عبرتُ يوماً على معلمِ كُتَّابٍ، فوجدتُه في هيئةٍ حسنةٍ وقُماشٍ مَليح. فقام إليَّ وأجلسني معه، ففاتحتُه في علمِ القراءاتِ فإذا هو فيها ماهرٌ. ثم في أشعارِ العربِ واللغةِ فهو كاملٌ في جميعِ مايُرادُ منه. فقلتُ: والله قويَ عزمُكَ على مُصاحبةِ هذا الـرجـلِ. فكنتُ كلَّ يومٍ أتـردَّدُ إليه وأزورُه. قال: فأتيتُ في بعضِ الأيام إلى زيارتهِ فوجدتُ الكتابَ مُغلقاً. فسألتُ عنه / من جيرانهِ فقالوا: ماتَ عنده ميتٌ. فقلتُ: أذهبُ إليـه وأعـزِّيـهِ. فجئتُ إلى بابـهِ فطـرقتُـه فخرجتْ إليَّ جاريةٌ منهُ فقالت: ماتريدُ يامولايَ؟ قلت: أريدُ مولاكِ. قالت: إنَّ مولايَ جالسٌ وحدَه في العزاء، مايُعطي لأحدٍ الطريقَ إليه. فقلتُ لها: قولي: صديقُـك فلانٌ يطلبُـك. فدخلتْ وخرجتْ وقالت لي: بسم الله ادخلْ. فعبرت إليه، فإذا هو جالسٌ وحدَه. فقلتُ: أعظمَ الله أجركَ. لقد كان لكُم في رسولِ الله أسوةٌ حسنةٌ، وهذا طريقٌ لابدَّ منهُ لكلِّ أحدٍ فعليكَ بالصبر. ثم قلتُ له: هذا الذي ماكانَ هو ولدُكَ؟ قال: لا. فقلتُ: والدُك؟ قال: لا. فقلتُ: أخوكَ؟ قال: لا. قلتُ: فمن هوَ؟ قال: صبيَّتي. فقلتُ في نفسي: هذا أولُ المنـاحسِ منـه. فقلتُ: ياسبحـانَ الله، النسـاء كثيرٌ، وتجدُ غيرَها، وتقعُ عينكُ على أحسنَ منها! فقال: وكأنِّي بك قد ظننتَ أني قد رأيتُها! لا والله. فقلت في نفسي: وهـذهِ والله مَنحسـةٌ ثانيـة. قلت له: وكيفَ عشقتَ مَن لارأيتَه؟ فقال: اعلمْ أني كنتُ في الطارمة[1]، وإذا برجلٍ عابرٍ يترنَّم وهو في وَجدهِ يقولُ:[2]

٨٧/ب

يا أمَّ عمـرو جزاكِ الله مَكـرُمـةً[3] رُدِّي عليَّ فؤادي بعـدَ ما كانـا

١ ـ الطارمة: بيت من خشب كالقبة، دخيل أعجمي معرب.

٢ ـ البيت لجرير من قصيدة طويلة في هجاء الأخطل، وأم عمرو زوجته ص: ٥٩٣.

٣ ـ في الديوان: مغفرة. وختامه في الديوان: كالذي كانا.

فقلتُ في نفسي: لولا أنَّ أمَّ عمرو ومافي الدنيا مثلُها ماقيل فيها هذا الشعرُ، التي قلبتْ فؤادَ الرجلِ وأخذتْه، ويتمنَّى عليها ردَّه. فعشقْتُها وملكتْ قلبي. فلما كان بعدَ يومينِ عبرَ ذلك الرجلُ وهو يقولُ:

إذا ذهبَ الحمارُ بأمِّ عمرو فلا رَجعتْ ولارجَعَ الحمارُ

فقلت: إنها ماتَتْ! فحزنتُ عليها وقعدتُ في عزائها ثلاثة أيام. /

قال الحافظُ: فرجعتُ عن عزيمتي وقوَّيتُ همَّتي على تركِ صُحبتِهِ بحكايةِ أم عمرو. ٨٨/آ

قال الأصمعي: سألتُ امرأةً عن العشقِ فقالت:[1] جلَّ اللهُ مِن أن يُرى، وخفيَ عن أبصارِ الورَى، فهو في الصدورِ كائنٌ، ككونِ النارِ في الحجرِ إن قدحتَه أورَى وإنْ تركتَه توارَى.

ومن علامات العشق

أن يستدعي العاشقُ اسمَ محبوبِه، ويستلذَّ بالكلامِ في أخبارِه، ويحبَّ أهلَه وقرائبَهُ وغلمانَه ومساكنَه، ويستأنسَ بمن يلوذُ بِه. كما قيلَ في ذلك:

فيا ساكني أكنافِ دجلةَ كلُّكمْ إلى القلبِ مِن أجلِ الحبيبِ حَبيبُ

ومن علاماتِه: كثرةُ الغيرةِ عليه، والإنصاتُ لحديثِهِ إذا حدَّثَ، واستقرابُ كلِّ مايأتي به، ولو أنَّه عينُ المحالِ وقالِهِ، وتصديقُه فيما يقولُ وإن كذَبَ، وموافقتُه وإنْ ظَلم، والشهادةُ له وإن جارَ، واتِّباعُه كيفَ سلك، والإسراعُ نحوَ المكانِ الذي هو فيهِ، والتعمُّدُ للقعودِ بقربِهِ والدنوُّ منه، وتركُ الأشغالِ الشاغلةِ عنه والزهدُ فيها، والرغبةُ عنها.

---

١ ـ في الأصل: فقلت.

ومن أسباب العشق المعتمدة

لمسُ اليدِ عند المحادثةِ، ولما أمكنَ من الأعضاء الظاهرةِ، وشُربُ ماأبقى المحبوبُ في الإنـاء. ومنهـا تقبيـلُ نعلهِ في غيبتهِ. قال المعري رحمه الله تعالى، وهوصاحبُ رشدِ اللبيب الـذي تقـدَّمَ ذكـرهُ: وقـد رأيـتُ من فعـلِ هذا فلمتُـه على فعـلهِ فقـال: اسكتْ يافلانُ، آهٍ لو علمتَ مافي هذا منَ اللذةِ لَما لُمتَني.

ومنها: تقبيلُ جدارِ البيت. كما قيلَ في ذلك:

أمـرُّ على الـديـارِ ديـارِ ليـلى   أقـبِّـلُ ذا الجـدارَ وذا الجـدارا/

ومـاحـبُّ الـديـارِ شَغـفْـنَ قَلبـي   ولـكـنْ حبُّ مَن سكـنَ الـدِّيـارا ٨٨/ب

ومن علامات العاشق

أنه إذا سُئل عن أمرٍ أجابه بخلافهِ، وكثرةُ التثاؤبِ والتمطِّي والكسلِ والتأوُّهِ إذا نظرَ إلى محبـوبـهِ، ونكتُه إلى الأرضِ بإبهامِ رجلهِ. وهذا كثيراً [1] مايقعُ للنساء، وعضُّ شفتهِ السُّفلى ومصُّهـا. ومنهـا: الانقيـادُ للمحبـوبِ في جميـعِ مايختـارُه من خيرٍ وشـرٍّ. وإنْ كان المحبوبُ مَشغوفاً بالعلم اشتغلَ المحبُّ في طلبهِ أشدَّ من اجتهادهِ، وإن كان مَشغوفاً بحرفةٍ أو صناعةٍ اجتهدَ في تعلُّمها إن أمكنَه ذلك.

وفي أخبار العشاق

أن بعضَهم كان إذا رأى محبوبَه أخذتْه سَكتةٌ كأنه ألجمَ بلجامٍ عن الكلام. وإن كان

---

١ ـ في الأصل: كثير.

هيَّأ كلاماً يقولُه لمحبوبهِ نسيَهُ ولم يذكُرْ منه كلمةً واحدة.

وقـال الأصمعي: كنتُ على بعضِ ميـاهِ العـربِ فسمعتُ النـاسَ يقـولـون: قد جاءتْ، قد جاءتْ. فتحركَ الناسُ فقاموا فقمتُ معهم، فإذا بجاريةٍ قد وَردتِ الماء مارأيتُ مثلَها في الحُسنِ قطُّ وجمالِها وتمامِ خِلقتِها. فلما مرَّتْ كثُر شَوقُ الناسِ إليها، أرسلتْ بُرقُعَها على وجهِها فكأنَّه غَمامةٌ غطَّتْ شمساً. فقلتُ لها: تمنعيننا[1] النظرَ إلى وجهك هذا الحسنِ؟ فقالت:

وكنتَ إذا أرسلتَ طرفَكَ رائداً ... لقلبِكَ يَوماً أتعبتْكَ المناظِرُ
رأيتَ الذي لا كلُّهُ أنتَ قادرٌ ... عليهِ، ولاعَن بعضِهِ أنتَ صابِرُ[2]

قال صاحبُ «رشدِ اللبيب»: وفي هذا دليلٌ على أن العينَ هيَ التي تجلبُ الحبَّ. وأنشدوا في ذلك: /

أحبُّك إذْ قالوا: بعينكَ زُرقةٌ ... كذلكَ عشَّاقُ الطُّيورِ[3] عُيونُها ٨٩/آ

ومنهم مَن إذا رأى المليحَ وأعجبَه سَقط من قامتهِ ولم يعرفْ نعلَه من عِمامتهِ، كما قيلَ:

وماهوَ إلا أنْ رآها فُجاءةً ... فَتَصطكُّ رجلاهُ ويسقطُ للجَنْبِ

قال: وقال رجلٌ لعمرَ بنِ الخطابِ رضيَ الله عنه: ياأميرَ المؤمنينَ، إني رأيتُ امرأةً فعشقْتُها. قال: ذلكَ مالا تَملكُ، واتَّقِ الله.

---

١ ـ في الأصل: تمنعينا.
٢ ـ روى ابن قتيبة (عيون الأخبار: ٤/ ٢٢) بشكل آخر.
٣ ـ في الأصل: زرق عيونها، وأسقطناها للوزن.

وقال الشيخ شمسُ الدين بنُ القيِّم الجوزيُّ[1]: قد فسَّر كثيرٌ من السلفِ قولَه تعالى: «ربَّنا ولا تُحمِّلنا مالا طاقَةَ لنا بهِ»[2] أنه العشقُ. ولم يُرِدْ به التخصيصَ وإنما أرادَ به التمثيلَ.

وقال ابنُ طاووس[3] في قوله تعالى: «وخُلق الإنسانُ ضعيفاً»[4] فقال: [إذا] نظرَ إلى النساء لايُصبرِّه ذَكَرُهُ عنهنَّ.

وعن سفيانَ بنِ سعيدٍ في تفسيره: قالوا: رأينا جماعةً من العشاق يطوفون على مَن يدعو لهم أن يُعافِيَهم الله من العشقِ، ولو كانَ باختيارِهم لأزالوهُ عن نفوسِهم.

وقال الفضلُ بنُ العباس رضي الله عنهما: لو رَزَقني الله دعوةً مُجابةً لدعوتُ الله أن يغفرَ للعشاقِ لأن حركاتِهم اضطراريةٌ لا اخْتياريَّةٌ. وكان بعضُهم يقول: لو جَعلَ الله تعالى حسابَ العشاقِ بيدي لما حاسَبْتُهم، لأن عشْقَهم اضطراريٌّ لا اختياريٌّ.

ورؤي أبو السائب المخزوميُّ، وكان من أهل العلمِ والدين بمكانٍ، وكان مُتعلقاً بأستارِ الكعبة وهو يقولُ: «اللهمَّ ارحمِ العاشقينَ، وقوِّ قلوبَهم». فقيل لهُ في ذلك. فقال: «والله إنَّ الدعاء لهم أفضلُ من عُمرةٍ من الجِعرانة[5]» /.

٨٩/ ب قلت: وهذا كلُّه فيمن يعشقُ ويعفُّ ويكتُمُ، لافيمَن يعشقُ ويقعُ في الحرام فافْهَم. وقد تقدَّم في أثناء هذا الكتابِ ماروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن عشقَ وكتمَ وعفَّ فماتَ فهو شهيدٌ».

قال صاحبُ «رشد اللبيب»: ومن الناسِ مَن يَرى الصورةَ الحسنَةَ فيموتُ، كما حُكي عن يوسفَ الصدِّيقِ عليه السلام أنه لما كان خرجَ على النساء ورأيْنه قطَّعْنَ أيديَهُن.

---

١ ـ يعني: ابن قيم الجوزية.

٢ ـ الآية: ٢٨٦ / البقرة: ٢.

٣ ـ هو علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني، إمامي له مؤلفات. توفي سنة ٦٦٤.

٤ ـ الآية: ٢٨ / النساء: ٤.

٥ ـ وهناك من يسكن العين ويخفف الراء، وهو مذهب الشافعي. والجعرانة: ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي ﷺ لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين، وأحرم منها وله فيها مسجد.

وقد كان مصعبُ بنُ الزبير[1] إذا رأته امرأةٌ حاضَتْ لحسنهِ. وقال فيه القائلُ:[2]

إنَّــما مُصــعــبٌ شِهــابٌ مِنَ الــلـــهِ   تَجلَّى بنــورهِ الظَّــلماء

1 ـ أحد الأبطال في الإسلام، كان عوناً لأخيه عبد الله على بني أمية، لكنه قتل في إحدى المعارك ضد عبد الملك سنة ٧١.

2 ـ البيت لابن قيس الرقيات من قطعة، مذكورة في عيون الأخبار: ١٠٣/١ وحماسة الظرفاء: ١٦/٢.

فصل في الحسن

قال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: «إذا تمَّ بياضُ المرأةِ في حُسن سوادِ شعرِها فقد تمَّ حسنُها». وقيل: «الملاحَةُ في العينينِ، والبلاغةُ في الفمِ، والجمالُ في الأنفِ، والظرفةُ في اللسان». قال الحسنُ: إذا كانَ اللصُّ ظريفاً جميلاً لايُقطع إذا دَفع عن نفسهِ بلطافةِ لسانهِ وحلاوةِ منطقهِ وأتى بما يمنعُ عنه القطعَ بقانونِ الشرع.

ومما استُحسن من المرأةِ طولُ أربعة: أطرافِها، وقامتِها، وشعرِها، وعينَيها. وقصرُ أربعةٍ: يدَيها، ورجليها، وأسنانِها ولسانِها. والمرادُ من ذلك القصرُ المعنويُّ. ولا تُبتذلُ بها في بيتِ زوجها، ولا تَخرجُ من بيتها، ولاتستطيلُ بلسانِها ولاتطمحُ.

وبياضُ أربعة: لونِها، وفرجِها، وفمِها، وبياضِ عينيها.

وحمرة أربعة: لسانِها، وخدِّها، وشفتِها، وتشرُّبِ بياضِها بحمرةٍ.

ودقةُ أربعة: أنفِها، وبنانِها أي أصابعها، وخصرِها، وحاجبِها.

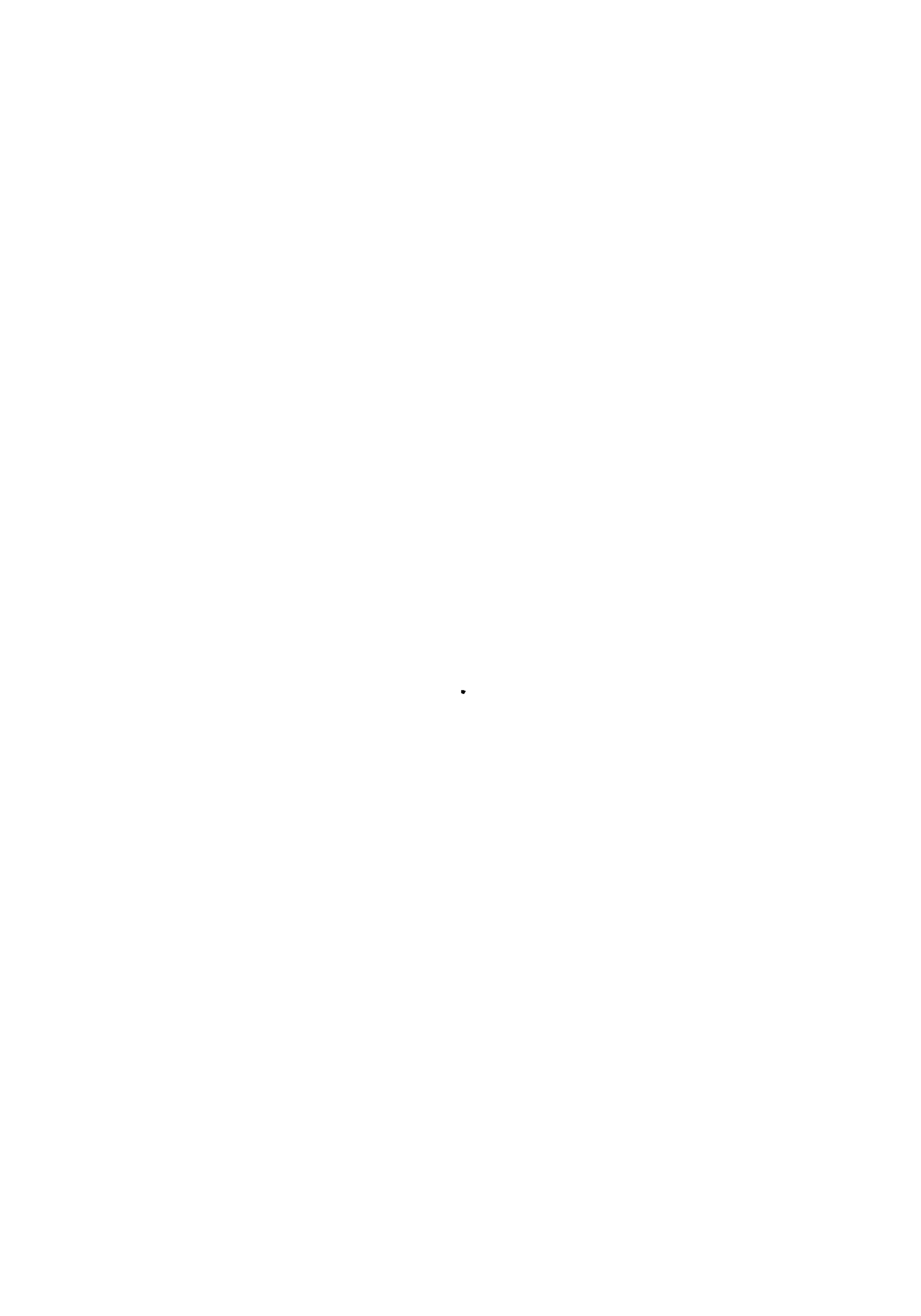
وغلظُ أربعة: ساقِها، ومِعصمِها، / وعَجُزِها، وماهناك. ٩٠/آ

وسعةُ أربعة: جَنبَيْها، وعينَيْها، وصدرِها، وبين كتفَيْها.

وضيقُ أربعة: فمِها، ومَنخِرِها، ومَنفذِ أرنبتِها، وماهناك.

وقيل: وُجدتْ جاريةٌ في زمنِ بني إسرائيلَ بهذه الصفة المذكورة جميعها.

وحُكي: أن بعضَ ملوكِ الصين أهدى إلى كسرى جاريةً طولُها سبعةُ أذرع، تضربُ أهدابُ عينيها خدَّيها، كأنَّ بين أجفانِ عينَيها لمعانَ البرق، مقرونةَ الحاجبين، لها ضفائرُ تجرُّها إذا مشتْ. وفي الحديث: «لايعذِّبُ الله حسانَ الوجوه، سودَ الحَدَق». وهذه الأشياء منقولةٌ من «رشد اللبيب» وهو كتابٌ عظيمٌ أخذتُ منه مايحتاجُ إليه ويُستغنى بهِ عن الإطنابِ في الكلام.



قصة برصيصاء العابد

استرجاع. ومن قبيل ما تقدمَ ما وقعَ لِبَرْصيصاء العابد[1]. وكان قد عبدَ الله مئةٍ وعشرين سنةً، لم يعصِ الله فيها طرْفَةَ عينٍ. وكان له ستونَ ألفاً من التلامذةِ، يمشون في الهَوى على بركتهِ. فصارَ بعد ذلك كافراً، وماتَ على غيرِ الإسلام. وكانتْ ملائكةُ السماء تتعجَّبُ من كثرةِ عبادتهِ. فقال لهم الله: «ممَّ تتعجبون؟ إني أعلمُ ما لا تعلمونَ، في علمي أنه كافرٌ، ويدخل النارَ أبداً لا بدَّ».

فسمعَ إبليسُ ذلك، وعلم أن هلاكَه ودخولَه النارَ على يديهِ. فجاء إبليسُ إلى صومعةِ برصيصاء، وقال له: «يا بَرصيصاء». فقال: «مَن أنتَ؟ وما تريدُ؟». قال: «أنا عابدٌ أكونُ لك عَوناً على عبادتك لله تعالى». فقال له بَرصيصاء: «مَن أراد عبادةَ الله تعالى يكفيهِ صاحباً». فقام إبليسُ لعنه الله تعالى يعبدُ الله ليلاً ونهاراً، لم ينمْ ولم يأكلْ ولم يشربْ. فقال له برصيصاء/ ٩٠/ب: «إني أعبدُ الله كعبادتك، فإني أراكَ لا تنامُ ولا تأكلُ ولا تشربُ، وأنا أُفطِرُ وأنامُ وآكلُ وأشربُ». فقال له إبليسُ اللعين: «أذنبتُ ذنباً، فمتى تذكَّرتُه يُنغِّصُ عَيشي، ويُنغصُ عليَّ الأكلُ والشربُ والنومُ». فقال له برصيصاء: «فما حِيلتي حتى أصيرَ مثلَكَ؟». فقال له: «اذهبْ فاعصِ الله ثم تُبْ إليه، فإنَّه غفورٌ رحيم، حتى تجدَ حلاوةَ الطاعة». قال: «كيفَ أعصيهِ بعدما أطعتُه كذا كذا سنةً؟». فقال إبليسُ: «إذا أذنبتَ ذنباً

---

١ - تروي كتب التفاسير عن ابن أبي الدنيا وابن مردويه والبيهقي.. حديثاً عن النبي ﷺ قال: «كان راهب في بني إسرائيل، فأخذ الشيطان جارية فخنقها فألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب. فأتي بها الراهب فأبى أن يقبلها، فلم يزالوا به حتى قبلها فكانت عنده». ثم حين حملت وسوس له الشيطان أن يقتلها ويقول لأهلها: ماتت، فألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها... فأخذوه. فالرواية في التفاسير تخالف قليلاً مسيرة القصة هنا. وقد رويت بعدة أشكال. انظر: الميزان: ١٩/ ٢١٥.

تحتـاجُ إلى معـذرةٍ». قال: «أيَّ ذنبٍ تشيرُ به عليَّ أفعلُه؟». قال: «الـزِّنى». قال: «لا أفعلُه». قال: «فـاشـربْ المنكَـرَ واقتلْ مؤمناً». قال: «لا». قال: «اقتلْ مؤمناً بغيرِ حقٍّ». قال: «فالشربُ أهونُ وهو حلُّ الله». قال: «فأينَ أُوجدُه؟». قال: «اذهبْ إلى قريةِ كذا».

فذهبَ برصيصاء، فوجدَ امرأةً جميلةً تبيع خمراً، فشربَها وزَنى بها، فدخلَ زوجُها فرآهُ عليهـا فضـربَـه، فمسكَه برصيصاء فقتلَه. فجاء إبليسُ لعنَه الله في صورةِ إنسانٍ وسعى به إلى السلطـانِ، فأخـذَه السلطـانُ فجلدَه حدَّ الخمـرِ ثمانـينَ جلدةً، وللزِّنى مئةَ جلدةٍ، وأمرَ بصَلبهِ لأجلِ الدَّمِ.

فلما صُلب جاء إبليسُ في تلك الصورةِ فقال لهُ: «ترى حالَكَ؟». فقال: «مَن أطاعَ قرينَ السوء فجزاؤُهُ هكذا». فقال إبليسُ: «كنتُ في بلاء منكَ منذُ مئةٍ وعشرين سنةً. فلو أردتُّ أن أُنـزلـك وأخلصَـك من ذلـك خلَّصتُـك». قال: «أريـدُ أن تخلِّصَني وأعطيـك ما تريدُ». قال: «اسجدْ لي سجدةً واحدةً»[1]. قال: «كيفَ أسجدُ لك وأنا على الخشَبةِ؟». قال: «أومِىء برأسِكَ واسجدْ بالإيماء». فسجدَ له فكفَرَ. / فقال: «إني بريء منكَ». قال: ۹۱/ب

فذلك قولُه تعالى: «كمثَلِ الشيطانِ إذْ قال للإنسانِ: اكفرْ فلما كفرَ قال: إني بريء منك، إني أخافُ الله ربَّ العالمين»[2].

فانظرْ رحمك الله إلى صنعِ إبليسَ ببرصيصاء، كيفَ استدرجَه من شيء إلى شيء، وأمـره أولاً بالـزِّنى لعلمـهِ أن الزِّنى تميلُ إليهِ النفسُ أكثرَ مِن غيرِهِ لاستلذاذِ جميعِ الجسدِ بهِ وليسَ في القتـلِ ذلـك. فلما أمـرهُ بالـزِّنى أبى، فأمـره بالقتـلِ فأبى عن القتـلِ لأن فيـهِ القصاصَ، وإنه نادرُ الوقوع، ولا يقعُ إلا بعد تعبٍ ومشقَّةٍ. فأمره بالشربِ لأنه إذا سَكرمنَ الخمـرِ غطَّى الخمـرُ على عقلِهِ، فإذا حصـلَ له ذلك هانَ عليه الزِّنى والقتلُ. والسكرانُ إذا زَنى يجبُ عليـه حدُّ الـزنى، وإذا قَتـلَ يجبُ عليه القِصاصُ. فوقعَ برصيصاء في ذلكَ كلِّه لما سَكـر من الخمـرِ. وقَدم برصيصاء على الزنى وعلى القتلِ لأن السكرَيُقوِّي نهمةَ السكران وشَهوتَه على الزنى، وأهونُ عليه من القتل. أجارَنا الله وإياكم من ذلك كلِّه.

---

١ ـ وفي رواية (الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ٢١٥) أن ابليس طلب منه أن يسجد سجدتين.

٢ ـ الآية: ١٦/ الحشر: ٥٩.

وفي كتابٍ يسمى «عقائقَ الحقايق» قال: ليسَ في المعاصي شيء أعظمُ من القتلِ والزِّنى أعظمَ من وجهٍ، وهو أنَّ القاتلَ يجبُ عليه القصاصُ بالسيف. والزاني المُحصنُ يجب عليه القصاصُ بالرَّجم، ويكون مدفوناً بالأرض إلى وسطِهِ. والقتلُ بالرَّجم أصعبُ.

قال: ثم السرقةُ ذنبٌ عظيم. والزنى أعظمُ من وجهٍ، وهو أن السارقَ تُقطعُ يدهُ، والزَّاني المحصَنُ تؤخذ روحُه، وأخذُ الروح أعظمُ. وشاربُ الخمرِ يُجلدُ، والزاني يُرجَمُ. وأصعبُ من هذا كلِّه أكلُ الحرام. /والزاني أعظمُ لأنَّ خصمَ آكلِ الحرام مخلوقٌ، وخصمَ الزاني ربُّ العالمين. ٩١/آ

وفي الخبر إذا اجتمع العاصيانِ على الزنى ضجَّتِ الملائكةُ. فيقولون: «ربَّنا ائذَنْ لنا في عُقوبَتِهما». فيقول الله عزَّ وجل: «طريقُهما عليَّ ووقوفُهما بين يديَّ، فأُعاقِبُهما أو أعفو عنهما، وأنا الغفورُ الرحيم». قال: وإنَّ الله تعالى خَلقَ مئةَ ألفِ نبيٍّ وأربعةً وعشرينَ نبياً منهم اثنا[1] عشرَ من بَني إسرائيلَ أوَّلُهم موسى وآخرُهم عيسى عليهم الصلاة والسلام، ومن الجميع ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ رسولاً، أولُهم آدمُ وآخرهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم؛ منهم سبعةٌ أصحابُ الكتبِ والصحفِ وهم: شيثُ وإدريسُ وإبراهيمُ وموسى وداودُ وعيسى ومحمدٌ صلى الله عليهم وسلم أجمعينَ. ومنهم خمسةٌ من العرب: هودٌ وصالحٌ وشُعيبٌ وإسماعيلُ ومحمدٌ صلى الله عليهم وسلم. والخواصُّ أربعةٌ: إبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ صلى الله عليهم وسلم. وجميعُ الأنبياء مَعصومون عن الزِّنى وسائرِ المعاصي قبلَ النبوَّة وبعدَها.

وفي الخبر أنَّ الزاني إذا ماتَ من غيرِ توبةٍ أدخلَه الله النارَ. يتأخَّر عن الخروجِ منها بعدَ هنَّاد وهو جهينةُ الذي أتى في الحديث، وأن هنَّاد يخرجُ من النار بعدَ سبعةِ آلافِ سنةٍ كما ورد في الحديث. وقيل: بعدَ سبعينَ ألفِ سنةٍ. ويتأخَّر الزاني عنه في النار. فإذا عَلم الزاني بخروجِ هناد منها ورأى نفسَه قد تأخَّر في النار بعدَه يقول: «يا ليتَني كنتُ هناداً».

فانظرْ ياأخي عقابَ الزاني ومُكثَه هذهِ المدةَ المستطيلةَ، حَمانا الله منها. واعلمْ أنَّ جرمَ الزِّنى بجُرمِ مقدماتهِ كالنظرِ والملامسةِ/ والمعانَقةِ والمكالمة والخلوةِ بالأجنبية. وأكبرُ حرمةٍ ٩٢/آ

---

١ - في الأصل: اثني.

ذلـك النظـرُ والخلوةُ والمـلامسـةُ والمعانقةُ للأَمْرد الحسنِ أعاذنا الله ونجَّانا من ذلك. قال الله تعـالى: «قُل للمؤمنين يَغضُّوا من أبصارِهم ويحفظوا فروجَهم ذلك أَزكى لهم إنَّ الله خبيرٌ بما يصنعون. وقَل للمؤمناتِ يَغضُضْنَ من أبصارهنَّ ويحفظْنَ فروجَهنَّ ولا يُبدينَ زينَتَهنَّ إلا ما ظَهر منها. وليضربَنَّ بخُمُرهنَّ على جُيوبهنَّ ولا يُبدينَ زينَتَهنَّ إلا لبُعولتهنَّ».. إلى آخر الآيات[1].

وقـال سفيـان الثـوري: «غضُّـوا أبصارَكم ولوعن شاةٍ أُنثى». وقال أيضاً: «ائتمنيِّ على بيتٍ مملوء مالاً ولا تَأتمنّي على جاريةٍ سوداء لا تحلُّ لي». وقال يوسفُ بنُ أَسباطَ: «لو ائتَمَني[2] رجلٌ على بيتٍ مملوء مالاً لظننتُ أن أؤَدِّي فيه الأمانَةَ، ولم أَخُنْ فيهِ شيئاً. ولو ائتَمَنَني على زِنجيَّةٍ أن أخلُوَ معها ساعةً واحدةً لما[3] ائتمنْتُ نفسي عليها».

وروى الإمام أبو الفرج بنُ الجوزيِّ في بعض مصنفاتهِ عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنــه قال: «لايَخلورجــلٌ بامــرأةٍ ليستْ له بمُحــرمٍ إلا همَّتْ بهِ وهمَّ بها». قلت: «يارسولَ الله أرأيتَ إنْ كانا صالحينِ؟». قال: «ولو كانتْ مريمَ بنةَ عِمرانَ ويَحيى بنَ زكريا».

وعن بعضهم أن سائرَ المعاصي لا يَستلذُّ بها البدنُ إلا الزِّنى، فإنَّ جميعَ البدنِ يستلذُّ بهِ. وعن أبي هريرةَ وابن عباس رضي الله عنهما قالا: «خطبَنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقـال في خُطبتـهِ: «مَن قدرَ على امـرأةٍ جاريـةٍ جُرمـاً فواقَعَهـا حرَّمَ/ الله عليه الجنةَ وأدخلَه النـارَ. ومن أبصـرَ من امـرأةٍ نظـرةً حَراماً ملأَ الله عينَه ناراً، ثم أمرَبه إلى النارِ. ومَن صافحَ امرأةً حراماً وليس بينَهُما حجابٌ جاء يومَ القيامةِ ويدُه مغلولةٌ إلى عُنقهِ. ومَن فاكَهَها بكلامٍ حسنٍ..[4] بكلِّ كلمةٍ في النارِ ألفَ عام. وأيُّ امرأةٍ طاوعَتِ الرجلَ حراماً أو قبَّلها أو باشَرها أو فاكَهَها أو واقَعَها فعَليها من الوِزْرِ مثلَ ما عَلى الرجل». ٩٢/ب

---

١ ـ الآيتان: ٣٠ ـ ٣١/ النور: ٢٤.
٢ ـ في الأصل: لو ائتمنيِّ
٣ ـ في الأصل: لم.
٤ ـ فراغ قدر كلمة.

وأورد الإمام أبو الفرج بنُ الجوزيِّ في كتابهِ «ذَمِّ الهوى» عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: «أولُ ما خلقَ الله من الإنسانِ فرجَه، فقالَ: هذا أمانَتي عندَكَ فلا تُضيِّعْها إلا في حَقِّها».

وعن عطاء الخراسانيِّ قال: إن لجهنَّمَ سبعةَ أبواب كما قال الله: «وإنَّ جهنَّمَ لموعدُهُم أجمعين لها سبعةُ أبوابٍ»[1] أشدُّهُم غماً وكَرباً وحراً وأنْتَنها رائحةً بابُ الزِّنى للذينَ ارتكبوه بعدَ العلمِ. وعن المُقدادِ بن الأسودِ أنَّه قال: سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن الزنى فقال: «حرامٌ حرَّمه الله ورسولُه». ثم قال: «لأَنْ يزنيَ الزاني بعشرةِ نسوةٍ أيسرُ في العقابِ بأن يزنيَ في حَليلةِ جارِه».

وعن عبد الله بنِ جريرٍ، عن أبيهِ أنه تَذاكروا عندَ عليِّ بنِ أبي طالب رضيَ الله عنه الفواحشَ، فقال لهم: «أتدرون أيَّ الزِّنى عندَ الله جلَّ ثناؤه أعظمُ وِزْراً؟». قالوا: «يا أميرَ المؤمنينَ كلٌّ عظيمٌ». قال: «ولكنْ سأخبركم بأعظمِ الزِّنى عندَ الله تعالى: هو أن يزنيَ الرجلُ المسلمُ بزوجةِ الرجلِ المسلم، / فيصيرُ زانياً وقد أفسدَ على الرجل زوجتَهُ». ٩٣/آ
ثم قال: «إنَّ الناسَ يرسلُ الله عليهم يومَ القيامة ريحاً مُنْتنةً حتى يتأذَّى بها كلُّ بَرٍّ وفاجرٍ. حتى إذا بلغتْ منهم كلَّ مَبلغ وأَلَمَّتْ بأنفاسِ كلِّهم نادى مُنادٍ يُسمعُهم الصَّوتَ فيه، فيقولُ: أتدرون ماهذه الريحُ التي آذَتكم؟ قالَ: فيقولون: لانَدري والله إنها بلغتْ منَّا كلَّ مبلغٍ فيقال لهم ألا إنَّها رائحةُ فروجِ الزّناةِ الذين لقُوا الله بِزناهم ولم يتوبوا».

---

١ ـ الآية: ٤٣/ الحجر: ١٥.

قصة التائبة والعابد

قال: وعن الحسن البصري قال: كانتِ امرأةٌ تبغي في بني إسرائيلَ لها ثلثُ الحسنِ في أهلِ زمانها، لا تمكِّن أحداً من نفسِها إلا بمئةِ دينار. فأبصرَها عابدٌ فأعجبتْه فذَهَبَ وجمعَ مئةَ دينـارٍ وجـاء إليها وقال: «إنكِ قد أَعجبْتِني فذهبتُ واجتهدتُ وجمعتُ». فأمرتْه بنَقدِها ووَزْنِهـا. ففعـلَ ثم قالت للقَهـْرمانة[1]: «قبضتِ منهُ مئةَ دينارٍ؟». قالت: «نعم». فقالتْ: «ادخلْ عليَّ». فدخلَ وكان لها من الجمالِ والهيبةِ ما الله أعلمُ به، وكان لها بيتٌ مُفردٌ وسريرٌ من ذهب. فقالتْ للعابد: «هلمَّ إليَّ» أي ادْنُ مني. فلما جلسَ منها مجلسَ الخائنِ ذَكر وقوفَه بينَ يدَي الله تعـالى، فأخـذَتْه رِعدَةٌ شديدةٌ، وماتتْ شهوتُه وانطفأت[2] حرارتُه، فقال لها: «اتْرُكيني ولكِ المئةُ دينارٍ». فقالت له: «وما الذي بَدا لك وقد رأَيْتَني وأنا في جَمالي، وزعمتَ أني قد أعجبتُـك فاجتهـدتَ وكـدَحتَ حتى جمعتَ لي مئـةَ دينـارٍ، فلما قَدرتَ عليَّ كان هذا فعلَكَ معي؟». فقـال لها: /«خفتُ من الله تعـالى، وذكـرتُ وقـوفي بينَ يَدَي الله. وقـد بغَّضـك الله إليَّ». فقـالت: «إن كنتَ صادقـاً فيـما تقولُ فمالي زوجٌ غيرُكَ». فقال: «ذَريني أخرجْ». فقالت: «لا أدعُك تخرجُ إلا إن جعلتَ لي عليك عَهداً أنَّك تَتزوَّجُني». قال: «لا أفعلُ حتى أخرجَ من عندِكَ». قالت: «فلي عليك إن أتيتُكَ وطلبتُكَ تَتَزوَّجني». قال: «لعلَّ».

٩٣/ب

قال: فتقنَّعَ وخرجَ إلى بلدِهِ. فلما كان بعد مدةٍ ارتحلتِ المرأةُ بمالها نادمةً على ما كان منهـا من البغيِ حتى قَدِمتْ بلدَهُ. فسألتْ عن منـزلـهِ واسمهِ، فدلُّوها عليه فقالوا له: «إن

---

١ ـ القهرمان: الوكيل أو أمين الدخل والصرف، ووظيفته «القهرمة».

٢ ـ في الأصل: وانطفت.

الملكةَ قد جاءتْ تسألُ عنك، وقد دَلَلْناها[1] عليك». فدخلتْ عليه. فلما رآها شَهقَ شهقةً فارقَ الدنيا. قال: فصاحَتْ وانزعجتْ وندمَتْ عليه، ثم قالت: «أمَّا هذا فقد فاتَني، فهل لهُ من قريبٍ؟». فقالوا لها: «لهُ أخٌ فقيرٌ». وجاؤوها بهِ فقالت له: «أتزوجُك حُباً لأخيكَ». قال: فتزوجَتْه فوُلدَ لها منه سبعةُ أبناء.

---

١ ـ في الأصل: ولبناها.

قصّة بائع القفاف

قال أبو الفرج بنُ الجوزيِّ رحمهُ الله أيضاً عن عبدِ الله البَلخيِّ قال: كانَ شابٌّ في بني إسرائيلَ لم يكن في زمانهِ شابٌّ أحسنُ منه، وكان خَوَّاصاً يبيع القِفافَ. فبينَما هو ذاتَ يومٍ يطوفُ بقفافهِ إذ خرجتِ امرأةٌ من دارِ أميرٍ من بني إسرائيل. فلما رأتْه رجعتْ مُبادرةً فقالتْ لابنةِ الملك: يا فلانَةُ إني رأيتُ شاباً بالباب يبيعُ القِفافَ لم أرَ شاباً أحسنَ منه. فقالتْ لها ابنةُ الملك: أدْخليهِ إلينا. فخرجتِ العجوزُ إليه وقالت له: يا فتى ادخُلْ لنشتريَ منك قِفافاً. فدخلَ فأغلقَتْ عليه البابَ ثم قالتْ: ادخلْ. فدخَلَ باباً آخرَ، فأغلقَتْه فاستقبلتْهُ ابنةُ الملك كاشفةً عن وجهها ونَحرِها. فقال لها: اشْتَري عفاكِ الله. فقالت له: إنا لم ندعُكَ[1] / إلى هذا، وإنما دَعَوناكَ لغيرِ ذلك. يَعني لترَاودَني عن نَفسي. فقال لها: اتَّقِ الله. فقالت لَهُ: إنْ لم تُطاوِعْني على ما أريدُ منك وإلا أخبرتُ بذلك الأميرَ أنك إنما دَخلتَ لترُاوِدَني عن نفسي. ٩٤/آ

قال: فأبى ووعَظَها فأبتْ. فقال: ضَعوا لي وَضوءاً. فقالتْ: أعليَّ تَتعطَّلُ؟ يا جاريةُ ضَعي له وَضوءاً فوقَ الجوشن[2]، مكاناً لا يستطيعُ أن يفرَّ منهُ. وكان من الجَوشنِ الذي وضعتْهُ فيه ليتوضَّأَ إلى الأرض طولُه ثمانون ذراعاً. فلما صارَ في أعلى الجوشَنِ قال: «اللهمَّ إني دُعيتُ إلى مَعصيتك، وأنا أختارُ الفِرارَ منها، وأريدُ أن أُلقِيَ نفسي من هذا الجوشنِ ولا أركبُ المعصيَةَ». ثم قال: «بسم الله». وألقَى نفسَه من أعلى الجوشن. فقيَّضَ

١ ـ في الأصل: لن ندعوك.

٢ ـ الجوشن: الصدر والدرع، ولعل الصواب هو «الروشن»: وهي فارسية معربة بمعنى النافذة التي يدخل منها النور.

الله له مَلَكاً فأخذَهُ بإصبعَيْهِ فوقَعَ قائماً على رجليهِ. فلما صارَ إلى الأرضِ قال: «اللهمَّ إنَّ شئتَ رزقْتَني رِزقاً تُغنيني به عن بَيعِ هذه القفافِ».

قال: فأرسلَ الله جَراداً من ذَهبٍ وكثَّر، فأخذَ منه حتى ملأَ ثوبَه. فلما صارَ في حُجرهِ صار يقلِّبُه ويتعجَّبُ. ثم قال: «اللهمَّ إنْ كان هذا رزقاً رزقْتَنيهِ في الدنيا فبارِكْ لي فيه. وإن كان مِمَّا لي عندكَ من حظِّي في الآخرةِ فلا حاجَةَ لي به». فنُودي: «إنَّ هذا الذي أعطيناكَ جُزء[1] من خمسةٍ وعشرينَ جُزءاً من نصيبِكَ في الجنةِ لصَبرِك على إلقاء نفسِك فراراً من معصيةِ ربِّك». فقال: «اللهمَّ لا حاجَةَ لي فيما يَنقُصُ مِمَّا لي عندك في الآخرة». قال: فرُفع الجرادُ في الحال وذَهب.

---

١ - في الأصل: جزءاً.

حكايات وآراء

وعن أبي زُرعَةَ قال: مكرتْ بي امرأةٌ وقالتْ: يا أبا زرعَةَ ألا تَرغَبُ في عيادةِ مُبتلىً تتّعـظُ برؤ يتـهِ؟ فقلت: نعم. فقالت: ادخُلْ هذه الدارَ. فلما دخلتُ أُغلقتِ البابَ دوني/ ولم أرَ أحـداً. فعـرفتُ قصْـدَهـا فرفعتُ وجهي إلى السـماء وقلتُ: «سَـوِّدْهـا» فاسـودَّتْ في الوقتِ. فلما نظرتْ إلى جسدِها وهي قبيحةٌ سَوداء تحيَّرتْ[1] في أمرِها، وفتحتْ لي البابَ، فخـرَجْتُ. فلما صرتُ خارجَ الـدارِ قلتُ: «اللهمَّ رُدَّها إلى حالتها الأولى». فردَّ الله عليها لونَها الأولَ.

٩٤/ب

★★★

ورُوي أن رجلاً تزوَّجَ بامرأةٍ من غيرِ بلدهِ، فأرسلَ إليها عبدَه فحملَها إليهِ. فلما كانَ ببعضِ الطـريقِ راودَتِ المـرأةُ العبـدَ عن نفسـهِ فاسْتَعصم بالله تعـالى وأبَى، ولم يطاوِعْها. فقيلَ: إنَّ الله تعالى جعلَه نبياً.

★★★

وعن أبي ذرٍّ الغِفـاريِّ رضي الله عنـه قال: دخـل رجـلٌ على النبيِّ صلى الله عليـه وسلم يقـال لهُ «عُكـافُ بنُ بشـرٍ»[2] فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «يا عكافُ، فهلْ

---

١ ـ في الأصل: فتحيرت.

٢ ـ ذكر أسد الغابة: ٤/ ٣ أن اسمه عكاف بن وداعة الهلالي.

لكَ من زوجةٍ؟». قال: «لا». قال: «ولا جاريةٍ؟». قال: «لا». [قال]: «أفأنتَ موسِرٌ؟»[1] قال: «أنا موسرٌ». قال: فأنتَ إذاً من إخوانِ الشياطينِ، لو كنتَ منَ النصارى كنتَ من رُهبانِهم.

إنَّ من سُنَّتنا النكاحَ. شرارُكم عزَّابُكم، وراذِلُ مَوتاكُم عزَّابُكم[2]. ما للشياطينِ من سلاحٍ أبلغُ في الصالحينَ من النساء إلا المتزوجون، أولئك المطهَّرون المتبرُّون من الخنى[3]. ويحكَ يا عكافُ أنتَ صاحبُ أيوبَ وداودَ وكرسُفَ». فقال بشرُ بنُ عطيةَ: «ومن كرسُفُ يا رسولَ الله؟». قال: «رجلٌ كان يعبدُ الله تعالى بساحلِ البحرِ ثلاثَ مئةِ عامٍ، يصومُ النهارَ ويقومُ الليلَ. ثم إنه كفرَ بالله العظيمِ بسببِ امرأةٍ عشِقَها وتركَ ما كانَ عليه من عبادةِ الله تعالى. ثم رجعَ إلى الإسلام، فتابَ الله عليه. ويحكَ يا عكافُ تزوَّجْ وإلا أنتَ منَ المذنبين». قال: «زوِّجْني يا رسولَ الله». قال: «قد زوجتُكَ كريمةَ بنةَ كلثومٍ الحميريِّ».

قال/ المروزيُّ: سمعتُ أبا عبدِ الله أحمدَ بنَ حنبلٍ رضي الله عنه يقول: «ليستِ العزوبيَّةُ من أمرِ الإسلام في شيء، لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم تزوَّجَ أربعَ عشرةَ امرأة[4] وماتَ عن تسعٍ». ٩٥/آ

قال الإمام أحمد: ولو كان بشرٌ الحافي تزوَّجَ كان قد تمَّ أمرُه كلُّه، ولو تَركَ الناسُ النِّكاحَ لم يغزُ أحدٌ إلى الجهادِ ولم يحجَّ ولم يكن كذلك.

وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصبح وما عندَه شيء، وماتَ عن تسعٍ. وكان يختارُ التَّزويجَ ويحثُّ عليه. ونهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن التَّبتُّلِ، فمن رغبَ عَن فعلِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فهو على غيرِ الحقِّ. ويعقوبُ في حزنهِ قد تزوَّجَ ووُلد لهُ. والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قال: «حُبِّبَ إليَّ النساء». وقال: «النكاحُ سُنَّتي وسُنَّةُ الأنبياء

---

١ - وفي رواية أسد الغابة: «وأنت صحيح موسر؟» وهو أسلم.
٢ - الخنى: الفحش في الكلام.
٣ - وفي رواية أسد الغابة: «شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم..».
٤ - في الأصل: أربعة عشر نسوة.

قَبلي، فمن رغبَ عَن سُنَّتي فليسَ مني».

قال الإمـام أبـو الفـرج رحمـه الله: مَن ابْتُلي بالهوى فأرادَ التَّزويج فليجتهدْ في نكاحِ المرأةِ التي ابْتُلي بها إنْ صحَّ له ذلك وجازَ، فليختَرْ مايظنُّه مُسَلِّماً له عن ذلك، وهو مايقعُ بقلبهِ عند رؤيتهِ، فإنه قد رَوى ابن عطاء الخراسانيُّ أنه قال: «مكتوبٌ في التوراةِ كلُّ تزويجٍ وقعَ على غير رويةٍ ممن يتزوَّجُ بها فهو حسرةٌ وندامةٌ إلى يومِ القيامة».

فائدة قال الإمام الغزاليُّ في كتابهِ «إحياء علوم الدين» في كتابِ «النكاح» عن بعض العـربِ أنـه قال: لا تَنكحـوا من النسـاء ستّـاً: لا أنـانَّةٌ ولا منَّانةٌ ولا حنَّانةٌ ولا حدَّاقةٌ ولا شدَّاقةٌ ولا برَّاقـةٌ. ثم قال: فأمـا الأنَّانةُ فهي التي تُكثر الأنينَ والبكاء والتمرُّض، وتعصبُ رأسَها مخافة الجِماع. فنكـاحُهـا لاخيرَ فيـه. وأما المنَّانةُ فهي التي تمنُّ على زوجِها فتقولُ /له: إنما أنتَ تأكـلُ وتكتَسي من مالي. فنكـاحُهـا لا خيرَ فيه. وأما الحنَّانةُ فهي التي تحنُّ إلى زوجٍ آخرَ، فنكـاحُهـا أيضـاً لا خيرَ فيه. وأما الحدَّاقَةُ فهي التي تَرمي بحدقَتِها إلى كلِّ شيءٍ مِن مأكلٍ وملبسٍ، وتكلِّفُ الـزوجَ إلى شرائـهِ. وأمـا الشـداقـةُ فهي المتشدِّقةُ الكثيرةُ الكلام. ومنه الحـديثُ: «لعنَ الله الـثَّرثـارين[1] المتشـدِّقـينَ». وأما البراقةُ فهي التي تصقُلُ وجهَها حتى يبرُقَ وتُحمِّـرهُ حتى يتـورَّدَ لعلمِهـا أنهـا إن لم تفعـلْ كثَّفَهـا[2] كلُّ مَن يراها. وقيلَ: هي التي تستقـلُّ نصيبَهـا من المأكـلِ وغـيرهِ. وهي لغـةٌ يمانيةٌ، يقال: برَّقَ الصبيُّ على الطعام إذا استقلَّ نصيبَه منهُ. انتهى.

٩٥/ب

وقـد لعنَ رسـولُ الله صلى الله عليه وسلم من النساء الهاجراتِ لفراشِ أزواجهنَّ. فقـال صلى الله عليـه وسلم: «إذا كانتِ المـرأةُ هاجـرةً لفراشِ زوجِها لعَنَتْها الملائكةُ حتى تُصبحْ، ولعنَتْها ملائكةُ العذاب وملائكةُ الرحمة».

ولعن رسـولُ الله صلى الله عليـه وسلم من النسـاء الـواشِمـةَ والمَـوشـومَـه والنامِصَةَ

---

١ ـ ثرثَر ثرثرة: أكثر الكلام وأسرع فيها.

٢ ـ الكثيف: الثقيل والغليظ المعاشرة. ولعل المؤلف استخدم الفعل على المعنى المفرَّس والذي هو بمعنى قذَر، وعندهم «كثافت» بمعنى القذارة.

والمتنمِّصةَ وهي التي تُرقِّقُ حاجِبَها، مأخوذةٌ من النَّماص[1] وهو المنقاش.

ولعن أيضاً الواشِرةَ والمستوشِرةَ، وهي الباردةُ لأسنانِها[2].

ولعن الواصلةَ والمستوصِلةَ، وهي التي تصلُ شعرَها بشعرِ غيرِها بغيرِ إذنِ زوجها. فإنْ وصلَتْهُ بإذنهِ لم يَحْرُم إلا أن تصلَهُ بشعرِ آدميٍّ فيحرُمُ.

ولعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم العائصَةَ والمعوصةَ. فالعائصةُ هي التي لم تُعلم زوجَها بأنها حائضٌ. فيجامعُها وهي حائضٌ. والمعوصَةُ هي التي لا تكونُ حائضاً وتقولُ لزوجها: أنا حائضٌ، كيلا يجامعَها كراهيةً لهُ[3].

٩٦/آ **قلت**: وإنما حملَ النساء على ارتكابِ/ هذهِ الأفعالِ الخبيثةِ التي استوجَبْنَ بها اللعنَ من صاحبِ الشرع صلى الله عليه وسلم لخسافةِ عقولهنَّ ونُقصانِ دِينهنَّ وشدةِ شَهواتهن وكثرةِ ميلهنَّ إلى الرجال ليُفسِدْن بذلك عقولَهم ويُفسدْنَ به أحوالَهم، ويستملِكْنَ به قلوبَهم وعقولَهم، قاتلهنَّ الله ما أعظمَ فِتَنهنَّ، وما أضرَّ كيدَهُنَّ، وما أعجبَ حِيلهنَّ، وما أشدَّ بأسهنَّ مع ضعفِ عقولهنَّ، كما قيلَ في ذلك:

هي الضِّلَعُ العَوجاء لستَ تُقيمُها ... ألا إنَّ تقويمَ الضُّلوع انكسارُها

وتجمعُ ضَعفاً واقْتداراً على الفتى ... وهذا عجيبٌ: ضَعفُها واقْتدارُها

فعليهنَّ منَ الله ما يستحقونَ «أولئك حزبُ الشيطانِ ألا إنَّ حزبَ الشيطانِ هُمُ الخاسرون»[4] وكم أَفسدْنَ عُقولاً، وكم فتنَّ أَحوالاً، وكم شَغلن بالاً، وكم فتنَّ شباباً ورجالاً، وكم أهلكْنَ مالاً، وكم قَهرْنَ أبطالاً! ولقد رأينا كثيراً من أربابِ العقولِ والذكاء معَ ذكائهنَّ ووفورِ عُقولهنَّ يَرجعونَ إلى رأيهِنَّ، ويمتثلونَ أَمرهُنَّ، ويَرضونَ لرضائِهنَّ،

---

١ - نمص الشعرَ: نتفه.

٢ - وشر أسنانه: بردها وحدّدها ورقّقها.

٣ - من الفعل «أعوص» وفي اللسان: أعوص فلان بخصمه: إذا أدخل عليه من الحجج ما عسر عليه المخرجُ منه.

٤ - الآية: ١٩/ المجادلة: ٥٨.

وَيَسخطون لسُخطهن. وربَّما فرَّقْنَ بينَ الوالدةِ وولدِها وبينَ الرجلِ وأقاربهِ، وأَوقعْنَ بينهم العـداوةَ والبغضـاء والمشـاجـرةَ والمقاطعةَ والمدابرةَ والمشاحنَةَ، حتى إنَّ كثيراً من أهل العلم والـدِّين وقـعَ في الإِثم والـوِزْرِ بمطاوعتهِ لزوجتهِ وموافقتهِ لرأيِ امرأتهِ. تارةً يفعلُ ذلك خَوفاً من شرِّها فيُداري حالَه معها، وتارةً يوافقُها على هَواها لعِظَم محبتهِ وشدَّةِ ميلهِ إليها.

قال الحسن البصريُّ: والله ما أصبحَ رجلٌ يطيعُ امرأتَه في ما تَهْوَى إلا أكبَّهُ الله على وجهه في النار. وربَّما يحصلُ /بذلك قطيعةُ الرَّحم وعقوقُ الوالدين. وهذا الأمرُ لاشكَّ فيه، ٩٦/ب وربـما وقـع أيضـاً بسببِ ذلك الفُرقةُ بينَ الإِخوانِ بل بينَ الآباء والأمهاتِ، وبين الأصحاب والخِـلَّان، والمشـاجـرةِ بين الأقاربِ والجيرانِ من عوامِّ الناسِ وخواصِّهم. فمنهم مَن ابتُلي بهذه المحنِ العظيمـةِ منهن والفتنِ الجسيمـة، أعـاذَنـا الله من ذلـك، وعصَمَنـا وإيـاكم عمَّا هُنـالـك، وجعلَنـا وإياكُم ممَّن بصَّرَه الله بدسائسِ نفسهِ، وشرَّفَه بطاعتهِ، وقرَّبهُ وآنسَهُ. إنه على ما يشاء قديرٌ وبالإِجابةِ جدير.

ومن كلام الإمـام عليٍّ رضي الله عنـه وكـرَّم وجهـه في قصيـدتـهِ المنسوبة إليه المعروفةِ بالزَّينبيَّة حيث قال:

وتَـوَقَّ مِن غَدرِ الـنـسـاء خيـانـةً	فجـمـيـعُـهـنَّ مكـايـدٌ لكَ تُنـصَـبُ
لا تأمَـنِ الأُنـثـى زمـانَـكَ كلَّهُ	يومـاً ولـو حَلفـتَ يَمـينـاً[1] تكـذِبُ

ومن كلام الشيخ محمد بن زين رحمه الله[2] حيث قال:

سَلوني عن احـوالِ الـنسـاء لأنني	خبـيرٌ بأحـوالِ الـنـسـاء طَبيـبُ
إذا شابَ رأسُ المـرء أو قلَّ مالُـهُ	فليسَ لهُ من وُدِّهـنَّ نَصـيـبُ

---

١ ـ من القصيدة الزينبية المنسوبة إلى الإمام علي (الديوان: ٩٧).

٢ ـ هو محمد بن زين بن محمد الطنتدائي النحراري الشافعي، عالم بالقراءات وله ديوان كبير. توفي سنة ٨٤٥. والنحرارية موطن ولادته في الغربية بمصر (الضوء اللامع: ٧/ ٢٤٦).

ومن كلام لقمانَ عليه السلام في وصيته لابنهِ: «يا بُنيَّ إياكَ ومشاورةَ النساء فإنهنَّ ناقصاتٌ في عقولهنَّ فإن شاوَرْتموهنَّ فخالفوهُنَّ. واسْتَعينوا عليهن بعلوِّ الجدران وغَلَقِ الأبوابِ حتى لا يراهُنَّ أحدٌ لتسْلَموا مِن شرِّهنَّ يا بُنيَّ المرأةُ الخيِّرةُ/ كالكبريتِ الأحمر عزيزةُ الوجود، والمرأةُ السوء كالحيةِ ناعمةٌ في مسِّها والسمُّ في جَوفها. ٩٧/آ

ورُوِي عن القاضي شُريح رضي الله عنه أنه كان يقولُ في حقِّ النساء إنهن ناقصاتُ عقلٍ ودينٍ. فلما اشتُهِرَ عنه ذلك جاءتْه امرأةٌ يوماً تسألُه عن ذلك فقال لها: «والله يا هذهِ ليسَ قولي هذا في حقِّكنَّ إنما هو في حقِّ نساء الصحابةِ رضي الله عنهم. وأما أنتنَّ فلا عقلَ لكنَّ ولا دينَ». قال: فرجعتِ المرأةُ تتعثَّرُ في ذيلها من شدَّةِ الحياء والخجل وهي تقولُ: «صدقَ شُريحٌ».

ورُوي أيضاً أنَّ امرأةً جاءتْ إلى القاضي شُريح تَشتكي إليه زوجَها وهي تبكي وتتظلَّمُ. فقال لها: «ارجِعي وائتي إليَّ غداةَ عندَ طلوعِ النهارِ حتى أَحكُمَ بينكُما إنْ شاء الله تعالى، فإنَّ إخوةَ يوسُفَ عليه السلام جاؤوا أباهُم عِشاء يبكون وكان بكاؤُهم على غيرِ أصلهِ، فكيف لا يكون بكاؤُكِ كذِباً؟».

قال أبو حفصٍ الكبيرُ في تفسيرهِ لكيدِ الشيطانِ وكيدِ النساء: إنَّ الله استضعفَ كيدَ الشيطانِ فقال: «إنَّ كيدَ الشيطان كان ضعيفاً». وقال العزيزُ لزُليخاء: «إنَّه من كيدِكُن إنَّ كيدَكنَّ عظيم». فقال: لأن كيدَ الشيطان يكون سِراً وكيدَ النساء يكون جَهراً.

فصل يتضمن أحاديث وردت عن بعض الصحابة

رضيَ الله عنهُم في ذمِّ نساء السـوء، ومـا وردَ في ذلـك من الـوعيدِ الشديد لهنَّ. عن أنس بنِ مالـك رضي الله عنـه أنـه قالَ: بينَـما نحن جلوسٌ في مجلسِ ابنِ عباس رضي الله عنهُـما والصحـابةُ مُحدِقون به/ وهويفسِّر لهم القرآنَ العزيزَ وإذا بأعرابيٍّ دخل علينا[1] فقال: السلامُ عليكم يا أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إنَّ لي امرأةً طويلةَ اللسان عليَّ وأريدُ منكم أن تَعطِفوها وتزجُروها عني. قال: فالتفتَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقال له: بلِّغْها عنِّي أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أيُّما امرأةٍ دعاها زوجُها إلى فراشهِ فأبَتْ فهي في سُخطِ الله إلى أن تتوبَ وترجِعَ».

٩٧/ب

وقـال عثـمانُ رضي الله عنـه: بلِّغْها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقـول: «أيُّـما امـرأةٍ قالتْ لزوجهـا: ما رأيتُ منك خيراً قطُّ إلا أحبطَ الله عملَها، ولو كانتْ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ إلى أن تتوبَ وترجعَ».

وقال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: بلِّغْها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليـه وسلم يقـول: «أيُّـما امـرأةٍ هَجـرتْ زوجَها وهي ظالمةٌ عليهِ إلا حُشرتْ يومَ القيامة مع قارونَ وهامانَ في الدَّرك الأسفلِ منَ النارِ، إلا أن تتوبَ وترجع».

وقـال ابنُ عبـاس رضي الله عنهـما: بلِّغْها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقـول: «أيُّـما امـرأةٍ خرجتْ من بيتِ زَوجها بغيرِ إذنهِ إلا لعنَها كلُّ شيء طلعتْ عليه الشمسُ، إلا أن تتوبَ وترجع».

وقال أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضي الله عنه: بلِّغْها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه

---

١ ـ في الأصل: دخيلنا.

وسلم يقول: أيُّما امرأةٍ قالت لزوجها: لعنَكَ الله، وهي ظالمةٌ إلا لعنَها/ الله من فوقِ سبعِ ٩٨/آ
سماواتٍ وكلُّ شيء خلقَه الله إلا أن تتوبَ وترجع».

وقال عمارُ بنُ ياسر رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أيُّما امرأةٍ خانَتْ زوجَها في فراشهِ إلا كان عليها من الذُّنوبِ مثلَ ذنوبِ نصفِ هذه الأمةِ، إلا أن تتوبَ وتَرجع».

وقال مُعاذُ بنُ جَبل رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لو أنَّ امرأةً لحسَتْ من جانبِ زَوجها دماً ومن الآخَر قيحاً ما أدَّتْ حقَّ زَوجها».

وقال المقدادُ بنُ الأسود رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله علي وسلم يقول: «أيُّما امرأةٍ عصَتْ زوجها فعليها لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين، إلا أنْ تتوبَ وترجع».

وقال سَلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أيُّما امرأةٍ منَّتْ على زوجها بمالِها فتقولُ: إنما أنتَ تأكلُ مِن مالي، فلو أنها تصدَّقتْ بمثلِ ذلك المالِ في سبيلِ الله لا يَقبلُ الله منها عملاً، إلا أن يَرضَى عنها زوجُها وتتوبَ».

وقال طلحَةُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: أيُّما امرأةٍ كَلَحت[1] في وجه زوجِها حتى تُدخِلَ عليه الغمَّ فهي في سُخطِ الله، إلا أن تضاحِكَهُ وتُدخِلَ عليه السرورَ».

وقال الزُّبيرُ بنُ العوَّام رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أيُّما امرأةٍ عَبدتِ الله تعالى عبادةَ مريمَ بنةِ عمرانَ، ثم لم يرضَ عنها زوجُها ما قَبلَ الله منها شيئاً من تلك العبادةِ، وأدخلَها النارَ مع الداخلين». /

وقال عبدُ الله بنُ عَوف رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله ٩٨/ب

---

١ ـ كلح وجهُه: عبس وتكشر.

عليه وسلم يقول: أيُّما امرأةٍ أَدخلتْ على زوجها الغمَّ من أمرِ النَّفقةِ والكُسوةِ وكلَّفتْه ما لا يطيقُ لا يقبلُ الله منها صَرْفاً ولا عَدْلاً، أي لا فَرضاً ولا سُنة، إلا أن تتوبَ وترجع».

وقـال أبـو هريـرةَ رضي الله عنـه: بلِّغْهـا عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لو أنَّ امرأةً جعلتْ أحدَ ثَدْيَيها مطبوخاً والآخرَ مَشوياً ما أدَّتْ حقَّ زوجها».

وقـال أبـو أُمـامَـةَ الباهليُّ رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لو أمرتُ أحداً أن يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجها».

وقـال عبـدُ الله بنُ عمـر رضي الله عنـه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لو أنَّ جميعَ ما في الأرض من ذَهبٍ وفضةٍ حملتْهُ المرأةُ إلى بيتِ زَوجها، وقالتْ له يوماً: مَن أنتَ؟ إنما المالُ مالي، لأحبطَ الله عملَها، ولو كانتْ أعبدَ الناسِ، إلا أن تَتوبَ وترجع».

وقال أبو أيوبَ الأنصاريُّ رضي الله عنه: بلِّغها عني أني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أيُّما امرأةٍ آذَتْ زوجَها بقولٍ أو فعلٍ ولم تُطعْه في شيء من الأشياء، فلو أنَّهـا افْتـدتْ بمـلء الأرضِ ذَهبـاً وفضـةً ولم تطِبْ نفسُـه عليهـا إلا نزعَ الله منهـا صالحَ ما أعطاها، وأدخلَها النارَ مع الداخلين».

رُوي عن رسـولِ الله صلى الله عليـه وسلم أنـه قالَ: «تُحشَـرُ المرأةُ العاصيةُ لزوجها مكتوبٌ بينَ عينَيْها: (آيسةٌ من رحمةِ الله) ولا تشمُّ رائحةَ الجنةِ، ولو كانت أكثرَ أهلِ الأرض عملاً» /.

وفي وصية النبي

٩٩/أ

صلى الله عليه وسلم، لابنتهِ فاطمةَ رضي الله عنها:

يا فاطمةُ ما مِن امرأةٍ عَبستْ في وجهِ زوجها إلا غضبَ الله عليها وغضبَ عليها زبانيةُ جهنم. فإنْ مانعتْه في الفراشِ لعنَها كلُّ رطبٍ ويابس.

يا فاطمةُ ما مِن امرأةٍ قالت لزوجِها: أفٍّ لكَ، إلا لعنَها الله والملائكة.

يا فاطمةُ مامِن امرأةٍ كفَّفتْ من كتابها دِرهماً عن زوجها إلا كتبَ الله بكلِّ درهمٍ حجةً مَبرورةً، وبَنى لها بكلِّ درهم قَصراً في الجنة.

يا فاطمة ما مِن امرأةٍ صلَّتْ ودَعَت لنفسها ولم تَذكُر زوجَها إلا ردَّ الله عليها صلاتَها، إلى أن تدعُوَ لزوجِها.

يا فاطمة ما مِن امرأةٍ غضبَ عليها زوجُها ولم ترضه، إلا كانَتْ في سخطِ الله وغَضبِهِ.

يا فاطمـة ما مِن امـرأةٍ لبسَتْ ثِيـابَهـا وخرجتْ مِن بَيتِها بغيرِ إذنِ زوجها إلا لعنَها كلُّ رطبٍ ويابِس، حتى ترجِعَ إلى بيتها.

يا فاطمةُ ما مِن امرأةٍ نظرتْ إلى وجهِ زوجِها وعَبستْ في وجههِ إلا غضبَ الله عليها وغضبَ عليها الملائكةُ.

يافاطمةُ مامِن امرأةٍ كشفتْ وجهَها على غيرِ زوجها إلا أكبَّها الله على وجهها في النار.

يافـاطمـة مامِن امـرأةٍ أدخلتْ في بيتهـا مايكـرهُ زوجُهـا إلا أدخـلَ الله عليها في قَبرِها سبعينَ حيةً وسبعينَ عقرباً من عقاربِ الجنةِ يَلدغونَها إلى يومِ القيامةِ.

يا فاطمة ما مِن امرأةٍ صلَّت تطوُّعاً ولم يأذنْ زوجُها إلا ردَّ الله عليها صلاتَها.

يا فاطمـةُ ما مِن امـرأةٍ سَرقتْ / من بيتِ زوجِهـا أومالـهِ إلا كتبَ الله عليهـا ذنـوبَ سبعينَ سنةً. ٩٩/ب

قصّة الزوجة والجبار

ورُوي أن رجلاً كان مِن عُبَّادِ بني إسرائيلَ يعملُ بالمِساحَةِ، وكانتْ له امرأةٌ من أجملِ نسـاء بني إسـرائيـلَ. فبلغَ خبرُهـا وجمـالُهـا إلى جبارٍ مِن جبابرةِ بني إسرائيلَ، فأرسلَ إليها عجوزاً وقال لها: «عَصِّيها على زوجها وقُولي لها: أتَرضَين أن تكوني عندَ مثلِ هذا الرجلِ الذي يعمل بالمِساحةِ؟ لو كنتِ عندَ الملكِ لحلَّاكِ بالذَّهب والفضة وكساكِ الحريرَ وأخذَ لك الخـدمَ». فجـاءتْ إليها العجوزُ وقالت لها ذلك الكلامَ الذي قالَه الملكُ. وكانت هذه المرأةُ تقرِّبُ إلى زوجها فِطرتَه وما يأكلُه وما يشربُه، وتَفرضُ له فراشَه. فلم تفعلْ له شيئاً من ذلك حين قالتْ لها العجوزُ ما قالت.

وتغـيرَّ عليـه الحـالُ فقـال لها: «مـا هذا الخلقُ الـذي لا أعـرفُه؟». فقالت: «هوكما تَرى». قال: فطلَّقَهـا زوجُهـا وتـزوَّجَهـا ذلك الجبارُ. فلما دخلَ عليها وأرخَى الستورَ عميَ وعَميتْ، فأَهْـوى يدَه ليلمَسَهـا فيبِسَتْ يدُه، وأَهْـوتْ بيـدِهـا لتلمسَه فيبِست يدُها. وصُمَّا وخَرسا ونَزعتِ الشهوةُ منهما، فباتا في أسوأ حالٍ. فلما أصبحا رُفعتِ الستورُ، فإذا هُما صمٌّ بكمٌ عمْيٌ. فرُفع خبرُهما إلى بني إسرائيلَ، ورُفع خبرهما إلى الله تعالى فقال الله تَعالى: «إني لستُ أغفر لهما أبداً؛ فإنهما ظنَّا أنْ ليسَ بعيني ما عَملا بصاحبِ المِساحة».

فما زالا على تلك الحالةِ حتى مَاتا وهُما على حالهما. وسلَّط الله على /ذلك الجبارِ مَن هُو أقوى منه، فأخذَ مملكتَه منه وخرجَ هو وزوجتُه يَشحذان[1] على قارعةِ الطريق. ١٠٠/أ

١ ـ في الأصل: يشحتا، وهو تعبير عامي في مصر.

قصة أبي مسلم

وحكايات أخرى

وعن أبي مسلمٍ الخَولانيِّ[1] رضي الله عنه أنه كان إذا انصرفَ من المسجدِ إلى منزلِهِ يقفُ على منزلِهِ ويكبرُ فتكبرُ زوجتُه. فإذا كان في صحنِ الدارِ تجيبُه[2] امرأتُه. فإذا بلغَ بابَ بيتِهِ كبرَّ فتجيبُه زوجتُه فيدخُلُ إليها. فانصرفَ ذاتَ ليلةٍ فكبرَّ عند بابِ دارِه، فلم يُجبه أحدٌ، فلما كان عند بابِ بيتِهِ كبرَّ فلم يُجبه أحدٌ. وكان إذا دخلَ بيتَه أخذتْ امرأتُه رداءهُ ونعلَيْه. ثم تأتيهِ بطعامِهِ.

قال: فدخلَ البيتَ فإذا البيتُ ليسَ فيه سِراجٌ، وإذا امرأتُه جالسةٌ في البيتِ منكِّسةٌ رأسَها تنكتُ في الأرضِ بعودٍ معها. فقالَ لها: «مالَكِ هكذا؟». فقالت له: «أنتَ لكَ منزلةٌ من معاويةَ وليس لنا خادمٌ فلو[3] سألتَه أَخْدَمنا وأعطاكَ ما تُريدُ». فقال: «اللهمَّ مَن أفسدَ عليَّ زَوجتي فأَعمِ بصرَها».

قال: وكانت جاءتْها امرأةٌ قبلَ ذلك فقالتْ لها: «إنَّ زوجَك له منزلةٌ من معاويةَ، فلو قلتِ له يسألُ معاويةَ يُخدِمه ويُعطيه ما عَشم»[4]. قال: فبينَما تلكَ المرأةُ جالسةٌ في بيتها إذ

---

١ ـ هو عبد الله بن ثوب أبو مسلم الخولاني الزاهد، سيد التابعين. أسلم في حياة النبي ﷺ، وقدم المدينة في خلافة أبي بكر. توفي سنة ٦٢ ودفن بداريا من ضياع دمشق، كذا قال محمد بن شاكر الكتبي في فوات الوفيات: ٢/ ١٦٩.

٢ ـ في الأصل: فتجيبه.

٣ ـ في الأصل: فلم.

٤ ـ العشم: الطمع.

أنكـرتْ بصَـرَهـا فقـالت لها: «ما لسراجِكُم طُفىء؟». قالوا: «لا». فعرفتْ ذنبَها فرجعتْ إلى أبي مسلمٍ تبكي وتسألُه أن يدعُوَ لها أن يردَّ الله عليها بصرَها. قال: فرحِمَها أبو مسلم ودعالها، فردَّ الله عليها بصرها.

١٠٠/ب وروُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أيُّما امرأةٍ غضبَ عليها زوجُها/ ثم ماتتْ من قبلِ أن يعفُوَ عنها زوجُها لا تَراني ولا أَراها يومَ القيامة، وكُبَّتْ على وجهها النارُ».

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا اختصمتِ المرأةُ وزوجَها قامَ في كلِّ ركنٍ من أركانِ البيتِ شيطانٌ يصفقُ ويقول: فرَّحَ الله مَن فرَّحنا. فإذا اصطلحا خَرجوا عُمياً يقولون: أذهبَ الله نورَ مَن أذهبَ نورَنا».

ورُوي أن أيـوبَ عليـه السلام قال: «إلهي ارزُقْني خيرَ الدنيا والآخرة». فأَوحى الله إليه: «إني أعطيتُك ذلكَ وأنتَ لا تعلمُ؛ إني أكرمتُك بالمرأةِ الصالحةِ رحمةً» ومَن رُزقَ ذلك فقد رُزق خيري الدنيا والآخرة.

قال قيسُ بنُ عُبادةَ رضي الله عنه: كانتِ امرأةٌ في بني إسرائيلَ بارَّةٌ بزَوجها فتصنع له طعـامَـه وشـرابَـه. فإذا قرَّبتْ له العَشـاء قامتْ على رأسـهِ بالسراج قال: فاحترقَتِ الفتيلةُ فعَمـدتِ المـرأةُ إلى ضَفيرةٍ من ضفائرِ شعرِها فألانَتْها ثم أَسْرجَتْها حتى فَرغ زوجُها يأكلُ. وكانتِ المرأةُ عَوراء. فأصبحتْ وقد ردَّ الله عليها عينَها جزاء لها بما صَنعتْ مع زوجها.

وعن أبي هريـرةَ رضي الله عنـه قال: قالَ رسـول الله صلى الله عليـه وسلم: «لـو أنَّ امرأةً ملكتْ مُلكاً ثم أعطتْه لزوجِها ثم منَّتْ عليه بذلك وأنفقتْه عليه بذلك إلا أَحبطَ الله عملَها أربعينَ يوماً»[1]:

إنَّ الـنـسـاء كأشـجـار نَبـتْـنَ معـاً	منهـنَّ مُرٌّ وبـعـضُ المـرِّ مأكـولُ/ ١٠١/آ
إنَّ الـنـسـاء ولـو صُوِّرنَ من ذَهـبٍ	فيـهـنَّ مِن هَفـواتِ الجهـلِ تَمحيـلُ
إنَّ الـنـسـاء متـى يُنْهـينَ عن خُلقٍ	فإنَّـه واجـبٌ[2] لابـدَّ مَفـعـولُ

---

١ ـ القطعة لطفيل، ذكر ابن قتيبة بيتين منها (عيون الأخبار: ٤/ ١١٣).

٢ ـ في عيون الأخبار: واقع، ولعله أوقع.

فما وَعـــدْنـــكَ من شرٍّ وفَـــيْنَ بهِ   ومـــا وعَـــدْنَـــكَ من خيرٍ فمَـمْحـــولُ

وعن أبي عبد الله الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أيُّما امرأةٍ كانتْ في صَلاتِهـا فدَعـاهـا زوجُها إلى فراشهِ، ولم تُوجِزْ في صلاتها وتأتي إليه إلا جاءتْ يومَ القيامةِ وعلى رأسِها من نارِ جهنمَ يَغلي منها دماغُها حتى يخرجَ من أنفِها».

قصّة دهاء سارقة

ومن قَبيل ما تقدَّم ما وقعَ للسلطان حسن[1] أنه ركب ذاتَ يومٍ ونزل من قلعةِ الجبل مُستخفياً حتى لا يعرفه أحدٌ، فمرَّ ببيتِ الوالي فرأى نائبَ الوالي جالساً على دكَّةٍ وحولَه أعوانُه مُحدقون به وهو في أمرٍ ونهيٍ وله مرتبةٌ وصولةٌ عظيمةٌ وهيبةٌ زائدةٌ مع أنه شيخٌ كبيرٌ طاعنٌ في السنِّ، وهو مع ذلك حُرمتُه ظاهرةٌ وقوتُه قاهرةٌ، لا تُردُّ لهُ كلمةٌ. قال: فتعجَّب السلطانُ حسن من ذلك عجباً عظيماً، فلما طلع إلى القلعة واستراحَ ساعةً أرسل خلفَ ذلك النائب. فلما حضرَ بين يديهِ دعا له[2] بالعزِّ والنصرِ، ثم أخبره السلطانُ عن سنِّه فأخبره أنه قاربَ المئةَ سنةٍ فقال له السلطانُ: «لقد رأيتُ منك عجباً!». قال: «وماهوَ؟». قال: «رأيتُ لكَ هيبةً عظيمةً وصَولةً نافذةً على أعوانك مع كبرِ سِنك وضعفِكَ وعجزِك. / فأخبِرْني كم لكَ من حينَ وُلِّيتَ هذه الوظيفةَ؟». قال: «وُلِّيتُها وعمري عشرون سنةً. فكلُّ مَن كان والياً كنتُ نائبه إلى الآنَ». قال السلطانُ: «فأخبرْني بأعجبَ ما رأيتَ في أيامِ حُكمك؟». قال: «والله يا مولانا السلطانُ رأيتُ أحوالاً عجيبةً وأموراً غريبةً لا أقدرُ أن أُحصِيَها. لكن يا مولانا السلطانُ أُخبرك بشيء تذكرتُه في هذه الساعةِ مما رأيتُ وأنا متعجبٌ منه».

١٠١/ب

فقال له السلطانُ: «قُلْ». قال: «يامولانا السلطانُ، إني كنتُ في عهدِ الملك الفُلانيِّ نائباً لبعضِ الولاة، فصلَّيتُ يوماً صلاةَ الصُّبح وبادرتُ إلى بيتِ الوالي في وقتِ الغَلَس قبل

---

١ ـ لم نعرف سلطاناً اسمه حسن. ولعله والد محمد بن حسن الحنفي، الذي ألف فيه كتابه «السر الصفي» راجع المقدمة.

٢ ـ في الأصل: فدعا له.

أن ينكشِفَ النهارُ، وقبل أن يحضُرَ أحدٌ من النُّقباء والأعوان. فبينما أنا جالسٌ إذا أنا بصُرَّةٍ ثقيلةٍ قد سَقطتْ في حُجري، فأزْعجني أمرها. فالتفتُّ يميناً وشِمالاً، فلم أرَحداً. فتناولتُ الصرَّةَ من حجري وفتحتُها فإذا هيَ دنانيرُ، فعدَدْتُها فإذا هيَ خمسون ديناراً. فتعجبتُ من أمرِهـا. فلما كان في اليـوم الثاني بادرتُ إلى بيتِ الوالي على عادَتي قبل أن ينكشفَ النهارُ. فلما جلستُ في مجلسي إذا بصـرَّةٍ أُخـرى وقعتْ في حجـري. فأخـذْتُهـا وعـددتُهـا فإذا هيَ خمسـون دينـاراً ولم أرَ أحـداً، فتعجبتُ من ذلـك. فلما كان في اليوم الثالثِ كان الأمرُ كذلك ورأيتُ امرأةً خلفَ جدارٍ. فلما وقعتْ عَيني عليها أسرعتُ إليها وقبضتُها وقلتُ لها: من أنتِ وما شَأنُك؟ فلم تكترثْ بي ولم تَنزعجْ مني ولا مِن كلامي بل أجابَتْني على رِسْلها[1] وهِينَتِها وقـالت: لا بأسَ عليـك ولا تخفْ/ فإن الصُّـرةَ الأولى مني والثـانيةَ والثالثةَ ولي إليكَ حاجةٌ تَقْضيهـا لي وهي هينـةٌ عليـك. فلما سمعتُ كلامَهـا ركنتُ إليهـا وقلتُ لها: ما حاجتُـكِ؟ قالت: أنتَ تعلمُ أنَّ من النسـاء مَن يهوَى ويعشقُ بعضَ النسـاء كما يهوى ويعشقُ الـرجـلُ المرأةَ. وأنا أحبُّ صبيةً وقلبي مشغوفٌ بها ولا لي سبيلَ إلى الوصول إليها نهاراً إلا أن أبيتَ عنـدَهـا ليلةً، وإني أريـدُ أن أحتـالَ لك حيلةً أبلغُ بها مَقصـودي، وأبلغُ بها مَأمـولي، ولكَ عنــدي ما تريـدُ وتَشتهي. فقلتُ لها: ومن[2] تكـونُ وفي أيِّ بيتٍ هيَ؟ قالت: هي في بيتِ قاضي القضـاةِ. قلت: وكيف لكِ بالـوصـول؟ قالت: هذا أمـرٌ هينٌ وذلك أني ألبسُ أفخرَ الثيـاب من الحـرير وأتحلى بالذَّهب والفضةِ واللؤلؤ والمَرجانِ وأتزيَّنُ بأحسنِ الزينةِ وأتطيَّبُ بأزهى الطِّيبِ وأجـودهِ وأشربُ قليلاً من الخمرِ وأخرجُ في هذه الليلةِ بعدَ أن يهدأَ الليلُ وينقطعَ المـاشي. وأطـرحُ نفسي على بابِ المـارستـانِ[3]، وتكونُ أنتَ الذي تطوفُ في هذه الليلةِ، والمشعلُ بينَ يديك. فإذا وصلتْ أعوانُك إلى بابِ المارِستانِ ووقعَ نظرُهم عليَّ وأنا نائمةٌ فلا بدَّ أن يَعلمـوا بحـالي، فإذا قربتَ مني ونظـرتَ إليَّ فأنـا أجعـلُ نفسي ثملةً في الخمـر. فإذا

١٠٢/آ

---

١ ـ على رسلها: على مهلها وبتأنٍّ.

٢ ـ في الأصل: وما.

٣ ـ تقصد: على باب المستشفى. وهي كلمة فارسية معربة، أصلها «بيمارستان»، أما مستشفى المجانين فهو «تيمارستان».

انقشعتْ رائحتي تقـولُ لأصحـابـك: أظنُّ أن هذهِ مِن بعضِ بيـوت الأمـراء والمباشرين. ونحن نَخشى أن نتركَها في هذا المكانِ أن يُعرِّيَها أحدٌ أو يَحملَها إلى بيته ويأخذَ ما عليها من الثيـابِ والحُـليِّ ويقتُلَهـا. والأَوْلى أن نحملَهـا إلى بيتِ الوالي ونُعلمَهُ بحالها أو نَحملَها إلى بيتِ قاضي القضاة/ لتَبيتَ عندَه وتُقيمَ في منزلِهِ إلى أن يظهرَ حالُها. فإذا حَملتموني إلى بيتِ قاضي القضاةِ فإنه لا بدَّ أن يأمُرَ بالجاريةِ أن تَحملَني إلى القاعةِ التي فيها ابنتُه. فأَبيتُ عندَها وأطيِّبُ خاطـرَهـا بجميـع ما عليَّ منَ المَلْبـوس وغـيرِه، وأقضي أَرَبي منهـا وأبلغُ مَقصـودي ومُرادي في هذه الليلةِ، وأجازيكَ على فِعلك مَعي على ما تُريد.

١٠٢/ب

قال: ففعلتُ ما أَمرتَني به يا مَولانا السلطانُ، وحملتُها إلى بيتِ قاضي القضاة، وأمرَ القـاضي بها إلى منـزلِ ابنتـهِ في القـاعـةِ المـذكورة. فلما أصبحَ الصباحُ وارتفعَ النهار طلبَ قاضي القضاة تلك المرأةَ التي في بيتِهِ فلم يجدْهـا. فافتقَدَ الصندوقَ وكان فيه ثلاثةُ آلافِ دينارٍ فلم يجدْها. فركب من وقتِهِ وهو في كَربٍ وطلعَ للسلطانِ وقال لهُ: خذْ بيدي يأخذِ الله بيدِكَ يومَ القيـامـة. فقـال له السلطانُ: ما خبرُكَ؟ فقصَّ عليه القصةَ مع المرأةِ والوالي وقال: مالي غريمٌ إلا الوالي. فأرسل السلطانُ خلفَ الوالي فأحضرَه بينَ يديهِ وأنا معَه. فسألَه فاعترَفَ بما كانَ فيـهِ من أمـرِ المـرأةِ. فقال له السلطانُ: اخرجْ في رِضى قاضي القضاة وافْحصْ عن هذه المرأةِ فإن وجدتَها فقد خلُصتَ وإلا يلزمُكَ المالُ. فقال: يا مولانا السلطانُ أَمهلني ثلاثة أيامٍ. قال: أمهلتُك.

فلما نزلْنا التفتَ إليَّ القاضي وقال: ما أعرفُ هذه القضيةَ إلا منْكَ لِما أعلمُ من همَّتك وحِـذْقـك. فقال: سمعاً وطاعة. ثم فارقتُهُ ونزلتُ إلى المدينة/ وجعلتُ أطوفُ بمُفْردي في أزقَّتِها وشـوارعِهـا وأتأمَّـلُ النساء يميناً وشمالاً وأتفرَّسُ فيهنَّ وأتتبَّعُ آثارَهُن وأنا في كربٍ فلم أجـدْ لتلك المـرأةِ أثـراً ولا أعرفُ لها خبراً. ولم أزلْ كذلك إلى آخرِ النهار فرجعتُ إلى منزلي وأنا مهمومٌ مغموم. وبتُّ تلك الليلةَ وأنا في شدةِ الخوفِ، ولم أنمْ ليلتَها ثم أصبحتُ وفعلتُ كذلك، وثالثَ يوم كذلك. فبينما أنا في آخر النهارِ في بعض الأماكنِ وإذا أنا بامرأة حائمةٍ فلما رأتْني قالت: نعمْ نعمْ. فأسرعتُ إليها فإذا هيَ صاحِبَتي. فلما دنَوْتُ منها قالت لي: لا تخفْ ولا تَفزعْ ولا تهتمَّ فإن هذا أمرٌ هينٌ وسوفَ أخلِّصُك من هذهِ الورطةِ كما تخلُصُ الشعرةُ من

١٠٣/آ

العجينِ بحيثُ إنـك لا تُغـرَّمُ من المـال درهماً واحداً، لا أنتَ ولا الوالي. واعلمْ أني أخذتُ المالَ، ولا أخذتُه إلا لأجلك حتى أتزوجَ بك وأتَّجه بجاهِكَ.

فلما سمعتُ منهـا هذا الكـلامَ ركنتُ إليهـا وطمعتُ فيها ورغبتُ فيها. قال: وذهبَ عني ما كنتُ أجدُه من الهمِّ والخوفِ. ثم قلتُ لها: ما الحيلةُ في الخلاصِ من هذا؟ قالت: الحيلةُ هينـةٌ. ولكنْ إنَّ السلطـانَ سيطلبُـك بسببِ هذا الأمـرِ. فإذا وقفتُم بينَ يديهِ فكن[1] أنتَ المتكلمَ فتقـولُ: يا مولانـا السلطـانُ الإنسـانُ لا يُعطي بدعـواهُ كلَّ ما يقولُ، وقاضي القضاةِ ادَّعى أنَّه ذهبَ له هذا المالُ، والسؤالُ من صَدقاتِ مولانا السلطانِ أنه سيرسلُ العبدَ[2] في هذه الساعةِ على غَفلةٍ إلى بيتِ القاضي فينظرُ إلى / هذا المكانِ الذي ذهبَ منه المالُ وإلى الصندوقِ وكيفيةِ المَوضِع. فإذا دخلتُم[3] إلى هذا المكانِ ورأيتُم الصندوقَ الذي كان فيه المالُ فتقرَّبْ أنتَ منه وفتِّشْ حولَه، فإنك تَرى هناك بَلاطةً مقلوعةً من موضعها فإني قلعتُهـا وجعلتُ موضعَهـا ماكـان عليَّ من القُـماشِ والحُـليُّ والمَصـاغ[4] وإني لطَّختُ القُماشَ بدمٍ كان معي في قِنِّينةٍ من الزجاجِ ولففتُ القُماشَ بعضَه في بعضٍ ووضعتُه تحتَ البَلاطةِ. فإذا أخرجتَ القُماشَ بحضرةِ القاضي والشهودِ ونشرتَه بحضرتِهم ورأوا ذلك الدمَ فقُمْ أنت للقـاضي مُسـرعـاً وتعلَّقْ به وكُن قوياً وارفعْ صَوتَك عليه وقُل له: أينَ صاحبةُ هذا القُماشِ؟ وكيف قتلتَهـا؟ وفي أيِّ موضـعٍ دفنْتَهـا؟ وكيف فعلتَ هذه الفعـالَ وأنت قاضي القضـاة؟ واجـذِبْـه إلى عنـدِك بأعلى صوتٍ ولا تخفْ ولا تجزعْ، فإنَّـه يخضـعُ[5] لك إذا فعلتَ ذلـك ويخافُ منكَ ويصيرُ يتذلَّلُ لكم ويتدخَّلُ عليكم ويسألكُم الإقالَةَ مما وقعَ منهُ في حقِّكم، فإذا رأيتُم منه ذلك فشدُّوا عليه وأغلِظوا عليه القولَ وقُولوا له: لابدَّ أن نرفعَ أمركَ إلى السلطانِ ليحكُمَ فيك ويجعلَكَ عِبرةً لمن يعتبرُ ويخلعك من وظيفتِكَ ويعزِلك عن وِلايتك. فإذا سمعَ

١٠٣/ب

---

١ ـ في الأصل: كن.

٢ ـ يعني نفسه؛ راوي الحكاية.

٣ ـ عاد الحديث إلى المرأة.

٤ ـ المصاغ: الحلي المصوغة.

٥ ـ في الأصل: يخدع.

ذلـك منكُم فإنـه يسألكُم أن يكتبَ إليكم براءةً بينكم وبينَـه من جميـعِ المـالِ وممـا يدَّعيهِ. فأَجيبوهُ إلى ذلك، وافْعلوا ما أَمركُم به، وأَشهِدوا عليه بذلك.

فإذا رجعتُم إلى السلطـانِ فأَخـبر وه أنـه وقَـعَ الصلحُ بينكم وبينَـه وقد انْتَظم الأمر. وانتهى الحالُ، والميعادُ بيني وبينَكَ في هذا المكانِ. / الله الله لا تُبطىء عني فإني منتظرةٌ لردِّ الجواب. ١٠٤/

قال: فاستحليتُ كلامَهـا ووعـدتُّها أني أرجعُ إليها، ثم فارقتُها ورجعتُ إلى منزلي. ولم أنمْ تلك الليلةَ من شدَّةِ الفـرح. فلما أصبـحَ الله الصبـاحَ أرسـلَ السلطـانُ طَلبنـا. فلما حضَـرْنـا بينَ يديهِ وألزَمنا بالمالِ جميعهِ لقاضي القضاة تذكرتُ[1] ما علَّمتْني صاحِبَتي وطلبتُ منَ السلطـــانِ أن يُرسلنـــا إلى بيتِ قاضي القضـــاةِ حتى أفعـــلَ ما قالتْ عليـه صاحبتي. فاسْتَصوبَ السلطانُ رأيَنا، وأرسلَنا إليهِ. فلما دخلتُ بيتَ قاضي القضاةِ ووجدتُ كما قالت لي فرحتُ بذلـك، وبسَطْنـا ألسنَتَنـا على القـاضي وسفَّهْنا عليه ورفَعنا أصواتَنا وسَبَّيناهُ وهو ساكتٌ. فلما رأى نفسَـه مَغلوبـاً سألَنـا أن يكتبَ بينَنـا وبينَـه براءةً شاملةً، فأجبنـاه لسؤالِهِ وأَشْهـدْنـا عليـه الشهودَ، ورجَعْنا جميعاً إلى السلطانِ، فأخبرْناهُ بالخبرِ، وأنه وقعَ بينَنا وبينه الصلحُ وأَرْضَيناه وأشهدْنا عليهِ. فشكَرَنا السلطانُ على ذلك وانصرَفْنا من بينِ يديْهِ.

ورجعتُ من ساعتي إلى تلك المرأةِ. فلما وقفتُ على ذلك البابِ طلبتُها فلم أجدْها، ولم يعـترفْ أحـدٌ بها. وإلى الآنَ يا مولاي السلطـانُ لم أقعْ لها على خبرٍ ولم أعلمْ لها مَوضعاً أبداً. ولم تزلِ الحسرةُ في قلبي حتى ألقى ربي. فتعجَّبَ السلطانُ من ذلك غايةَ العجبِ، وانصرف النائبُ من عندِ السلطانِ إلى منزله.

فانظـرْ يا أخي إلى فعـلِ هذهِ المـرأةِ وحِيَلهـا ومكـايـدِهـا، حتى أخذتْ مالَ قاضي القضاة وخلَّصتِ الولاةَ؟ فعافانا الله /مِن مكايدِهم، إنَّه رؤوفٌ رحيم. ١٠٤/ب

---

١ - في الأصل: فتذكرت.

قصة ابنة القاضي واليهودي

ومن هذا القَبيل ماوقعَ لبعضِ ولاةِ مصرَ، وكان يُعرفُ بالأميرِ ناصِر الدين **الطَّبَـلاويِّ**[١] **أنـه سُئـل عن بعضِ ماوقـعَ له من الـوقائعِ العجيبة فقال: والله: قد وقعَ لي** عجائبُ كثيرةٌ من جُملتها ما ذكرتُه في هذه الساعةِ. وذلك أني كنتُ ليلةً من الليالي نائماً[٢] بينَ **أهـلي وعيـالي، وإذا بطـارقٍ يطرق عليَّ البابَ طَرْقاً خَفيفاً وهويقولُ: نعمْ نعمْ. فقمتُ إليه** مُسـرعـاً، وأشـرفتُ عليـهِ مِن الطاقِ وقلتُ: مَن هذا؟ فأمَرَني بالنزولِ إلى أسفلِ. فنزلتُ ووقفتُ خلفَ البـابِ وهـو مقفـولٌ بَيني وبينه وقلتُ له: ماحاجَتُكَ؟ فقال: أنا فلانٌ. وكان مِن جهتي ومن جُملةِ عائلتي. فقال: جئتُك بمنفعةٍ عظيمةٍ. ففتحتُ له البابَ فقال: اعلمْ أن بنتَ قاضي القضاةِ عندَها فلانٌ اليهوديُّ في بيتِها، وهم يشربون المنكرَ، وتُغنِّي له ويُغني لها، وهُم في أمرٍ مَريجٍ[٣]، فإن أردتَ [أن][٤] تمضيَ إلى بيتها فافعلْ ذلك، ولك الخيرةُ في ذلـك. وعسى أن يحصـلَ لك من المـالِ منهـما مايكفيك زَماناً طويلاً. قال: فوقَعَ كلامُه في قلبي وخـرجتُ معـه ومَشينـا إلى بيتِ قاضي القضـاةِ حتى وقفنـا على البابِ وسَمعنا حسَّ الغناء منْهُما. فصبرتُ سُويعةً حتى سَكتوا وقلتُ: نعمْ. وكانوا جلوساً في طبقةٍ على البابِ. فلما سمعتْ كلامي قامتْ وفتحتِ الطاقَ وقالتْ: مَن هذا؟ فقالَ ذلك الرجلُ الذي معي: **هذا الأمـيرُ ناصرُ الدين. فقالتْ: أهلاً وسهلاً ومرحباً بالأمير ناصر الدين، تريدُ أن تأخذَ/**

---

١ ـ محمد بن سالم الطبلاوي ناصر الدين من علماء الشافعية بمصر (ولم يكن أميراً). عاش نحو مئة سنة لم يكن في مصر أحفظ لهذه العلوم منه. نسبته إلى «طَبَلية» من قرى المنوفية بمصر.

٢ ـ في الأصل: نائم.

٣ ـ أمر مريج: ملتبس مختبط.

٤ ـ إضافة المحقق.

لكَ شيئاً من المالِ وتسترَ علينا وتكونَ صحبةٌ بَيننا وبينك، أوتريدُ غيرَ هذا؟ فقال: بل أريدُ شيئاً من المال وأسترُ عليكم، والله هو الستَّار. فقالتْ: سَمعاً وطاعةً. ثم أمرتْ بعضَ الجواري بفتح البابِ فنزلتْ وفتحتِ البابَ، فلما رأتني بنتُ قاضي القضاة قَبَّلتْ أقدامي وقالت: هذه ليلةٌ مباركةٌ. ثم حلفتْ عليَّ وأدخلتني الدارَ وقالت: أما رفيقُك فيجلسُ على الباب ويطفيء الفانوسَ حتى تعودَ إليه، ولابدَّ له من نصيبٍ يُرضيهِ. قال: فدخلتُ معها وصعِدنا الطبقةَ، فرأيتُ ذلك اليهوديَّ جالساً وبين يديهِ الزهورُ والخمورُ والمنثورُ والشموعُ مَوقودَةً بين يديهِ، وهو في ألذِّ وقتٍ وأهنئه. وكان ذلك اليهوديُّ شاباً[1]، وقد خطَّ عارضُه ودارَ عذارُه، كما قال فيه الشاعرُ:

أضحى يقولُ عذارُهُ: هل منكُمُ ليَ عاذرُ؟
الوردُ ضاعَ بخدِّهِ وأنا. عليهِ دائرُ

وكان ذلك اليهوديُّ صَيرْفياً له مالٌ كثيرٌ وثروة. فلما رآني ذلك اليهوديُّ نهض مسرعاً وجعلَ يقبِّلُ يديَّ ورجليَ وهوخائفٌ فزَعٌ. فلما رأيتُ منه ذلك قلتُ له، اجلسْ ولاتخفْ. فجلسَ وجلستْ بنتُ قاضي القضاة ووقفتِ الجواري في الخدمة بين أيدينا، ثم أقبلتْ عليَّ وقالت: والله إن هذهِ ليلةٌ مباركةٌ. فقلتُ: إنْ شاء الله. ثم تناولتِ القدحَ وملأتْه وأسْقتْني وشربْتُه. ثم قلتُ لها: أنتِ تعلمين[2] أني ماجئتُ لأجلِ شيء من هذا، وأنتِ تعرفين ماجئتُ له فقالت: سَمعاً وطاعةً. وقامتْ إلى خزانةٍ وفتحتْها وحملتْ منها كيساً فيه ألفُ دينارٍ ثم صرَّتْه في منديلِ حريرٍ ووضعتْه في حجري / ثم عدَّتْ مئةَ دينارٍ للرجلِ الذي معي على الباب، ثم التفتَتْ إليَّ وقالت: ياأميرُ ناصرَ الدين أيَّ شيء أكلتُ أنا حتى أشربَ عليهِ؟ وبأيِّ شيء أُغرَّمُ من عندي عن هذا اللعينِ ألفَ دينارٍ وهو لايغرَّمُ شيئاً لك؟ فإن أردتَ الانصافَ بيننا فخذْ ألفَ دينارٍ أخرى كما أخذتَ مني، فيصيرُ معك ألفا[3] دينارٍ،

/١٠٥

١٠٥/ب

---

١ ـ في الأصل: شاب.
٢ ـ في الأصل: تعلمي.
٣ ـ في الأصل: ألفي.

وتُساوي بَيننا في الغرامةِ. فلما سمع اليهوديُّ كلامَها التفتَ إليها وقال لها: ادفَعي إليَّ ألفَ دينارٍ قَرْضاً وأنا أدفعُها إلى الأمير وأُعطيك بَدلها، وأنا مالي كثيرٌ، لا ينقصُه الألفُ دينار، فقالت: حاشا وكلاّ أن أفعلَ ماقلتَه وأعطيكَ وتخرجُ من عندي فيبقى لك الخيارُ إن شئتَ تُعطي أوْلا تُعطي. فإن كان ولابدَّ فلا تخرجْ من عندي إلا ومعكَ جاريتانِ وأنتَ معهما في التَّرسيم والاميرُ معي وفي مكاني، ولايُمكنانِك[1] من الدخول إلى منزلِكَ حتى يَقبضوا منك الألفَ دينارٍ وتأتي معهم وتُعطيها[2] للأميرِ من يدكَ إلى يدهِ، وتَستعطفُ خاطرَهُ فقال: فقلتُ: والله هذا رأيٌ حسنٌ. ثم خرجَ من عندها يريدُ منزله، ومعه جاريتانِ قويَّتانِ.

فلما خرجَ اليهوديُّ من باب الدار وذهبَ قالتْ لجواريها: أغلقوا البابَ وأسرِعوا إليّ[3]. فلما أغلقوا البابَ وصَعدوا إليها [قالت]،[4] انزلوا في رقبةِ الذي يقول: أنا شاطرٌ وتهمار[5] وإنه نائبُ السلطان دونَكم وإياهُ. قال: فنزلوا واجتمعوا عليَّ بالضربِ والصَّفع وجعلوا يضربونني ويلكمونني[6] حتى سقطتْ عِمامَتي عن رأسي مقطَّعةً وهي تقول: انزلوا عليه ولاترحَموه، فإني لاأُطلقُه حتى يحضُرَ / والدي وأقصَّ عليه ماجرى لي في هذهِ الليلة، ١٠٦/آ وأنه هَجم عليَّ واستخفى في مكانٍ من المنزلِ ولم نشعرْ به حتى أغلقْنا الأبوابَ وأخذنا مضاجِعَنا للنوم. فهجَم علينا وطلبَ منا القبيحَ. فلما سمعتُ منها ماقالتْ ازدَدْتُ خَوفاً ورُعباً وزهدتُ في المال ونسيتُ القتلَ منَ الذُّهول وقلت لها: سألتُكِ بالله إلا ماأخْرجتِني، ومالي حاجةٌ بالمال، وأنا تائبٌ لوجه الله تعالى. وجعلتُ أقبِّلُ يديْها ورجلَيها. فوالله ماأخرَجَتْني حت ضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رحُبتْ، فعندَ ذلك قالتْ للجواري: حُلُّوا عنه واسحَبوه خارجَ البيت وأَغلِقوا عليه البابَ. فأخْرجوني في أسوأ الحالاتِ فحمدتُ الله تعالى

---

١ - في الأصل: ولايمكناك.

٢ - في الأصل: وتعطيهم.

٣ - يفضل التأنيث كما هو واضح.

٤ - إضافة المحقق.

٥ - لم تتضح لنا، ولعلها تقرأ «تيهار» أي مجنون بالفارسية.

٦ - في الأصل: يضربوني ويلكموني.

وشكـرتُـه على النجـاةِ مما كنتُ فيـه ورجعتُ إلى منـزلي وأنـا ذليلٌ حيرانٌ وعندي من القهر والـوجـعِ مالا يعلمُـه إلا الله تعـالى. وكتمتُ ذلـك سنةً كاملةً ولم أتكلّم بما جَرى إلى وقتي هذا.

فنعوذُ بالله من كيدِ النساء إنَّ كيدَ النساء عظيم.

قصّة نكبة البرامكة

ومن قبيـل ذلـك ماوقـعَ للبرامكـةِ من القتـلِ والهـلاك على يدِ أميرِ المؤمنين هارونَ الرشيدِ وقتلِ جعفر البرمكيِّ وزيرِ هارونَ الرشيد بعد أن كان نائماً معه في قميصٍ واحدٍ من محبَّتـهِ له ومقـالتـهِ عنـدَه. فما زالتِ النسـاء بكيـدهنَّ بينَهـما حتى غيرَّنَ خاطرَ أميرِ المؤمنين وضربَ عنقَه وقتلَ البرامكةَ الذين كانوا يلوذونَ بجعفرٍ بالفراعةِ. وكان السببُ في ذلك على سبيلِ الاختصار، وهو ماوراهُ أبو نُعيم بنُ إسحاقَ عن أبي ثورٍ أزهرَ / بن ضَفْلان قال: ١٠٦/ب

بلغني عن ميمـونـةَ بنتِ المهلب[1] لما ابتُليتْ بعشقِ جعفرِ بن يحيى البرمكي صارتْ[2] تراسلهُ وتـلاطفـهُ وتسألـهُ أن يزورَهـا فيأبىَ عنها ويمتنعُ فزعاً من أن يبلغَ ذلك إلى الرشيدِ، فيتصـوَّر بصـورةِ من كفـرَ نعمتَـه وخانَ حُرمتَهُ. فلما عَيِيَ صبرُها وأَيِستْ منه اتَّخذتْ طعاماً وسألتْ أن يحضُرَ أخُوها عندَها، وعلمتْ أنَّ الرشيدَ لايحضرُ إلا ومعَه جعفرٌ. فأجابَها الرشيدُ إلى ذلـك وبصحبتـهِ جعفرٌ. فجلسا في مجلسٍ أُعدَّ لهما، يتحدثان على سريرينِ. فلما كان وقتُ إرادةِ الـرشيـدِ الانصـرافَ قالتْ له أختُـه: ياسيِّـدي إني قد اشتريتُ لك جاريةً أديبةً عاقلةً، وقد أعدَدْتُها لك في هذهِ الليلة لتبيتَ معها عِندي وتَسرُّني بذلك. فقال لها: وأخي جَعفـرٌ؟ قالت[3]: وجعفـرٌ أعـددْتُ له جاريةً تشاكلُ جاريتَكَ في الحسنِ والجمال. فقال لها: نعمَ مافعلتِ حيثُ خصصتِ أخي جعفر، بمثلِ ماخَصصْتِنِي به. فلما دخلتِ الجاريةُ على

---

١ ـ من عجب أن المؤلف يذكر اسم ميمـونـة العاشقة لجعفر. والصواب أن اسم أخت الرشيد هو عباسة بنت المهدي.

٢ ـ في الأصل: فصارت.

٣ ـ في الأصل: فقالت.

الـرشيـد وخَـلابها وانفردَ جعفرٌ إلى منزلٍ آخرَ عمدتْ[1] ميمونةُ إلى أحسنِ قُماشِها فلبستْه وتـزيَّنتْ ودخلتْ على جعفـر فلم يعـرفْهـا، وظنَّ أنهـا جاريـة. فلما أصبحا[2] قالتْ له: أنا ميمونةُ، قد كنتُ أسألك أن تساعدَني على مودَّتك فأبَيتَ. فلما أيِستُ منك احتَلْتُ عليك بما رأيتَ في هذه الليلة. وإنْ لم تواظبْ عليه لأكونَنَّ سَبباً في سَلبِ نعمتِكَ. وكان كما قالتْ، ولم يزل يزورُها خَوفاً منها حتى ظهرَ أمرُها للرشيدِ، ففعلَ بها مافعلَ[3]. وهذا ابتداء الحديث: /

107/آ حدثنا المبرد قال: أخبرنا المارستانيُّ عن يحيى بنِ أكثمَ القاضي قال: سألتُ إسماعيلَ بنَ يحيى الهـاشميَّ عن سببِ زوال النعمـةِ عن البرامكة، وكيفَ كان سخطُ الرشيد عليهم فقال: نَعم أعرفُ صحةَ الخبرِ وباطنَ القضيةِ، وذلك أني كنتُ مع الرشيدِ يوماً من الأيام في الصَّيـد. فبينـما نحنُ نسـيرُ إذ نظرَ إلى موكبٍ بالبعدِ قد اعترضنا فقال: ياإسماعيلُ لمن هذا الموكبُ؟ فقلتُ: موكبُ أخيك جعفرِ بن يحيى. فالتفتَ يميناً وشمالاً. ثم نظرَ إلى مَن معَه في موكبـهِ فإذا هُم شِرذِمـةٌ يسـيرةٌ. ثم نظـرَ إلى موكبِ جعفـر فلم يرهُ. قال: ياإسـماعيلُ، مافعـلَ جعفـر وموكبُهُ؟ فقلت: ياسيدي قد مَضوا في طريقٍ آخَرَ ولم يَعلمْ بك. فقال: مارآنا أهـلاً أن يُزيننَـ[4] بمـوكبـهِ ويجمِّلنـا بجيشـهِ؟ فقلتُ: ياأميرَ المؤمنين، لو عَلم بك سارَ بينَ يديك. واعتذرتُ عنه بما حَضَرني من الكلام ثمَّ سِرنا حتى انتهَيْنا إلى ضَيعةٍ عامرةٍ ومَواشٍ كثـيرةٍ وعـمارةٍ حسنـة. وكـان الطـريقُ يدورُ عليهـا وعلى بَيـدَرِهـا. فدُرْنا حتى وَردْنا بابَ الضَّيعة. فنظر الرشيدُ إلى البَيدرِ وإلى كثرة الغلالِ فيه والمواشي ويَسار أهلها، فالتفتَ إليَّ وقـال: ياإسـماعيـلُ لمن هذه الضيعـةُ؟ قلتُ: لأخيـك جعفـرِ بنِ يحيى. فسكتَ ساعـةً ثم تنفَّسَ

---

١ ـ في الأصل: فعمدت.

٢ في الأصل: أصبحوا.

٣ هذا أضعف الـروايـات في علاقـة عبـاسة بجعفر، وإحدى العلل في نكبة البرامكة. وفي الطبري أن الـرشيـد ماكـان يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة، وكان يُحضرهما إذا جلس للشرب. فقال لجعفر يوماً: أزوجكما ليحل لك النظر إليها، ولاتقربها، فجامعها فحملت منه. وانظر الطبري: ٨/ ٢٩٥ والكامل: ٦/ ١٧٥.

٤ في الأصل: يزينّا.

وكظَم[1]. ثم سِرنـا، ولم يزلْ يمـرُّ بضيعـةٍ أعمـرَ من ضيعـةٍ. وكلَّما مرَّ بضيعـةٍ سأل عنها ويقـولُ: لجعفر بن يحيى، حتى وصلنا إلى المدينةِ، فأردتُّ وَداعَه والانصرافَ إلى منزلي فنظر إلى مَن كان معـه نظـرةً فتفـرَّقـوا وبقيتُ أنا وهو فقال: ياإسماعيلُ. قلتُ: لبَّيك / ياأميرَ المؤمنين. ١٠٧/ب
قال: فعلتُ بنفسي فِعـالاً؛ نظـرْنـا إلى الـبرامكةِ فأغْنَيناهم وأفقرْنا أولادَنا وأغفلنا أمرَهُم.

فقـلت في نفسِي: بُليتُ والله. فقلت: لماذا ياأمـيرَ المؤمنـين نظـرتَ إلى هؤلاء وأغفلتَ هؤلاء؟ قال: إني لاأعـرفُ لأحـدٍ مِن أولادي ضيعـةً مثـلَ ضياعِ البرامكةِ عن طريق هذه المدينةِ؟ فكيفَ بما لهم على غيرِ هذا الطريقِ وفي سائر البلدانِ؟ فقلت؛ ياأميرَ المؤمنين إنما الـبرامكـةُ عبيـدُك وخـدمُك وجميعُ مالَهم لك. فنظر إليَّ مُغضباً وقال: ماكان بنو هاشمٍ إلا عبيـدَ الـبرامكةِ ولانعمةَ لبني هاشمٍ عليهم. والله ياإسماعيلُ إني قلتُ هذا القولَ وكأني بكَ تُبلِّغُهم كلامي هذا فتَتَّخـذَ عنـدَهم يداً، ولكن اكتمْ هذا الأمـرَ، فما عَلم به غيرُك، ومتى بلغهم شيء[2] علمتُ ماأفشاهُ إلا أنتَ. فقلت: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، حاشا لمثلي أن يُفشيَ سرَّ أميرِ المؤمنين، ثم ودَّعتهُ وانصرفتُ مُتفكراً في إيقاعِ الحيلةِ عليهم.

فلما كان من الغـد بكـرتُ إليـه وسلَّمتُ عليه وجلستُ بين يديهِ، وكان مُشرفاً[3] على دَجلةَ شرقيَّ مدينةِ السلام، وبإزائهِ منزلُ جعفر في الجانب الغربيِّ. وكانت العساكرُ تمرُّ كلَّ يومٍ إلى منـزل جعفـر. فالتفتَ وقال: ياإسماعيلُ، هذا ماكنا فيهِ معكَ بالأمسِ. انظرْ كم على بابِ جعفـر من الجيـوشِ والغلمانِ والمـواكبِ، وبـابي ماعليـه أحـدٌ. فقلتُ: ياأمـيرَ المؤمنين لاتُعلِّقْ نفسَك بشيء من هذا، إنما جعفر عبدُك ووزيرُك وصاحبُ جيشك، إذا لم يكن الجيشُ على بابهِ فعلى بابِ من يكونُ؟[4] إنما أبوابُه / مِن أبوابِك. فقال: ياإسماعيلُ ١٠٨/آ
انظرْ إلى دوابِّهم، ألستَ ترى أعجازَها[5] إلى قصري وتروثُ بإزائنا؟ هذا هوَ الاستخفافُ

---

١ كظم عضبه: حبسه وأمسك على مافي نفسه منه.

٢ - في الأصل: شيئاً.

٣ - في الأصل: مشرف.

٤ - في الأصل: يكن.

٥ - في الأصل: أعجازهم.

بعينهِ. والله لاأصبرُ على ذلك. ثم غضبَ غضباً شديداً فأمسكتُ عنه وقلت: هذا قضاء مِن الله سَبق.

ثم استأذنْتُـه في الانصـرافِ ورجعتُ إلى منـزلي. فلِقيني جعفـر في الطـريق يريـدُ الـرشيـدَ، فتواريتُ عنه حتى مضى ودخلَ على الرشيدِ فسلَّم عليه وأكرمَه وهشَّ في وجههِ، ووهبَ له خادِمـاً من خاصَّتـهِ فصيحـاً عاقلاً. فسُرَّ جعفر لذلك، وكان ذلك دسيسةً عليه، لكي يرفـعَ أخبـارهَ إلى الرشيدِ، ويُحصيَ عليه أنفاسه وألفاظَه ساعةً بساعةٍ. فلما رجعَ جعفر إلى منـزلـهِ خَلا[1] به مدةَ ثلاثـةِ أيـامٍ. ثم سرتُ إلى جعفر فوجدتُ الخادمَ عندَه. فعلمتُ أنـه يُحصي علينـا أنفـاسَنـا، فقلت: أيُّهـا الوزيرُ عندي نصيحةٌ أفتأذَنُ لي في الكلام؟ قال: تكلَّمْ. وكـان الـرشيـدُ قد ولاَّهُ كورةَ خراسـانَ كلَّهـا ومايُضافُ إليها قبلَ هذا الكلامِ بأيامٍ وخلعَ عليه وعقَد له لواء عسكرهِ بالنِّهروان، وضربتِ الناسُ مضاربَهم وهُم متهيِّئون للسفرِ. فقلتُ: ياسيـدي أنت عازمٌ على الخـروج إلى بلادٍ كثيـرةِ الخيرِ واسعـةِ الأقطـارِ عظيمـةِ المملكـة. فلو صيَّتَ بعضَ ضِيـاعِـك التي بالعـراق لوالدِ أميرِ المؤمنين لكانَ أحظى لمنزلتك عندَه. فلما قلتُ ذلك نظرَ إليَّ مغضباً وقال: والله ياإسماعيلُ ماأكلَ الخبزَ صاحبُكَ أو هوَ ابنُ عمِّـك إلا بفضـلي، وماقامتْ هذه الدولةُ إلا بِنا، ماكفاني تركتُه ولا يهتمُّ بشيء من أمرِ نفسهِ وولدِهِ وحاشيتهِ ورعيتهِ وملأتُ بيوتَ أموالهِ مالاً، ونُصِبتُ للأمورِ الجليلةِ أُدبِّرُها / حتى يمدَّ عينيـهِ إلى ماادَّخـرتُـه لولدي واختَرتُه لعَقِبي مِن بَعدي. فداخَلَه الحسدُ والبغْيُ، ونَدَبَ فيه الطمـعَ؟ والله لئنْ سأل شيئـاً من ذلـك ليكـونَنَّ وبـالا عليـهِ سريعاً. فقلت: والله ياسيدي ماكـانَ مما ظننْتَ شيئـاً، ولا تكلَّمَ أمـيرُ المؤمنـينَ من هذا بحـرفٍ. قال: فماذا الفُضـولُ؟ فقعدتُ عنده هُنيهةً ثم قمتُ إلى منزلي، ولم أركبْ إليه ولا إلى الرشيدِ، لأني صرتُ بينَهما في حالِ تُهمةٍ. وقلتُ في نفسي: هذا الخليفةُ وهذا وزيرهُ، ولا معنى للدخولِ بينَهما، ولا شكَّ في زوالِ نعمةِ البرامكةِ قد تَفاقمتْ.

قال: وحـدثني خادمُ أمِّ جعفـر أن الـذي وهبه الرشيدُ لجعفر كتبَ إلى الرشيد بما كان بَيني وبينَـه، ومـاتكلَّم به من الكـلامِ الغليـظِ. فلما قرأ الخبرَ احْتَجبَ ثلاثةَ أيامٍ وهويتفكَّرُ

١٠٨/

---

[1] في الأصل: وخلا.

ويدبِّرُ في إيقاعِ الحيلةِ على البرامكة، فدخلَ في اليوم الرابع على زُبيدةَ بنتِ القاسم[1]، فخلا بها وشَكا إليها ما في نفسهِ من البرامكة، وأقرأها الخبرَ الذي رفعَه إليه الخادمُ، وكان بينَ يدي ذلك وقعَ بين جعفر وبينَ زُبيدةَ شرٌ وعداوةٌ. فلما تمكّنتْ من الحُجّةِ عليه اجتهدتْ في هَلاكهم. وكان الرشيدُ يتبرَّكُ بمشورتها. فقال لها: أشيري عليَّ برأيك فإني أخافُ [إن][2] أُخرجَ الأمرُ مِن يدي أن يتمكّنوا من خراسانَ ويتغلّبوا عليها. قالت: ياأميرَ المؤمنين. مَثَلُك معَ البرامكة كمثلِ غريقٍ في بحرٍ عميق. فإن كنتَ أفقتَ من سَكْرتِك وتخلَّصتَ من غَرقَتك أخبرتُك بما هو أصعبُ عليك وأعظمُ من هذا. وإن كنتَ على الحالةِ الأولى تركتُك ولاأُبدي لك أمراً. فقال لها: قد كان ماكانَ مني، فقولي أسمعْ منكِ. / فقالت: إن هذهِ جنايةٌ جناها وزيرُك، وهو أصعبُ مما أنتَ فيه وأبشعُ وأقبحُ. فقال لها وهو مزعوجٌ من كلامِها: ويحكِ وماهوَ؟ قالت: أنا أُجلُّك وأعظِّمك أن أتلقّاكَ بهِ، ولكن «أرجوانُ» الخادمُ خادمُ الحرمِ أحضرْه وشدِّدْ عليهِ وأرهبْه فإنه يعرِّفُك الخبرَ. قال الرشيدُ: قد أحلَّ جعفر محلاً لم يَحلَّه أخوهُ ولا أبوهُ ولا أمُّه، وأمرَه أن يدخلَ على الحرمِ في السَّفرِ والحضر، وأبرزَ إليهِ جواريَه وأخواتِه وبناتِه وسائرَ حُرمِهِ، لأنه كان بينَهما إرضاعٌ سوى امرأتِهِ زُبيدةَ، فإنه لم يكن يراها ولا دخلَ ولا قضى لها حاجةً ولا هيَ تستقضيهِ حاجةً قطُّ. فلما قَسا قلبُ الرشيد على البرامكةِ وجدتْ لها سَبيلا إلى ذلك، وحطَّت على جعفر. وكان جعفر يدخلُ على جميعِ الحرمِ بغير إذنٍ.

٩ ١٠ ١/آ

قال: فخرجَ الرشيدُ من عندِ زبيدةَ، واستدعى أرجوانَ[3] الخادمَ وأحضرَ السيفَ والنِّطع[4] وقال: نُفيتُ من المنصورِ لئن لم تصدُقْني من حديثِ جعفر لأقتلنَّكَ. قال: لي منكَ الأمانُ ياأميرَ المؤمنين؟ قال: نعم. قال: اعلمْ أن جعفر قد خانَكَ في أُختِكَ ميمونةَ. وقد

---

١ ـ وهم من المؤلف، فزوجة الرشيد هي زبيدة بنت جعفر وهي أم الأمين واسمها أمة العزيز. كانت ذات دين وفضل، وآثارها على طريق الحاج مشهورة. توفيت سنة ٢١٦.

٢ ـ إضافة المحقق.

٣ ـ في الأصل: بأرجوان. يروي ابن الأثير أن عباسة وقع بينها وبين بعض جواريها شر، فأنهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد (الكامل: ٦/ ١٧٥).

٤ ـ النطع: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.

دخلَ بها منذُ سَبعِ سنينَ، وولدتْ منه ثلاثَ بنينَ أحدُهما ستُّ سنينَ، والآخرُ له خمس سنين، والثالثُ عاشَ سنتينِ ومات عن قريبٍ. والاثنينِ أنفذَهُما إلى مدينةِ النبيِّ ﷺ، وهي حاملٌ بالرابع[1]، وأنتَ أذِنتَ له بالدُّخولِ على أهلِ بيتِك، وأمرْتَني أن لاأمنعَه أيَّ وقتٍ شاء ليلاً ونهاراً. قال: أمرتُك أن لاتحجبَهُ، فحيثُ حدثَ منه هذه الحادثةُ لمَ لاأخبرْتَني بذلك من أول مرةٍ؟ ثم أمرَ بضربِ عنقِهِ، فضُربت[2] عنقُه.

ثم قام من وقتِهِ / ودخل على زُبيدةَ وقال لها: أرابَني ماعامَلني به جعفر ومارتكبَ مِن هَتْكِ حُرمتي، ونكّسَ رأسي وفضَحني في العربِ والعجم. فقالتْ له: هذه شهوتُكَ وإرادتُكَ التي أردْتَها؛ عمدتَ إلى شابٍّ جميلِ الوجه حسنِ الثياب طيبِ الرائحة، جبارٍ في نفسِهِ، لايُصطَلى له بنارٍ، أدخلتَه على ابنةِ خليفةٍ من خُلفاء الله تعالى، وهي أحسنُ منه وجهاً، وأنظفُ منه ثوباً، وأطيبُ منه رائحةً، ولم تَرَ رجلاً قطُّ غيرَهُ. فلعبَ بينَهُما الشيطانُ، وهاجَتْ بها شهوتُها وزالَ رأيُها حتى اهلكَها. فهذا جزاء من جمَعَ بينَ النار والحلفاء[3]. فقام من عندِها مَكروباً، فدعا بخادمِهِ مُسرورٍ[4]. وكان قاسي القلب فظّاً غليظاً، قد نزعَ الله الرحمةَ من قلبِهِ، فقال له: يامسرورُ، إذا كان الليلةَ بعد العَتَمةِ فأْتِني بعشرةٍ من الفعلة، أجلاداً. ومعهم خادمانِ. قال له: سَمعاً وطاعةً. فلما كان بعدَ العَتَمة جاء مسرورٌ ومعَه الفَعلةُ والخادمان كما أمر. فقام الرشيدُ وهُم بين يديهِ حتى أتى المقصورةَ التي فيها أختُه مَيمونةُ، ونظر إليها وهيَ حاملٌ، فلم يكلمْها بشيء، ولم يعاتِبها على مافعلتْ. وأمرَ الخادمينِ[5] بإدخالها في صندوقٍ كبيرٍ كان في مقصورَتِها بحُليِّها وثيابِها كما هيَ. وقفلَ عليها وهي ساكتةٌ لاتتكلَّمُ ولاتعتذرُ لعلمِها بجُرمِها، وقد علمتْ بعد قتلِ أرجوانَ الخادمِ أنها لاحقةٌ به. فلما علم أنها قد استُوثق بها في الصندوقِ دعا[6] الفَعلةَ

/١٠٩

---

١ ـ الجارية التي نمّت له الخبر، أنبأته بغلام واحد موجود في مكة.

٢ ـ في الأصل: فضرب.

٣ ـ الحلفاء: نبت ينبت في مغايض المياه، يصنع من أوراقه قففاً وحصراً وحبالاً.

٤ ـ في الأصل: سرور، وصوابه ماذكرناه عن الطبري والكامل.

٥ ـ في الأصل: الخادمان.

٦ ـ في الأصل: فدعا.

ومعهم المعاوِلُ[1] والزنابيلُ، فحفَروا في وسَطِ ذلك البيتِ حتى بلغوا الماء وهو قاعدٌ على كرسيٍّ. ثم قال لهم: حَسْبُكم، هاتوا الصندوقَ. فأدخلوهُ في تلك الحفرةِ، فدلُّوه فيها. ثم قال لهم: رُدُّوا الترابَ عليه. ففعلوا، ثم أخرجَهم وقفلَ البابَ وأخذَ المفتاحَ معَه / وجلسَ في موضعهِ والفَعلةُ والخادمانِ بينَ يديهِ. ١١٠/آ

ثم قال: يامسرورُ خُذ هؤلاء القومَ وأعطِهم أجورَهُم، والخادمان معهم. فأخذَهم مسرورٌ ومضَى، وجعلهم في جَواليقَ، وخيَّطَ عليهم بعد أن قَتلهم بالصخرِ والحصَى، ورَماهم في وسط الدجلةِ، ورجع من وقتهِ، ووقفَ بين يديهِ. فقال: يامسرورُ، مافعلتَ؟ قال: وَفَّيتُ القومَ أجورَهُم، فدفعَ إليه مفتاحَ البيتِ وقال له: احفظْه حتى أسألَكَ عنهُ، وامضِ الآنَ، فانصُبْ في وسطِ القصرِ قُبَّةً. ففعلَ ذلك ووافاهُ قبلَ الصبح، ولم يَعلم أحدٌ مايريدُ. فلما جلسَ في مجلسهِ، وكان يومَ خميس، وكان يومَ موكبٍ، قال: يامسرورُ، لاتَباعَدْ عني. ودخَل الناسُ فسلَّما عليه، ووقَفوا بين يديهِ على مَراتبهم. ودخلَ جعفرُ بنُ يحيى البرمكيُّ فسلم عليه ورحَّب به وضحكَ في وجههِ وجلسَ في مَرتبتهِ، وأخرج الكتبَ الواردةَ عليه من سائرِ النواحي فقرأها عليهِ، وأمر ونهى ورفعَ ونفَّذَ الأمورَ، وقضَى حوائجَ الناس ثم استأذَنه جعفر في الخروج إلى خراسانَ في يومهِ ذلك.

فدعا الرشيدُ بالمنجِّم وهو جالسٌ بحضرته وقال له: كم بقيَ منَ النهارِ؟ وكم مضَى؟ قال: مضى ثلاثُ ساعاتٍ ونصفٌ. فأخذَ الارتفاعَ وحسبَ لنفسهِ ونَظر في نجمهِ فقال: ياأخي هذا يومُ نحسِكَ، وهذهِ ساعةُ نحسٍ، ولا أرى أن تُحدِثَ فيها حَدثاً. ولكن تُصلي الجمعةَ وترحَلُ في سُعودك وتبيتُ بالنَّهروانِ وتبكِّر يومَ السبتِ وتَستقبلُ الطريقَ أولَ النهار، فإنه أصلحُ منَ اليوم. فما رضيَ جعفر بما قالهُ الرشيدُ حتى أخذَ الاصطرلاب[2] من يدِ المنجِّم وقامَ فأخذَ الطالِعَ وحسبَ لنفسهِ وقال: والله صدقتَ / ياأميرَ المؤمنين إن هذه ساعةُ نحوسٍ، ومارأيتُ نجماً أشدَّ احتراقاً ولاضيقَ حجري في البروجِ من هذا. ثم قام وانصرفَ إلى منزله والناسُ والقوادُ والخاصَّةُ والعامَّةُ من كلِّ جانبٍ يعظِّمونه ويحجبُونه إلى أن ١١٠/ب

---

١ - في الأصل: المعاويل.

٢ - في الأصل: الاضطراب.

وصـلَ إلى قصـرهِ في جيشٍ عظيم وأمرٍ ونهيٍ وانصرافِ الناس عنهُ، فلم يستقرَّ به المجلسُ حتى بعثَ إليــه الـرشيـدُ وقـال له: امضِ إلى جعفـر وائْتِني به وقُـل له: وردتْ على أمـيرِ المؤمنـين كُتبٌ من خراسـانَ. فإذا دخـلَ من البـابِ الأول لاتـدعْ أحـداً يدخـلُ معه من غلمانهِ، بل يدخـلُ وحـدَه. فإذا دخـلَ في صحن الـدارِ فمُـدَّ[1] به إلى القبةِ التركية التي أمرتُك بنَصْبها فاضـربْ عنقَـهُ فيهـا وائتِني برأسـهِ، ولاتُـوقفنَّ أحـداً من خلقِ الله تعـالى على ماأمرتُك به ولاتُـراجعْني في أمـرهِ. وإن لم تفعـلْ أمرتُ مَن يأتيني برأسِك مع رأسهِ، وفي دونِ هذهِ كفايةٌ وأنتَ أعلمُ. وبادِرْ من قبلِ أن يبلغَه الخبرُ من غيرِك.

فمضى مسرورٌ واستأذنَ على جعفر فدخلَ عليه وكان قد نزعَ ثيابَهُ وطرحَ نفسه على فراشـهِ ليسـتر يـحَ[2] فقال: ياسيدي أَجبْ أميرَ المؤمنين. قال: فانزعجَ وارتابَ لذلك وقال لهُ: ياوَيلكَ يامسـرورُ السـاعةَ خرجتُ من عندهِ، فما الخبرُ؟ قال: ياسيدي، وردتْ عليهِ[3] كتبٌ من خراسانَ يحتاجُ يقرؤ ها عليك. فطابتْ نفسهُ ودعا ثيابه، فلبسَها وتقلَّد بسيفهِ وقام مع مسـرور إلى أن أتى به إلى بابِ الـرشيـد. فلما دخلَ من الباب الأول أوقفَ الجندَ، وفي الثاني أوقفَ الغلمانَ. فلما دخلَ من الباب الثالثِ التفتَ جعفر فلم يرَ أحداً من غلمانهِ فندِمَ على رُكوبه في تلك الساعةِ، ولم يمكنْه الرجوعُ. / فلما صارَ بإزاء القبة فلم يرَ فيها أحداً، ووجـدَ في زاوِيتهـا سَيفـاً ونطعـاً[4] حس[5] بالبـلاء، فقال لمسرورٍ: ياأخي ماالخبرُ؟ فقال له مسـرورٌ: أنـا السـاعـةَ أخوكَ وفي منزلك تقول: ياوَيلكَ؟ أنت تَدري ماالقضيةُ وما كان الله ليُهملك ولايغفلَ عنك. وقد أمرني أميرُ المؤمنين بضربِ عنقك وحَملِ رأسك إليه الساعةَ.

١١١/آ

قال: فبكى جعفـر وجعـل يقبِّـلُ يَدَي مسـرور ورجليـهِ ويقول: يامسرورُ قد علمتَ كرامتي لك دونَ جميـعِ الغلمان والحـاشيةِ وحوائجُكَ عندي مقضيَّةٌ على ممر الأوقاتِ، وأنت

---

١ . في الأصل: مدّ.

٢ ـ في الطبري: وكان عنده نفر وجارية تغني.

٣ ـ في الأصل: عليك.

٤ ـ في الأصل: سيف ونطع.

٥ ـ في الأصل: فحس.

تعرفُ مَوضعي ومحَلي من أميرِ المؤمنين ومَرتبتي عندَه ومايُوحيهِ إليَّ من الأخبار والأسرار، ولعلَّهم بلَّغوه عني الباطلَ[1]. وهذه مئةُ ألفِ دينارٍ أُحضرُها لك الساعةَ قبلَ بَراحي من هذا المكان وخلِّني أمضِ على وجهي. فقال له مسرور: لاسبيلَ إلى ذلك أبداً. قال: فاحمِلْني إلى أميرِ المؤمنين وأوقِفْني بين يديهِ فلعلَّه إذا نظر إليَّ تُداركُه الرحمةُ فيصفحُ عني. فقال مسرور: لاسبيلَ إلى ذلك أبداً، هو أميرُ المؤمنين قد أمرني ولايمكنُني مراجعتهُ، وقد علمتُ وتحققتُ أنه لاسبيلَ لك إلى الحياة أبداً.

قال: فتوقَّفْ عني ساعةً وارجعْ إليه ولاتكلِّمه وقُل له: قد فرغتُ ممَّا أمرْتَني به واسمعْ ما يقولُ وعُد فافعلْ ماتريدُ. قال: فإن فعلتَ ذلك وحصلَ لي السلامةُ فإني أُشهدُ الله تعالى وملائكتَه أني أُشاطرك فيما تَملك يَدي وأجعلُكَ أميرَ الجيش وأملِّكُك أمرَ الدنيا. فلم يزلْ به وهو يتضرَّعُ له ويبكي حتى طمَّعَ له في الحياة. وقال مسرور: مايكونُ ذلك/ فحلَّ عنه سيفَه ومِنطَقتَه فأخذَهُما، ووكلَ به أربعين[2] غلاماً من السودان يحفظونَه، ومضى حتى وقفَ بين يَدَيِ الرشيدِ وهو جالسٌ يقطر غَضباً وفي يدهِ قضيبُ الوَلع وهو ينكتُ به في الأرض. فلما رآه قال له: ثكلتْكَ أمُّك يامسرورُ مافعلتَ في أمرِ جعفر؟ قال: ياأميرَ المؤمنين قد أنفذْتُ أمرَكَ فيه. قال: فأينَ رأسُه؟ قال: في القُبَّة. قال: فأتِني برأسهِ الساعةَ. فرجع مسرور وجعفرٌ يصلي، وقد صلَّى رَكعتين، فلم يمهلْه حتى يصليَ الثالثةَ[3]، وسلَّ سيفَه الذي أخذَهُ منه وضربَ به عنقَه وأخذَ رأسَه بلحيتهِ فطرحَها بينَ يدي الرشيد وهي تَشخَبُ[4] دَماً. فتنفَّسَ الصُّعَداء، وبكى بكاء شديداً، وجعلَ ينكتُ في الأرض وينكتُ أسنانَ جعفر بالقضيب وهو يخاطبهُ ويقول: ياجعفرُ أجعلُك في محلٍّ، ياجعفرُ ماكافَيْتَني ولاعرفْتَ حقِّي ولاحفظْتَ عهدي ولاذكرتَ نِعمتي ولانظرتَ في عواقبِ الأمورِ ولا تفكَّرتَ في صروفِ الدهرِ ولاتقلُّبِ الأيام والليالي واختلافِ أحوالها. ياجعفرُ خُنْتني في أهلي وفَضحْتَني بينَ العرب

١١١/ب

---

١ ـ وفي الطبري: وقع جعفر على قدم مسرور وقال: حتى أدخل فأُوصي. فقال: أما الدخول فلا سبيل إليه، وأما الوصية فاصنع ماشئت. فأوصى بما أراد وأعتق مماليكه.

٢ ـ في الأصل: أربعون.

٣ ـ في الأصل: الثانية، ولعلها كما ذكرنا.

٤ ـ تشخب: تسيل، والشخْب: الدم. وحين قتل جعفر كان عمره سبعاً وثلاثين سنة.

والعجم. ياجعفرُ أسأتَ إليَّ وإلى نفسِك ولاتفكَّرتَ في عواقبِ دَهرك.

قال مسرور: وأنا واقفٌ بين يديه وهوينكتُ في الأرض، ويكرِّرُ هذا الكلامَ ويخاطبُ الرأسَ ويقرعُ أسنانَها بالقضيب ويبكي في إثرِ كلِّ كلمةٍ. ولم يخلُ كذلك إلى أن أذَّنَ المؤذنُ لصلاةِ الظهر. فدعا بماء فتوضَّأ للصلاة وخرجَ إلى الجامع فصلَّى بالناسِ جماعةً ثم أظهرَ وجهــه إلى قصـورِ جعفـر ودُورِه وحِصنِ أبيـهِ / وأخيـهِ وجميـعِ أولادِ الـبرامكـةِ وأمـوالهم وغلمانِهم، واستبـاحَ مافيهـا. ووجَّـه مسـروراً إلى المعسكـر، فأخـذَ جميـعَ مافيهِ من مضاربَ وخيامٍ وسلاحٍ وغيرِ ذلك. فما أصبحَ يومُ السبتِ إلا وقد قُتل من البرامكة وحاشيتِهم نحوُ مئتين، ومن الرجالِ والغلمان والخدمِ نحوُ ألف، وتَرك من بقي منهم لايرجعُ إلى وطنهِ، بل شتَّتَ شملَهم في البلاد، ولم يقدِرْ أحدٌ منهم على كسرةِ خبزٍ يأكُلها، وحبسَ أباه يحيى وأخاهُ الفضلَ في مَطمورةٍ[1]، وأمرَ بجثةِ جعفر فصُلبت على الشجر ببغدادَ. ثم بعثَ إلى خراسانَ مَن يُوطِّىء بلادَها. وأمر الناسَ فردُّوا مضارِبَهم ودَخلوا في العسكر.

١١٢/آ

واستقـرَّتْ له الأمـورُ، وأحضـر علي بنَ عيس بنِ هامـانَ[2] فوليَ خراسـانَ. ثم توجَّه إلى مدينةِ الرسولِ ﷺ[3] فأتى بالصبيَّين ولدَي جعفر من أختهِ ميمونةَ، فأُدخلا في بيتهِ. فلما رآهُما أُعجبَ بهما، وكـانـا في نهايـةِ الحسن، فاستَنْطقَهـما فإذا لغتُهـما مدنيَّـةٌ، وفصـاحَتُهـما هاشميةٌ، وفي ألفاظِهما عذوبةٌ وبلاغةٌ، فقال للكبيرِ: ياقُرةَ عيني مااسمُك؟ قال: الحسنُ، وللأصغر: مااسمُك ياحَبيبي؟ قال: الحسينُ. قال: فنظر إليهما وبكى بكاء شديداً وقال: يعـزُّ عليَّ حسنكُـما وجَمـالكـما، لارحمَ الله من ظَلمكما. ولم يدريا مايُرادُ بهما، لأنهما نُعيت لهما أنفسُهما. ثم قال: يامسرورُ مافُعل بالمفتاح الذي دفعتُه لك وأمرتُك بحفظِه؟ قال: هومَعي ياأمـيرَ المؤمنـين. قال: فأتِني به. ثم دَعـا بجـماعـةٍ من الغلمان وأمَـرهم أن يحفـروا على الصنـدوقِ الـذي كان وَضـع فيـه أختـه ودفَنها فيه. فحفروه حتى وصلوا إلى الصندوق. /

---

١ ـ المطمورة: حفيرة تحت الأرض. الحبس.

٢ ـ هو من كبـار قواد الـرشيـد والأمـين، وهـو الذي حرض الأمين على قتل أخيه المأمون، فقتله طاهر بن الحسين قائد المأمون سنة ١٩٥.

٣ ـ في الطبري: أنه حج قبل قتله، وكان حجه سنة ١٨٧، وفي الكامل أنه قتلهم في هذه السنة.

ودَعا بحطبٍ وألقاهُ في الحُفرةِ، ثم أَشعل فيه النارَ حتى ارتفع اللهبُ، واسودَّتِ النارُ بعدَ بياضِها. ١١٢/ب

ثم أمرَ بالصبيَّينِ وأقعد أحدهُما على فخذِهِ الأيمنِ والآخرَ على فخذِهِ الأيسر وجعل يقبِّلُهما ويبكي حتى ظننتُ أنه يرحَمُهما. ثم قال لهما: لارَحمَ الله من أهلَككُما. قال إسماعيلُ: قال مسرور: وأنا واقفٌ بين يديْه. وقد تقطَّع قلبي رحمةً لهما، وهما يبكيانِ ويتضرَّعانِ ويقولان: ياخالَنا، الله الله في أمرِنا لاتُهلكْنا بذنبِ غيرِنا، ارحمْ. وهو مع ذلك يَبكي لبكائِهما حتى ظننتُ أنه يرحَمُهما. ثم مسحَ عينيهِ من الدموعِ وقال: يامسرورُ. والله ليسَ إلى تركِهما من سبيلٍ، ولاأقدرُ، والله، أسمعُ بذكرِهما. ويلكَ يامسرورُ. غمُّ ساعةٍ ولاتَنغيصَ العيشِ أبداً. خُذ إليك هذا الكبيرَ فافعلْ به كما أفعلُ أنا بهذا الصغير. فأخذَ واحداً وأخذتُ واحداً، ثم قَذفْناهُما في النار. فوالله ماسمعتُ لهما حسَّاً ولاحركةً غيرَ الصرخةِ الأولى. ثم خمدَ حسُّهما، ولم يتبينَّ لهما في تلكَ النارِ عظمٌ ولاغيرُه[1].

فلما كان في بعضِ أيامٍ، وخمدتِ النارُ، أمرَ بذلك الرمادِ فذُرِّي في الدَّجلةِ في يومِ ريحٍ عاصفٍ. وأمرَ أن لاتُذكرَ البرامكةُ في مجلسهِ، ولايستعانَ بمن بَقيَ منهُم، ولايَبقى معه أحدٌ في المدينةِ منهم. فخرجوا على وجوهِهم في بلادٍ مشرَّدين متفكِّرين، وقطع الله دابِرَهُم.

فلما كانَ بعدَ مدةٍ من هلاكِ البرامكةِ وجد الرشيدُ رقعةً تحتَ مُصلاَّهُ فيها خطابٌ وأبياتٌ من الشعر. ففتَّشَ وبحثَ عليها، فقيلَ إنَّ صاحبَ الخبرِ عملها. فبعث عليه / فقال: ياأميرَ المؤمنين وجدتُها في صحنِ الدارِ، ولا أعلمُ مَن طرحَها، فأخذتُها وطرحتُها تحتَ مُصلاَّكَ. ١١٣/آ

فقيل: إنَّ ذلك من فِعلِ زُبيدةَ بنتِ القاسم ليهلكَ مَن بقيَ من البرامكةِ. فعملتِ الرقعةَ للرشيدِ وحركتْهُ وزادَتْ في غيظهِ. فاسْتدعى في الوقت بالفضلِ بن يحيى وضربَه أَسياطاً حتى كادَ أن يَهلَكَ، وزادَ في حديده وأغلالهِ. وكان قد نَشأ في النَّعيم. واستدعى يحيى وكان شيخاً كبيراً، فزادَ في حديدهِ وأَغلالهِ وسجنهِ. فكتبَ كتاباً إلى الرشيدِ يستعطفُه ويسألُه أن يخفِّفَ عنهُ مِن القيدِ والغلِّ، وكان في الرُّقعة:

---

١ ـ لم يوافق الطبري على قتل الطفل، فقال: أراد قتل الصبي ثم تحوَّب من ذلك (٨/ ٢٩٤).

«بسم الله الرحمن الرحيم. لأميرِ المؤمنينِ وخلفِ المُهتدينَ وخليفةِ ربِّ العالمين، مِن عبدٍ أسلبتْهُ ذنوبُه، واستأسَرتْهُ عيوبُه، وخذَلَهُ شقيقُهُ، ورفضَهُ صديقُه، وخانَ به الزمانُ، وناحَ عليه الخذلانُ والحِدْثانُ فصارَ إلى الضيقِ بعد السعةِ، وعالجَ البؤسَ بعد الدَّعة، وشربَ كأسَ الأمرَّين مُترعةً، فافترشَ السخطَ بعدَ الرِّضى، واكتحلَ السهرَ بعد الكرى، فنهارُه نكرٌ وليلهُ سَهر، قد عايَنَ الموتَ مراراً. ياأميرَ المؤمنين حجبَ الله عني فَقْدَك لما أُصبتُ به بعدكَ. قد أُصابَتْني مُصيبتانِ وهما الحالُ والمالُ. فإنَّ ذلك كان منكَ ولكَ، وكان عاريَّةً في يدي منك، ولابأسَ بردِّ العواري إلى أهلها. فأما المصيبةُ بجعفر فبجرمِهِ وجَريرتهِ وعاقبتهِ بما استخفَّ من أمرِك، وكان جزاؤه فوقَ ذلك. فاذكرْ ياأميرَ المؤمنين خِدمتي، وارحمْ ضَعفي ووهَنَ قوتي، وهبْ لي رضاً منك، فمَن مِثلي للزلَلِ ومَن مثلُكَ للعَفوِ / والإقالةِ. ؟ ١١٣/ب

ولست أعتذرُ، ولكنني أقرُّ، وقد رجوتُ أن أقرَّ برضائِكَ، فتقبَّلْ عُذري وصدقَ نِيَّتي وظاهرَ طاعَتي وتلويحَ حُجَّتي، ومايكتفي به أميرُ المؤمنين ويرى الخليفةُ فيه ويبلغُ المرادَ إن شاء الله تعالى.

ثم قالَ للخليفةِ ذي الصنائع والعظماء الهاشمية:

زينَ الخلائقِ مِن قريـ	شٍ والملوكِ المهدويَّه[1]
أينَ الملوكُ وخيرُ مَن	ساسَ الأمورَ المهاديَّه؟
أينَ البرامكةُ الذيـ	ـنَ رُموا بتلك الماهديَّه؟
عَمتْهمُ منك سَخطةٌ[2]	لم تُبقِ منهمُ بقيَّه
صُفرُ الوجوهِ عليهمُ	خِلعُ المذلَّةِ بارزيَّه
مُستضعفونَ مُطرَّدو[3]	نَ بكلِّ أرضٍ قاصِيَّه
أضحوا وجلُّ مُناهُمُ	منكَ الرِّضا والعافِيَّه

---

١ ـ في الأصل: المهدية.

٢ ـ مضطرب الوزن.

٣ ـ في الأصل: ومطرودون.

بعدَ الوزارةِ والولا   يَةِ والأمورِ الآيليَّه
أُلقى الزمانُ جِرابَهُ   مُستبقياً نَيفاً أبيَّه
فرمَى سوادَ مَقاتلي   فأصابَ جيشَ هَلائكيَّه
يامَن تَوارى للرَّدى   يَكفيكَ ماباءَ بيَّه[1]
يكفيكَ أني مُستبا   حُ مَعشري ونسائِيه
يكفيكَ ماأبصرتَ مِن   ذُلي وذلٍّ مَقامِيَه
وذهابِ ماليَ كلِّهِ   فقدُ الخليفةِ مالِيه[2]
إنْ كان مايُرضيك إلْـ   لا [أن] أذوقَ حِمامِيَه
فلقد رأيتُ الموتَ مِن   قبلِ المماتِ عَلانِيه
أوَ ماسمعتَ مَقالتي   ياذا الفُروعِ الزاكيه؟

قال: فلما وقفَ الرشيدُ على الرقعةِ أوقعَ على ظهرِها يقول:

أَجرى القَضا عليكُمُ   ماخُنْتموهُ عَلانِيَه
مِن تركِ نصحِ إمامِكُم   عندَ الأمورِ البادِيَه

قال: ثم كتبَ تحتها: «بسم الله الرحمن الرحيم». وكتب تحتها: «وضربَ الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كلِّ مكانٍ، فكفرتْ بأنعمِ الله فأذاقَها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون». /[3]. ١١٤/آ

فلما قرأ يحيى الكتابَ، وهو في السجنِ، أَيِسَ منَ الحياة، وعَلم أنه ليس له مَخلصٌ ممَّا هوَ فيهِ. فبقيَ مدةً في السجن. وكان الرشيدُ قد نذر الحجَّ، فخرجَ له وخرجَ معَه العسكرُ. وكان خروجُه في رمضانَ. فكانتْ تُضربُ له السُّرادقاتُ مُكلَّلةً بالديباجِ، مَفروشةً بالحرير،

١ـ في الأصل: مابايه.
٢ ـ في الأصل: ماإليه.
٣ ـ الآية: ١١٢/ النحل: ١٦.

يخرجُ مِن سُرادقَ إلى سُرادقَ والناسُ مُحدِقون به، حتى وصلَ إلى الحرمِ وحجَّ.

واتُّفقَ أن الحياةَ دنتْ مِن يحيى وهوَ في السجنِ، فكتبَ رقعةً وأوصى ولدَهُ الفضلَ أنْ يوصلَها إلى هارونَ الرشيدِ، وكتبَ فيها يقولُ:

ستَعلمُ في الحسابِ إذا التَقينا غداً عندَ الإلهِ مَنِ المظلوم
وينقطعُ التلذُّذُ عن أناسٍ منَ الدنيا وتَنقطعُ الهمومُ

قال: فلما قدم الرشيدُ أنفذَها إليه الفضلُ. فلما قرأها عرفَ بموتهِ فقال: ماتَ والله يحيى وماتَ الجودُ والكرمُ والسخاء. والله لو كانَ خيالاً فرجتُ عنه. ثم أمرَ بإطلاقِ الفضلِ ابن يحيى، واستوزَرَه مكانَ أخيهِ جعفر، رحمةُ الله عليهم أجمعين.

فانظرْ ياأخي: إلى هذه القصةِ العجيبةِ، وماوَقَع فيها من الأمورِ الغريبة، وما تحمَّله هارونُ من الوِزرِ والإثم العظيمِ. وكان السببُ في ذلك كلِّه أختَه مَيمونَةَ. وانظرْ كيفَ دبَّرتْ أمراً كان فيهِ هلاكُها وهلاكُ أولادِها وأبيهم جعفر البرمكي وسائرِ البرامكة. فنعوذُ بالله من كيدهنَّ «إن كيدَهنَّ عظيم».

قصّة العابدة الغلام

ومن هذا القبيـــل مارُوي عن ابن عبـــاس رضي الله عنهـــما قال: كان في زمـــانِ بني إسـرائيـلَ سبعـةٌ من العُبَّـاد قد /رَفَضـوا الـدنيـا وتـركـوهها لأهلها. فقال بعضُهم لبعضٍ: كيفَ لنا بالانفـرادِ لعبـادةِ الله تعـالى؟ فقـال أكـبرُهم سناً: أرى لكُم من الرأي الخروجَ والانفرادَ. فخرجَ القومُ حتى انتهوا إلى فلاةٍ من الأرضِ بجوارِ مدينةٍ من مدائنِ الشام. فقال بعضُهم لبعض: خُذوا بنـاء في بنـاء بيتٍ في هذا المـوضـعِ فإنـه موضعٌ حسنٌ إذ هوَ بجوارِ مدينةٍ من المدائنِ لاغناء لنا عنها. فقال بعضُهم: سألتُكم بالله الواحدِ القهار لاتأخذوا[1] في بناء بيتٍ في هذه الدارِ، فإنها دارُ غرورٍ، ولاتدومُ لأهلها على حالٍ. فقال القومُ: لابأسَ ولا غناء لنا عن موضـعٍ نسكنُ فيـه. فقـال: إن كان ولابـدَّ فابْنـوا خيمـةً من القصب تسكنـونَ فيها. فأجـابـوهُ إلى ذلـك، فلما صارُوا في الخيمـةِ قالـوا: كيفَ لنا في الخلاصِ في طلب المعاش؟ فقـال كبـيرُهم: خذوا بِنـا في عمـلِ الحُصُـر؛ أربعـةٌ منـا يصنعون الحصُرَ وثلاثةٌ يختلون[2] للعبـادةِ. فإذا فرغَ الأربعـةُ من عمـلِ الحصـرِ وبـاعُـوها أخذوا في العبادة. وعَملتِ الثلاثةَ الأخرى في الحصر.

١١٤/ب

قال: فأقـامـوا في ذلـك ماشـاء الله تعالى وهم يعملون في الحصُرِ، ويمضُون بها إلى المدينةِ فيبيعونَها ويأخذونَ بثمنها زيتاً وخبزاً من الشعير. فقال بعضهُم لبعضٍ: كيفَ لنا أن نلبسَ شيئـاً لم يَسبقْنـا إليـه أحدٌ من الناس؟ فقال كبيرهُم: والله لاأرى شيئاً من اللباس إلا وقد سَبقَنا إليه الناسُ ولبسوهُ، إلا أن يكونَ لباسَ الحصر؟ قال: فلبسوا الحصرَحتى تجرَّحتْ

---

١ - في الأصل: لا تؤاخذوا.

٢ - في الأصل: يتخلون.

أعناقُهم منها. وأداموا البكاء ليلاً ونهاراً، وتعبَّدوا بعبادةٍ لم يقدرْ عليها أحدٌ من الناس في زمانِهم. حتى اتصلَ خبرُهم لملكٍ من ملوكِ بني إسرائيلَ، وكانت / له بنتٌ صغيرةٌ ماتتْ أُمُّها، فأقبلَ الملكُ على البكاء ليلاً ونهاراً، لايفترُ عنه طرفةَ عَينٍ. فلما كان ذات يومٍ أقبلتْ عليهِ ابنتُه وقالتْ: ياأبتِ إلى كمْ هذا البكاء الذي أنتَ فيهِ؟ فقال لها: يابُنيَّةُ اعلمي أني تفكَّرتُ في هذهِ الدُّنيا وفي هؤلاء العُبَّادِ السبعةِ الذين تركوا الدنيا لأهلها ورفضُوها ونعيمَها لعلمِهم أنها دارُ زوالٍ، لاتدورُ على حالها لأحدٍ. وإنَّ هذا الملكَ الذي أنا فيهِ لايَنفعني ولايدومُ لي، وإني أرى أن أتركَه وأسيرَ إليهم وأكونَ معهم، وأتخلَّقَ بخُلقِهم، وأتعبَّدَ بعبادتِهم حتى يقضيَ الله عليَّ وعليهم بما هوقاضٍ. وعسى أن يكونَ الفرجُ قريباً إن شاء الله تعالى. فلما سمعتْ مِن أبيها ذلك بكتْ ابنتُه وقالت: لمن تتركُني ياأبتِ؟ ليسَ لي أحدٌ غيركَ، فإنَّك إنْ تركتني وليسَ لي أحدٌ ينصدعُ قلبي، ويتقطَّعُ عليَّ كبدِي، ويكونُ ألمي عليكَ أكثرَ من الثوابِ الذي ترجوهُ من ربِّك.

قال: فبكى أبوها وقال: كيف أفعلُ بكِ؟ لأنه لاينْبغي للنساء أن تقعُدَ مع الرجالِ في ليلٍ ولا نهارٍ. فقالت: ياأبتِ أنا صغيرةٌ، ولا أرى الرجالَ ولا أمورَهُم فاقطعْ لي ثيابَ الرجالِ وأتزيَّا بزيِّهم وأسيرُ معكَ حتى يقضيَ الله عليَّ بما هوَ قاضٍ. قال: فقطعَ لها أبوها ثياباً من الشَّعر، وقطعَ لنفسهِ كذلك، وأخذَ بيدِها وسارَ هارباً بالليل، وتركَ أهلَ مملكتهِ. حتى انْتهيا إلى القومِ العُبَّاد فدخلا عليهم الخيمةَ، وسلَّما عليهم. فردُّوا عليهما السلامَ ورحَّبوا بهما واستبشروا بالغلام الذي معَه. وظنوا أنه ذكرٌ، فجلسا عندَهم.

فكان القومُ يصنعون الحصُرَ على عادتهم، حتى إذا كان آخر النهارِ / سارَ الغلامُ بما عَملوا إلى المدينةِ فيبيعُه ويشتري بثمنهِ زَيتاً وخبزَ الشعير ويأتي به إلى أصحابهِ. فكانوا على ذلك الحالِ حتى مرضَ الملكُ مرضاً شديداً، فلما أشرفَ على الموتِ أقبلَ عليه أصحابُهُ فقالوا: ياوليَّ الله أخبرْنا بما ترى، فإنه بَلغنا عن الله تعالى أن الروحَ لاتخرجُ من الجسدِ حتى يَرى صاحبُها مقعدَهُ في الجنةِ أوفي النار. فقال لهم: أبشروا ياإخوانَنا، فإنكم تُقبلون على ربٍّ كريم. وإني أُوصيكم بوَلدي هذا، فإنه صغيرٌ، وإني أتركُه وديعةً لله تعالى ثم لكُم وديعةً في أيديكُم إلى يوم القيامةِ أسألكُم عنه. فقال: جزاكَ الله خيراً، لقد صدقتَ

١١٥/آ

١١٥/ب

فيما قلتَ، وأبشرْ أنتَ أيضاً فإنا نكونُ له كما كُنا لكَ وأكثرَ إن شاء الله تعالى .

فجزاهُم الله خيراً، وتُوفي رحمهُ الله تعالى، فأخذوا في تجهيزهِ، وغَسلوه وكفَّنوه في ثيابهِ الشَّعر وصلُّوا عليه ودَفنوه. وكانوا لولدهِ[1] بعدَه كما كانوا له في حياتهِ. فقضَى الله تعالى أن الغلامَ ابنَ الملك، التي هيَ الجاريةُ، بعد وفاةِ أبيها توجَّهت يوماً إلى المدينةِ تَبيعُ الحصرَ على ماجرتْ به العادةُ، فوافَقَ في طريقهِ ابنةَ الملكِ صاحبِ المدينة الذي هوَ مالكُها، وهي قاعدةٌ مع دايَتِها في طاقةٍ من قصرِها. فلما نظرتْ ابنةُ الملك إلى الغلامِ وهو داخلٌ المدينةَ أعجبَها[2] وهي تحسِبُه ذكراً[3] فلما أعجبَها حسنُه وجمالُه تعلَّقَ قلبُها به، فأقبلتْ على دايتها وقالت لها: ألا تنظرين[4] إلى هذا الغلامِ ماأجملَه ومـاأحسنَه، فعسى أن تَطلعي بهِ عليَّ وتَجمعي بَيني وبَينه، ولكِ عندي ماشئتِ وماتَقولينَه.

١١٦/آ قال: فنزلتِ الدايةُ مسرعةً إليه / وقالتْ له: أبشرْ ياحبيبي بكلِّ خيرٍ، قد أقبلَ عليكَ السَّعدُ، فإنكَ عند الله بمنزلةٍ عظيمة، وإنَّ ولدي مريضٌ يعالجُ سكراتِ الموتِ، فاطلعْ إليه ولقِّنْه الشهادةَ، ليفوزَ منكَ بالسعادة. قال: فدخلَ الغلامُ معَها، وأغلقتِ الأبوابَ خلفَه وأوقفَتْه وقالتْ لابنةِ الملك: انزلي إليهِ. فنزلتْ إليه من قصرِها، وهيَ تخطرُ في مشْيتها وحُليِّها وحُلَلِها. فلما رأتْه قالت: تمنَّ عليَّ ماشئتَ. قال: معاذَ الله، إني أخافُ الله إن عصيتهُ أزال[5] النورَ الذي في وجهي من سُخط ربيِّ ويُذهبُ حظِّي من الجنة. فقالت: لابدَّ من ذلك وإلا لم يسعْكَ معي أرضٌ ولاسماء ولا مكانٌ. وإن لم ترضَ طوعاً فعلتَ كُرهاً. ثم مدَّتْ يدَها إلى نحوِ الغلام. فلما رأى ذلك منها وأرادَ تقبيلَها فبكى وقال: لا إله إلا الله، إني لاأحبُّ مَن عصَى الله تعالى. فألقَى الله في قلبِ الصبيَّةِ الرُّعبَ والفزعَ، فقالت: يادايَة أخرجيهِ عني فإنه شيطانٌ ولايُشبه الجنَّ. قال: فأخرجتْه الدايةُ وقالت له: خذْ حُصرَكَ

---

١ - في الأصل • لوالده.
٢ - في الأصل: فأعجبها.
٣ - في الأصل: ذكر.
٤ - في الأصل: تنتظري.
٥ - في الأصل: زال.

واخرجْ عنا. فخرجَ بها ومضَى إلى السوق وباعَها واشترى بها زَيتاً وخبزاً ورجعَ.

فلما خرجَ من باب المدينةِ رأتْه ابنةُ الملك ثانياً فقالتْ: والله لأعملنَّ على هَلاكِكَ وقَتلِكَ وهتكِكَ. فقال لها: الله يحكمُ بيني وبينكَ. ثم سار إلى أصحابهِ ولم يكترثْ بها ولم يخبرْهُم بشيء مما جرى له معها.

ثم إنَّ الجاريةَ ابنةَ الملك التي في المدينة تحركتْ عليها شهوتُها واشتاقتْ إلى الرجال فقالت لدايتها: إني اشتَقْتُ إلى رجلٍ أضمُّه ويَضمُّني، فعساكِ تحتالين لي في حاجتي وتكتُمي سري. قال: / فأتَتْها الدايةُ بفاسقٍ من فُساقِ بني إسرائيلَ فوطِئَها، فحملتْ منه ومكثتْ تسعةَ أشهر. فقدرَ الله تعالى أن أمَّها دخلتْ عليها وهي بينَ خَدمِها، فقعدتْ معها فنظرتْ إلى صُفرةِ وجهِها وعليه الكلفُ، فأدخلتْ يدَها من كمِّها ومرَّت بها على بطنها فإذا الجنينُ يركضُ في بطنها. فصاحتْ أمُّها صياحاً عظيماً وغشيَ عليها. فلما نظرتِ الجواري إلى ذلك ذهبْنَ إلى الملك وأخبرْنَه بخبرِ مَولاتِهنَّ. فجاء الملكُ فزِعاً ودخلَ عليها، فأفاقتْ من غَشوتِها وقال لها: ماخبرُكِ؟ قالت: قد سَخطَ الله علينا. قال:[1] لأيِّ شيء؟ قالت: إنَّ الزنى قد ظهرَ في قصرِكَ. قال: كيفَ؟ قالت: ابنتُك وقعَ لها كذا وكذا. فصاحَ بها فحضرتْ بين يديْهِ فقال لها: اصدُقِيني الخبرَ وإلا قطَّعتُكِ بالمقاريضِ قطعاً. فلما سمعتْ منه ذلك قالت: والله ياأبتِ مافعلَ بي أحدٌ إلا الغلامُ الذي مع العُبَّاد السبعة.

١١٦/ب

فلما سمعَ ذلك منها اصفرَّ لونُه ووجهُه وتغيرَّ جسدُهُ وارتعدتْ فرائصُه وعمدَ إلى سريرِ مملكتهِ، فاسْتَوى عليه جالساً، وقال: عليَّ بصاحبِ الشرطةِ وأصحابهِ. فلما حضروا بين يديْهِ قال لهم: عليَّ بالسبعةِ العُبَّادِ والغلامِ الذي معهم ولاتَسوقُهم إلا سَوقاً عنيفاً بالحبال في أعناقِهم واللطمِ على وجوهِهم والضربِ بالحجارة، فقد صَنعوا ذَنباً عظيماً. قال: فمضَى صاحبُ الشرطةِ وأصحابُه حتى دَخلوا عليهم الخيمةَ فأزعجوهُم وجعلوا الحبالَ في أعناقِهم وضَربوهم على وجوههم وساقُوهم حتى دخلوا بهم على الملكِ وهم على تلك الحالةِ وفي تلك الإهانةِ. فلما نظرَ إليهم صاحَ فيهم وانتهرَهُم وقال لهم: أنتم ياعُبَّادَ الله في العَلانيةِ

---

١ ـ في الأصل: قالت.

عُبّادٌ وفي السر / فُساقٌ. فقالوا له: ولِمَ سَمَّيتَنا فُساقاً؟ فوالله ثم والله مافينا مَن يعصي الله ١١٧/آ
طرفةَ عينٍ، أو ماعلمتَ أيُّها الملكُ أنَّ الزنى هو دونَ الشِّرك بالله تعالى. فأخبرْنا بأيِّ شيء
استوجبنا هذه العقوبةَ منك؟ فقال: إنما فعلتُ هذا بكم لأجلِ[1] الغلامِ الذي معكم فإنَّه
قد ارتكبَ مِن ابنتي شيئاً لم يرضَ الله بهِ ولا يَرضاهُ مَن عرفَ الله تعالى. فقالوا: سبحانَ
الله، أتؤاخذُنا بذنبِ غيرِنا؟ فإنَّ الغلامَ الذي معنا لم نَرَمنه إلا الخيرَ والصلاحَ، فإذا غابَ
عنا فلا علمَ لنا بهِ، فراقب الله تعالى في أمرِنا واحذرِ العقوبةَ منَ الله بما تسوء.

قال: فبكى الملكُ بكاءً شديداً وقال: اغفروا لي ذنبي وافوا عني. فقالوا: مَن أرادَ أن
يغفرَ الله له يكفَّ عن ظلمِ الناس، ولكن أيُّها الملكُ أنتَ تحبُّ أن يغفرَ الله لك؟ قال:
نعم. قال: اعفُ عن هذا الغلامِ الذي معنا. قال: ياقومُ، قد وقعَ في قلبي أن أعذِّبَ هذا
الغلامَ عذاباً شديداً، ولكن أنا أُخيرِّهُ بين خصلتين: إمَّا أن أضربَهُ ضرباً وَجيعاً وإمَّا أن
أنفيَهُ مِن أرضي. فقالوا: أيُّها الملكُ إنَّ بعضَ الشرِّ والعقابِ أهونُ من بعضٍ، أَخرجْه من
أرضِكَ. قال: إني فاعلٌ بهِ ذلك.

ثم التفتَ إلى الحاجب وقال: خُذ هذا الغلامَ وانطلقْ به إلى آخرِ أعمالي واتركْه حياً
في أثوابـهِ. فأخذَه الحاجبُ وانطلقَ بهِ حتى انتهى به إلى فلاةٍ من الأرض فتركَه فيها وحيداً
ورجعَ. فقضَى الله عزَّ وجل أن زوجةَ الملك الذي أَتتْه بالمولود الذي[2] وضعتْه ابنتُه وقالتْ
له: خُذْ هذا ولدَ الزنى، وقد وضعتْه ابنتُكَ، فأَخرجْه عنا قبلَ أن يسخطَ الله علينا. قال:
فالتفتَ الملكُ / إلى الحاجبِ الذي تولَّى نفيَ الغلامِ وقال له: أنتَ تدري أين تركتَ ١١٧/ب
الغلامَ؟ قال: نعم. قال: فخذْ هذا المولودَ وانطلْق به إليه وضعْهُ عندَهُ فهو أَولى بهِ. قال:
فأخذَه الحاجبُ وسارَ به حتى انتهى إلى الغلامِ فوجدَه قائماً يتعبَّدُ. فقال له: يقولُ لك
الملكُ: خذْ ولدَكَ الذي جاءتْ به ابنةُ الملك منكَ كما زعمتْ. فقالتِ الجاريةُ، التي هي
الغلامُ: حَسبيَ الله ونعمَ الوكيلُ ولا حولَ ولاقوةَ إلا بالله العلي العظيم، حسبي مِن سؤالي
علمُه بحالي. ثم مدَّتْ يدَها إلى الغلامِ فأخذتْه احتساباً بالله تعالى فوضعتْه عن يَمينِها

---

١ - في الأصل: إلا لأجل.

٢ - في الأصل: التي.

وجعلتْ تصلي وتبكي وتقولُ: إلهي وإلهَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، أسألُك أن تكفَلَ هذا المولودَ، فإنك تعلمُ أنْ ليسَ لي فيهِ حيلةٌ ولا خطيئةٌ، وارزقْهُ كيف شِئتَ وهو عبدُكَ.

قال: فأوحى الله تعالى إلى جبريلَ عليه السلام: أنِ امضِ إلى جبلٍ من جبالِ الشام، فتأمُرُ غزالةً من غزلان ذلك الجبل أن تأتيَ إلى ذلك المولودِ فتكفَلُه وتُرضعُه، فإن تلك العابدةَ المسكينةَ سألَتْني في ذلك، وحقيقٌ عليَّ أن أجيبَها إلى ما سألَتْني لأنها لم تشكُ ما نزلَ بها إلى أحدٍ غيري. فوعِزَّتي وجلالي لو سألَتْني أن أزيلَ لها الجبالَ مِن أماكنها لفعلتُ لها ذلك لكرامتِها عليَّ.

قال: فأتى جبريلُ عليه السلام إلى ذلك الجبل، ونادى غزالةً من غزالاتهِ وقال لها: اذْهبي إلى كذا وكذا فأرضعيهِ. فأتتِ الغزالةُ إليه فأرضعتْه مدةً. قال: فسألتْ تلك العابدةُ ربَّها أن يقبضَ ذلك المولودَ حتى لا يشغَلَها عن عبادةِ الله تعالى فقُبضَ، واستراحتِ الجاريةُ منه، / ولا زمتْ صلاتَها حتى كان الطيرُ يقعُ عليها وهي قائمةٌ وساجدةٌ، ولم تشعرْ به. ١١٨/آ

فمكثتْ هكذا مدةً طويلةً حتى شاعَ ذِكرُها في الشام. وقال الناسُ: هذا شابٌّ مُجابُ الدَّعوةِ. ثم قال العُبَّادُ السبعةُ: نَسيرُ إلى الملكِ ونسألُه أن يردَّ علينا صاحِبَنا. فساروا حتى دخلوا على الملكِ، فرحَّبَ بهم وقال لهم: ما تُريدونَ؟ فقالوا: أيُّها الملك، أما ترى إلى ذلك الغلامِ الذي نَفيتَه إلى بقاعِ الأرضِ كيفَ هو مجابُ الدَّعوةِ؟ ونحن نسألُكَ أن تردَّه علينا. فقال لهم: شأنَكُم وإياهُ. فقالوا: لاطاقَةَ لنا بردِّهِ. فقال الملكُ للحاجبِ الذي كان نفاهُ: سِرْ إليه وأحضرْه إلى أصحابهِ.

قال: فسارَ إليه وردَّه إليهم. فلما رآه الملكُ قال له: أتحبُّ المُقامَ عندي أو إلى أصحابِك. فقال: أريدُ أصحابي. قال: دونَكَ وإياهُم. قال: فمضى الغلامُ إليهم فدخَل عليهم، فسلَّموا عليه ورحَّبوا بهِ. ومكثَ معهم مدةً في العبادةِ. ثم مرضَ فجلسوا حولَه وقالوا له: بماذا تُوصينا؟ فقال لهم: اتَّقوا الله كأنكم تَرونَه، فإن لم تكونوا ترونَه فإنه يَراكُم، وإياكم والمعاصي فإنها تسوِّدُ الوجهَ وتُغضبُ الربَّ. فقالوا: جزاكَ الله عنا خيراً. قال: فما وصيَّتُنا على نفسِك نفعلُه معكَ إذا قُبضتَ؟ قال لهم: أُوصيكم أن تَدفنوني في مِسحي[1]

---

١ ـ المسح: الكساء من الشعر.

الذي عليَّ، ولا تَقلعوا من عليَّ مِسحي. فقالوا: لابدَّ منَ الغُسل. فقال لهم: قُولوا لفلانٍ، فإنه أكبرُ منكم سِناً يأخذُ سِكيناً ويحدُّها على حجرٍ، ثم يضعُ طرفَ السكينِ على مِضْرعتي بينَها وبينَ نحري ويشقُّها وينظرُ إلى صَدري، وافعلوا ما شئتُم/ بعد ذلك. ١١٨/ب

ثم قُضيَ عليهِ، فبكَوا عليه بكاء شديداً. وفعلوا ما أُمرهم به. فلما وَضع كبيرُهُم السكينَ على صدرِه وشقَّ جيبَهُ بداله صدرُ جاريةٍ وثدياها[1]. فرمى السكينَ من يدهِ وهربَ وقال لأصحابهِ: ظَهر لي صدرُ جاريةٍ! فقالوا له: انظرْ ثانياً. فقال أمَا علمتُم أنَّ مَن نظرَ إلى جسدِ أجنبيةٍ باختيارهِ يعاقَبُ به؟ فقالوا: كيف نصنعُ؟ قال: ادخُلوا المدينةَ وأَعلموا النِّسوةَ يأتينَ وينظرْنَ إليها. فنهضوا ودخلوا المدينةَ وأَتَوا بالنسوةِ. فلما دَخلْنَ عليها وظهرَ أمرُها وتبينَّ أنها امرأةٌ أَوقعْنَ عليها الصياحَ. فأَقبلَ الناسُ بأجمعِهم من كلِّ فجٍّ حتى ضاقَتْ بهم البريَّةُ.

وأقبلَ الملكُ ومَن معَه وسألَ عن الخبر، فأخبرتْهُ النِّسوةُ بأنها جاريةٌ. فأمرَ الملكُ زوجتَه أن تَنظرَ لها بنفسِها فنظرتْها فوجدتْها كما يقولون. فأخبرتْه فلما سمعَ قولَها وتحقَّقَ الأمرَ نزلَ مِن على فراشهِ وجعلَ يحثو الترابَ على رأسِهِ، ثم قال للعُبَّادِ: دَعوني أكفِّنْها، فإني جَنَيتُ عليها جنايةً كبيرةً، وأخافُ أن الله تعالى يعذِّبني بها عذاباً شديداً. ثم أمرَ بإحضارِ الأكفانِ، واسْتدعى بابنتهِ وأَوثَقَها بالحديد وقال: حتى نغسلَ الجاريةَ وندفِنَها أفعلُ فيها ما يأمرُني الله به. فلما أراد النسوةُ تجهيزَها وجدتْها النسوةُ مُغسلةً مُكفنةً وعليها من الأكفانِ ما لم يُرَ مثلَه قطُّ. فقُلنَ للملك: قد رَدَّ الله عليك أكفانَك وكفَّنَها الله من الجنةِ. فبكى الملكُ بكاء شديداً، وبكى مَن حولَه وعلَتِ الأصواتُ بالبكاء والنحيب.

فأراد الملكُ وضعَ أكفانهِ فوقَ الأكفانِ، فأبى[2] العُبَّادُ، ثم حَفَروا لها ودَفَنوها، فوجدوا القبرَ أطيبَ / رائحةً من رائحةِ المسك وصلَّتْ عليها العُبَّارُ والملائكةُ والناس أجمعين. ورأَوا فيهم فارساً راكباً[3] على فرسٍ أشقرَ، وهم يسمعونَ التكبيرَ من الهَويِّ. ١١٩/آ

ولما أتمُّوا دفنَها أمرَ الملكُ بإحضارِ ابنتهِ وضربَ عنقَها، وقال لوزيره: خُذ رأسَها

---

١ ـ في الأصل: وثدييها.
٢ ـ في الأصل: فأبوا.
٣ ـ في الأصل: فارس راكب.

واجعلْهـا في طَشْتٍ وطُفْ بها المدينةَ ، وامُرْ منادياً ينادي : هذا جزاء مَن صنع الفاحضةَ واتَّهم أوليـاء الله تعـالى بها . ففعـلَ الـوزيـرُ ما أمـرَه به الملكُ ، ونـادى عليهـا والنـاسُ مجتمعـون يسمعونَ . وكان يوماً عظيماً ما رُئِيَ مثلُه قطُّ ، والله سبحانَه وتعالى أعلمُ .

فانظر يا أخي إلى فِعلةِ النساء وتَدبيرِ أمرهنَّ لأجلِ شَهَواتهن وكيدهن إلى الرجال . فنعـوذُ بالله من كيـدهن إن كيـدَهنَّ عظيم . فكـونـوا يا إخـوانَنـا من أخيـارِهن على حَذَرٍ، واحـذروا من الإركـانِ إليهن ، فإنَّ الإركـانَ إليهن في غايـةِ الضـرر. حمانـا الله ومحبِّينـا منهنَّ ، وأخرجنا من ديارِهن ومكايدِهن على سلامةٍ بمنِّهِ وكرمِهِ وخفيٍّ لطفهِ ، آمين .

وكان الفراغ من كتابتها يوم الثلاثاء
المبارك سادس عشر جمادى الأولى
من شهور سنة ألف ومئة
وثماني عشرة من الهجرة
على صاحبها أفضل
الصلاة والسلام
على يد الفقير إلى رحمة ربه العلي محمد البرهمي الأزهري
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات آمين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

محتوى الكتاب

لعل من أطرف الكتب التي تسترعي انتباه القراء ما خُصَّ منها أو بعضها في الحديث عن المرأة ؛ فهي الطرفُ الناعم من هذا الجنس البشري، وهي الأنس الذي وهبه الله تعالى للرجل، وهي السرُّ الواضح، والجليُّ الخفيُّ في هذا الكون !

وقد أدرك المؤلفون جاذبية هذا السر، وأهمية ذكر المرأة في كتبهم . فنراهم قد زينوا كتبهم بنوادر وأطراف من المعلومات والأخبار، عدّوا الحديث فيها محطة ارتياح فكري، وموطن بسمة متوقّعة لكل قارئ ، فلا نكاد نجد كتاباً جمع أطرافاً من الطرائف، وباقات من الأخبار إلا وخصَّ جزء من عمله للحديث عن جانب شائق من جوانبها، مثل كتاب « محاضرات الأدباء » للراغب الأصبهاني، و« الأغاني » لأبي الفرج، و« المخصص » لابن سيده، و« عيون الأخبار » لابن قتيبة . . .

ومما لا شك فيه أن الأدباء الذين خصوا كتبهم، أو طعموها تطعيماً ، بهذه المادة الخصبة أذكياء في انتقاء موضوعاتهم . ونعدُّ مؤلفنا ابنَ البتنوني أكثرهم حنكة وألمعية وذكاء ، إذ قدَّم لنا كتاباً ضمَّ بين دفتيه عشرات من القصص الطريفة التي حاول أن يثبت فيها دهاء المرأة وكيدها .

فالكتاب مجموعة أقاصيص دينية، أو تاريخية، أو مطعَّمة منهما، أو ذات طابع خيالي وعظي. وهو في ذلك كله لم يكتب شيئاً من عنده. وغاية ما فعله أنه جمع الروايات والنقول، واختصرها وهذَّبها، واستشهد عليها من مخزون معرفته بذكاء نادر وعرض جالب .



الناشر :
دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف 865126 — ص.ب. 13/5261 بيروت — لبنان

توزيع :
مكتبة بيسان
هاتف 802389 — ص.ب. 13/5264 بيروت — لبنان